إحسان عبد القدوس

الهزيمة كان اسمها فاطمة



مركز الأهرام للترجمة والنشر

الهزيمة كان اسمها فاطمة

إحسان عبد القدوس

المحتويات

أين صديقتي اليهودية؟

أعترف أنى لا أكتب قصة إلا بتأثير إيحاء من الواقع .. يجب أن التقى بشيء يشدنى إلى كتابة قصة .. وليس معنى هذا أنى أكتب قصصا شخصية ، فأنا لا أبدأ قصة مطلقا بتحديد شخصياتها ، ولكنى أبدأ بتحديد الفكرة .. الرأى .. ماذا أريد أن أقول .. وهذه الفكرة لا تخطر على بالى غالبا إلا نتيجة حدث عشت فيه ، أو نتيجة لقاء مع شخصية تثير فكرى ..

وقد نسبت بعض القصص التى كتبتها إلى شخصيات محددة ، وكان هذا ظلما لى وللشخصيات المحددة ، فليس بين أبطال قصصى شخصية معينة تعيش بين الناس ، ولكن هذه الشخصية المعينة قد يكون فضلها على أنها أوحت إلى بالفكرة .. مجرد الفكرة .. مجرد الرأى الذى أعبر عنه .. أما أبطال وبطلات القصة فهم دائما شخصيات أطلق لخيالى حرية رسمها .. وكاتب القصة له قدرة الرسام .. فالرسام عندما ينظر إلى شجرة – مثلا – يرى فيها ألوانا لا يراها الفرد العادى .. فاللون الأخضر الذى يراه الرجل العادى يراه الرسام الفنان خمسة ألوان أو أكثر .. يرى مع الأخضر ، الأصفر ، والأزرق ، و .. و .. وكذلك كاتب القصة يرى فى الشخصية التى يصادفها معالم وخطوطا ربما لا يراها الشخص العادى ، وكما يعطى الرسام لنفسه الحق فى أن يتحرر من واقع الشجرة التى يرسمها ، أو « الموديل » الذى يقف أمامه وهو يرسم ، فكذلك كاتب القصة قد يجمع فى خياله معالم مائة شخصية مرت به ليأخذ من كل شخصية خيطا واحدا ويرسم من مجموعة الخيوط التى يجمعها شخصية بطل أو بطلة القصة التى يكتبها ..

ورغم ذلك فإنى أدين بفضل كبير لكل من عبر فى حياتى وأوحى إلىّ

بفكرة قصة .. وأشعر دائما بأن هؤلاء هم أقرب إلى الجنود المجهولين فى البناء الأدبى لكل أديب ، فالعمل الأدبى يبقى ويحمل اسم صاحبه الذى يستأثر بكل نتائجه ، وهؤلاء يبقون بعيدا .. مجهولين .. لا شىء وبلا شىء ..

لا أحد ممن قرءوا لى قصصا يعرف – مثلا – جلاديس ، أو يعرف مدى تأثيرها على نبضات فكرى التى أوحت إلىّ بأكثر من قصة ..

جلاديس فتاة يهودية كانت تقيم قريبا منا فى حى العباسية ، منذ أن كنت صبيا ، وكان كل ما يجمعنى بها ، هو ما يجمع أولاد وبنات الأحياء المتقاربة .. وكنت منذ صباى أهوى القراءة ، وكانت كل قراءاتى فى هذه السن تنصب على القصص ، وكنت أيضا أحاول أن أكتب .. كنت أكتب الشعر ، والزجل ، والقصص .. وبعد أن تعلمت الإنجليزية ، بدأت أتعرف بقراءاتى على كثير من كتاب القصة الإنجليزية الذين لم تترجم أعمالهم إلى العربية .. ولكنى لم أتعلم الفرنسية وإلى الآن لا أقرأ الفرنسية ، وربما كان هذا هو الدافع الذى دفعنى إلى أن أدخل أولادى المدارس الفرنسية حتى أكمل النقص الذى أشعر به ..

كنت لا أقرأ الفرنسية ، وجلاديس تجيد الفرنسية .. وعندما اكتشفت هواياتى الأدبية ، بدأت تترجم لى كثيرا من القصص الفرنسية التى تقرؤها ، وهى التى عرفتنى بالكاتب الفرنسى جى دى موباسان ، الذى كان له تأثير كبير على توجيه أسلوبى فى كتابة القصة القصيرة ، بعد أن حصلت على كل إنتاجه القصصى مترجما إلى الإنجليزية ..

هذا الاهتمام الأدبى المتبادل أطال فى عمر صداقتنا .. جلاديس وأنا .. كانت أقرب إلى الصداقة الأسرية ، فالأسرتان أيضا كانتا متعارفتين .. وطول عمر هذه الصداقة لم أكن أشعر أبدا بأنها يهودية .. لم يكن يخطر ببالى أن أقيسها بمقياس ديانتها .. صحيح أنه كانت هناك فوارق اجتماعية

تفصل بين أسرة جلاديس وبقية عائلات الحى ، ولكن لم أكن أضع هذه الفوارق فى أى ميزان دينى .. كانت أم جلاديس – مثلا – تزور سيدات الأسرة ، ولكن سيدات الأسرة لا يزرنها أبدا ، وكانت العادات أو التقاليد القديمة ، تفرض على كل سيدة أن تحدد يوما فى كل شهر تلتقى فيه مع جميع صديقاتها من سيدات الحى ، ويسمى « يوم المقابلة » ، ولم تكن أم جلاديس تدعى أبدا إلى « يوم المقابلة » .. وكل ذلك كنت أفسره بمقاييس العادات والتقاليد .. وكنت أنا نفسى ضحية هذه العادات والتقاليد ، فقد نشأت وعشت إلى أن كبرت بعيدا عن أبى وأمى فى بيت جدى لأبى ، الذى كان من خريجى الأزهر ومن رجال القضاء الشرعى ، وكانت عقيدته وإيمانه يفرضان ألا تعمل النساء خارج البيت ، وأمى كانت تعمل .. كانت ممثلة قبل أن تنتقل إلى الصحافة .. ولأنها كانت تعمل فقد أبيح لها أن تزورنا فى البيت لترانى ، ولكن سيدات الأسرة لا يزرنها ، ولا تدعى فى يوم المقابلة .. أم جلاديس أيضا .. لأنها تعمل لا لأنها يهودية ..

ورغم ذلك فقد كان هذا التباعد الاجتماعى ، يمسنى أنا أيضا ، عندما أزور جلاديس فى بيت أسرتها .. كنت أشعر منذ كنت صبيا أنهم يستقبلوننى كغريب .. يجلسوننى فى حجرة الاستقبال ، وكل أبواب الحجرات الأخرى مغلقة أمامى ، كأن وراء كل باب سرا ليس من حقى أن اكتشفه ، وتجلس معى جلاديس وهى غير مستريحة .. ورغم أن زياراتى لها فى بيتها كانت نادرة ، إلا أنها انقطعت تماما بعد أن مرت سنوات قليلة على صداقتنا ، وأصبحنا هى وأنا نلتقى خارج بيتى وبيتها فى شوارع العباسية .. كنت أحيانا ألتقى بها أمام المدرسة اليهودية القائمة بحى العباسية ، وأحيانا أمام معبد اليهود القائم هناك أيضا ، وأحيانا مجرد لقاء فى الشارع ..

وكانت أسرة جلاديس تثير دهشتى عندما كنت فى عمر الدهشة .. ليست مجرد دهشة ، ولكنه كان نوعا من التطلع الاجتماعى نحو آفاق جديدة لا أعرفها .. كأنى أقرأ كتابا .. فقد كانت أم جلاديس تعمل « خياطة »

لملابس السيدات ، وكانت أختها الكبرى تعمل راقصة فى ملهى بديعة مصابنى ، وكان أخوها يعمل وهو فى السادسة عشرة من عمره فى دكان صائغ بحى الصاغة يملكه قريب له ، وفى الوقت نفسه يدرس للحصول على شهادة « البكالوريا » .. وأبوها كان يعمل ، ولكن لم أكن أعرف ماذا يعمل .. ربما كان واحدا ممن يصفونهم اليوم بلقب « رجل أعمال » .. أما جلاديس نفسها فقد اشتغلت معلمة فى مدرسة اليهود وهى لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ، بينما كنت أنا فى السنة النهائية من المدرسة الثانوية أعد نفسى لشهادة التوجيهية !

هذا التكوين الاجتماعى الغريب لعائلة جلاديس ، كان يتناقض تناقضا حادا مع تكوين عائلات العباسية ، التى تتساوى فى مستواها الاقتصادى مع عائلة جلاديس .. ففى عائلتنا كان العمل محرما على البنت .. فضيحة .. عيب .. وكان الأولاد مكتوبا عليهم أن يبقوا تلاميذ إلى أن يتخرجوا من الجامعة .. ليس من حق أحد منهم أن يعمل قبل أن يتخرج ، وإلا كانت فضيحة واتهاما للعائلة بأنها عجزت عن الإنفاق عليه إلى أن يتخرج ، أو أنه ولد « بايظ » لم يفلح فى الدراسة .. ولأن ثورتى على التقاليد والعادات التى نعيش بها ، بدأت تتحرك فى فكرى وفى إحساسى منذ بدأت أعى ، فقد كنت مقتنعا بحياة عائلة جلاديس أكثر من اقتناعى بحياتنا .. ولم يخطر على فكرى أبدا أن أسرة جلاديس تعيش حياة اليهود ، وأن أسرتنا تعيش حياة المسلمين ، بل كنت أقيس هذه الفروق بمقاييس التقدم والعمل استجابة لمتطلبات الحياة ..

وأكثر من ذلك ..

فقد كان حى الحسينية الملتصق بحى العباسية ، يشن غارات عنيفة على حى الظاهر ، الذى كانت أغلبية سكانه من اليهود .. ولم يكن يفصل بين حى العباسية وحى الظاهر شىء قبل إنشاء شارع الجيش ، الذى كان يسمى شارع فاروق .. كان ما بينهما مجرد مجموعة من الخرائب ، ولذلك

فقد كانت غارات الحسينية التى اشتهرت بفتواتها ورجالها ، غارات عنيفة .. وكنت أسمع بهذه الغارات فأجرى من بيتنا إلى هناك .. لأتفرج .. مجرد تطلع .. أقف بعيدا لأشاهد المعركة ، وفى إحدى هذه الغارات أصابتنى ضربة على رأسى ، لا أدرى حتى اليوم هل هى ضربة من حى الظاهر أو ضربة من حى الحسينية .. وكانت هذه أول ضربة فى حياتى أتلقاها نتيجة التطلع ومحاولة اكتشاف الواقع ، تلقيت بعدها ضربات كثيرة بعد أن حملت نفسى مسئولية كاملة للتطلع واكتشاف الواقع .. ضربات وصلت إلى حد تعرضى للاغتيال ثلاث مرات .. والحمد لله على سلامتى حتى اليوم ..

وبرغم هذه الغارات العنيفة من حى الحسينية على حى الظاهر ، فإنى لم أصل بفكرى – أيامها – إلى أنها معارك بين المسلمين واليهود ، وإنما كنت أنسبها إلى شخصية المجتمع الذى كانت تعيشه القاهرة كلها .. فقد كان من مظاهر هذه الشخصية أن تقوم المعارك بين الأحياء الشعبية بعضها وبعض .. وكما كانت تقوم معارك بين حى الحسينية وحى الظاهر ، كانت تقوم نفس المعارك بين حى الحسينية وحى الحسين .. وبين الباطنية والدراسة .. و .. و .. معارك يحاول أن يثبت فيها فتوة كل حى سيطرته على الحى الآخر .. وخارج هذه الظاهرة كانت الأحياء تجمع فى سلام بين كل الأديان .. المسلمين ، والأقباط ، واليهود .. وكثير من الأحياء كانت تجمع بين كل الأديان ، وبرغم احتفاظ أهل كل دين بشخصيته الاجتماعية القائمة بذاتها ، لم تكن تقوم بينهم معارك .. حتى حارة اليهود .. وقد عشت طويلا قريبا من حارة اليهود .. كان لى صديق من أيام الدراسة الابتدائية يملك والده دكانا لبيع الثياب فى شارع الموسكى ، ويسكن فى كوم الشيخ سلامة المتفرع من نفس الشارع قريبا جدا من حارة اليهود .. وكنت أقيم مع صديقى فى بيته أياما لنذاكر دروسنا معا وكنت أحيانا فى أيام الإجازات أنزل معه إلى دكان والده وأعمل معه فى استقبال الزبائن ، وفى قياس البدل

الرجالى على أجساد المشترين .. وحارة اليهود بجانبنا .. يخرج أهلها فى الصباح ، ويعيشون بين كل أهالى وتجار شارع الموسكى والحوارى المحيطة به .. وكان بين موظفى دكان والد صديقى يهودى من أهالى حارة اليهود ، وبرغم أنه كان يتميز بالصمت والانعزال ، فإنه كان يدعونى إلى بيته فى الحارة .. لا شىء .. صديق آخر .. وأحيانا كانت تحدث غارات على الحارة ، إلا أنها كانت لا تتجاوز الغارات بين الأحياء بعضها وبعض .. لم تحرق وتدمر حارة اليهود فى القاهرة كما حرقت ودمرت فى جميع أنحاء العالم عبر التاريخ ..

والصداقة بينى وبين جلاديس مستمرة فى لقاءات متباعدة ، وأحاديث عابرة .. لم نكن نتحدث مطلقا عن فلسطين ، ولا عن اليهود والعرب .. أحاديثنا لا تجمع إلا ما قرأته هى وما قرأته أنا من الإنتاج الأدبى .. وأنا أكبر ، وفكرى السياسى يتسع ، ومع اتساعه بدأت أحاول أن أحدد موقف يهود مصر من قضية فلسطين .. وكانت تمر بى خواطر وأنا ما زلت فى شبابى السياسى ، أحاول أن أكتفى بتصوير القضية كلها على أنها قضية خاصة بفلسطين وحدها ، كقضية المسلمين والهندوس فى الهند .. وكان يغلبنى تقدير أن المسلمين والهندوس فى الهند ، هم من شعب الهند .. من داخل الهند .. أما اليهود فى فلسطين فهم مجرد يهود ينتمون إلى شعوب أخرى ، لا إلى شعب فلسطين .. ولكن يهود مصر لا يمكن أن يصل بهم الغباء إلى حد التضحية بكيانهم فى مصر .. إن لهم هنا كل الحقوق .. إن اثنين منهم أعضاء فى مجلس النواب .. إنهم يسيطرون على الاقتصاد المصرى ، بل إنهم يسيطرون على القصر الملكى وعلى المجتمع الارستقراطى و .. ولكن من يدرى ..

وفى عام ١٩٤٥ ذهبت إلى فلسطين لأول مرة .. ذهبت مستطلعا أحاول اكتشاف الواقع .. وبعد أن التقيت بكل الشخصيات الفلسطينية العربية ، وطفت بجميع الأحزاب العربية وكان عددها أكثر من أحد عشر

حزبا ، سعيت لألتقى برجال الوكالة الصهيونية ، لأستمع إلى منطقهم ، إلى حجتهم .. لماذا يريدون فلسطين .. وذلك كما حاولت بعدها عام ٤٦ أن ألتقى برجال السياسة البريطانية فى لندن لأسألهم لماذا لا يريدون الجلاء .. وعدت من فلسطين لأكتب تحقيقا كاملا تحت عنوان « ضاعت فلسطين » .. عدت متشائما ، يائسا ، بعد أن اكتشفت مدى القوة التى يعتمد عليها اليهود ، ومدى الضعف الذى يأكل فى الكيان العربى .. ولم تكن القوة الإسرائيلية هى فقط قوة اعتمادهم على القوى العالمية ، ولا قوة القيادة السياسية الموحدة ، ولكنها كانت قوة كيان المجتمع اليهودى داخل فلسطين .. وقبل أن أعود من فلسطين دعتنى شخصية عربية أصبحت بعد ذلك معروفة إلى العشاء فى تل أبيب .. فى فندق يهودى .. ولم تكن عيناى قد وقعت طوال مدة إقامتى على يهودى فى مطعم عربى ..

عدت من فلسطين وفكرى أصبح أكثر حساسية وأكثر تشتتا تجاه يهود مصر ولا أريد أن أنتهى بهذا الفكر المشتت إلى قرار حاسم نهائى ..

والتقيت بجلاديس ..

لا أستطيع الآن أن ألتقى معها بأحاديث الأدب القصصى .. لا أستطيع أن أهرب .. وهى تحاول أن تهرب وتأخذنى معها هاربا .. لا حديث عن فلسطين ..

كنت أقول لها :

– إنى مقتنع بأن الحرب ستقوم بين العرب واليهود ..

وكانت ترد :

– أتمنى ألا تقع ..

وكنت أقول :

– إذا وقعت فإن مصر .. ستحارب .. بجانب العرب طبعا ..

وكانت ترد :

– لذلك أتمنى ألا تقع ..

وأقول :

– وأنت ؟

وترد :

– أنا لا أعرف شيئا ..

ثم كانت تهرب معتذرة إزاء إصرارى على التعلق بمصير فلسطين .. إلى أن وقعت حرب ١٩٤٨ ..

وضاعت فلسطين فعلا ، كما تنبأت ..

وبعد حرب ١٩٤٨ بدأ فكرى السياسى يتخذ اتجاه الدفاع عن النفس .. عن مصر ، إن الكيان الإسرائيلى الذى قام كيان ضخم ، أهوج ، يتبادل المصالح مع جميع القوى العالمية .. ولن يكتفى بأى خطوط مرسومة .. إن أصابعه ممتدة إلى عنق مصر ..

وأين جلاديس ..

مرت شهور طويلة لم تتصل بى تليفونيا كعادتها كلما قرأت قصة جديدة .. وذهبت إليها فى المدرسة اليهودية .. إن المدرسة لا تزال مفتوحة ، ولكن جلاديس ليست فيها ، ولا أحد يريد أن يدلنى عليها .. وذهبت إليها فى البيت القديم قريبا من حى العباسية .. البيت مغلق .. لا أحد يفتح الباب ..

وقالوا لى إنها هاجرت ..

ذهبت إلى إسرائيل ..

ولم أصدم .. ولكنى أحسست بمرارة أشبه بمرارة الهزيمة ..

ولم تكن جلاديس وحدها التى هربت من مصر إلى إسرائيل .. كان لى ثلاثة أصدقاء يهود يعملون فى الصحافة .. اثنان منهم لا يعملان فى الإدارات الصحفية التى كان أغلب المسيطرين عليها من اليهود بل كان واحد منهم يعمل رساما للكاريكاتير ، والثانى يعمل مندوبا صحفيا .. والثلاثة هربوا إلى إسرائيل .. وقد أرسل واحد منهم رسالة لى من باريس يعرض أن أتوسط له ليعمل مراسلا لصحيفة مصرية .. ولم أرد عليه .. لا لأنه يهودى .. ولكن لأنه عدو ..

وبقيت شهورا طويلة أحاسب نفسى حسابا عسيرا .. من يدرى .. ربما كنت أقول كلاما لجلاديس أو لواحد من هؤلاء الثلاثة ينقلونه إلى الوكالة الصهيونية فى فلسطين .. وأضغط على ذاكرتى الضعيفة لأتذكر .. وأتذكر .. وأتذكر .. أتذكر كل كلمة قلتها حتى أطمئن نفسى إلى أنى لم أقع فى شرك ..

بدأ تفكيرى السياسى يتجه إلى تأكيد سيطرة الصهيونية على كل يهود العالم .. كل يهودى صهيونى .. وهو ما كتبته ..

ودائما قصة جلاديس فى فكرى ..

إلى أن كتبتها ..

كتبت قصة « بعيدا عن الأرض » ..

• •

ولم تكن جلاديس هى بطلة القصة .. كانت البطلة شخصية رسمتها بقلمى لفتاة أمريكية يهودية أسميتها « ماريا هوبر » .. وشرحت طويلا مراكز القوى الصهيونية داخل الولايات المتحدة ، وكيف استطاعوا أن يستولوا على « ماريا » ويرسلوها إلى فلسطين لتصبح مجندة فى جيش الهاجاناه .. ثم كانت عائدة إلى أمريكا فى أجازة من الهاجاناه لزيارة أهلها ،

عندما التقت على ظهر المركب بشاب لم تعرف أنه عربى مصرى ، ولم يعرف أنها يهودية مجندة فى الجيش الإسرائيلى .. وعندما سألها :

هل أنت أمريكية ..

أجابت :

- تقريبا ..

وانجذب كل منهما إلى الآخر ، إلى أن وصلا إلى حد أقرب للحب .. وتصارحا .. قالت له إنها أمريكية يهودية تقيم فى فلسطين وأنها مجندة فى الهاجاناه .. وقال لها إنه مصرى وأنه متطوع فى فرقة فدائية تسهم فى العمل مع عرب فلسطين .. ودار بينهما حوار طويل صريح عبرت به عن كل ما يمكن أن يدور من نقاش بين عربى ويهودى مجند .. وانتهى نقاشهما إلى أنهما لا يمكن أن يبقى أحدهما للآخر إلا بعيدا عن الأرض .. الأرض هى التى تحرك المطامع الصهيونية وتدفع « ماريا » إلى أن تتعلم كيف تقتل ، وهى التى تثير الإحساس الوطنى فى صدر الشاب المصرى وتدفعه ليرفع سلاح دفاعا عن أرضه .. إذن ليعيشا بعيدا عن الأرض .. ووصلت المركب إلى نيويورك ولكنهما لم ينزلا منها ، واختبآ بين حجراتها ليجتازا بها المحيط مرة أخرى مع عودتهما إلى الشاطىء الأوروبى ..

وفى صباح اليوم الذى وصلت فيه المركب إلى الشاطىء البريطانى بعد أن اجتازت المحيط سمعا الأخبار الجديدة .. الحرب بين العرب واليهود .. وكنت أقصد حرب عام ٤٨ .. ولم يستطع أى منهما أن يقاوم .. قرر أن يعود إلى مصر ليحارب ، وقررت أن تعود إلى فلسطين ..

وقالت ..

- سأقتلك ..

قال :

- سأعفيك من قتلى .. سأقتلك أولا ..

ودفنت وجهها فى عنقه وهمست :

- يا حبيبى ..

وافترقا ..

ووقف بسلاحه على خط النار .. إن الرصاصة التى يطلقها قد تصيب « ماريا » ، والرصاصة التى قد تقتله قد تكون رصاصة « ماريا » .. إنه يريد أن يقتل ساسون .. ساسون الذى استولى على « ماريا » .. يريد أن يقتل الصهيونية لا اليهودية .. وقتل .. وقتل .. وأسهم فى معركة أسدود ، ونال وساما ..

وانتهت الحرب ..

وبعد خمس سنوات ، سافر فى عمله مرة أخرى إلى نيويورك .. والتقى صدفة بماريا ، وسألها فى دهشة :

- متى جئت إلى نيويورك .. ؟

وقالت :

- إنى أقيم هنا ..

قال :

- منذ متى ؟

قالت :

منذ خمس سنوات ..

قال :

- وإسرائيل ؟

قالت فى حدة :

- إنى أمريكية ..

قال :

- وإسرائيل ؟

قالت وهى تنظر إلى « بوز » حذائها :

- تركتها ..

قال وبين شفتيه ابتسامة شامتة :

- لماذا ؟

قالت ساخرة :

- لأنى لا أستطيع أن أقتلك .

• •

هذا هو ملخص قصة « بعيدا عن الأرض » ، وقبل أن أنشرها عام ١٩٥١ ، نصحنى زملائى الذين قرأوها ألا أنشرها ، فقد كنا لا نزال نجتاز مرحلة ما بعد حرب سنة ١٩٤٨ ، والشعور الوطنى والعربى لا يزال حساسا ، وقد لا يحتمل قصة حب بين شاب عربى وفتاة يهودية .. ولكن لماذا ؟ .. لقد قلت فى هذه القصة ما أريد أن أقوله .. ركزت المسئولية على المراكز الصهيونية ولكن لم أعف الأفراد اليهود .. وعلاقات الحب الفردى تحدث دائما بين شباب عرب وفتيات يهوديات ، بل إن إسرائيل قامت فيها ثورة خلال العام الماضى لتعدد زواج اليهوديات من العرب داخل المجتمع الإسرائيلى نفسه .. وأصررت على النشر ، وكل ما وصل إليه زملائى هو إقناعى بألا أبرز نشرها .. أى أنشرها بلا ضجة .. وفعلا طويتها بين صفحات « روز اليوسف » . وعندما نشرتها بعد ذلك فى كتاب ، تعمدت أن أنشرها مطوية ضمن مجموعة قصصى ، واخترت للكتاب عنوان قصة « شفتاه » ..

ومن يومها وأنا نادم على عدم إبراز هذه القصة .. من يدرى .. ربما لو كنت قد أبرزتها لوصلت بها إلى شيء داخل مجالات مناقشة القضية .. ولكنها لم تكن آخر قصة أتعمد إخفاءها بين الصفحات ثم أندم .. ففى ١٩٦٥ ، كتبت قصة « علبة من الصفيح الصدىء » ، وهى قصة قلت فيها إنه لم يحدث شيء فى المجتمع المصرى بعد الثورة .. كل ما حدث أن أشخاص وأسماء أسر الطبقة الراقية وأولاد الذوات قد تغيرت .. وكانت القصة تتخيل الشخص الذى قام بالثورة على الأسرة المالكة القديمة التى كانت تملك أراضى القرية ، قد قام بالثورة نفسها على رئيس لجنة الاتحاد الاشتراكى فى القرية .. وكنت أيامها أنشر ما أكتبه فى مجلة « المصور » .. فاتصل بى الزميل الكبير أستاذى فكرى أباظة رئيس التحرير ، وصاح بأسلوبه الضاحك :

– إيه اللى انت كاتبه ده يا إحسان ... ؟

ثم نصحنى بأن أعدل عن طلب النشر ، أو أن أعدل فى القصة ، بحيث أرفع منها ما يمكن أن يعرضنى لما كان يتعرض له الكتاب أيامها ..

وقلت لأستاذى إنى أتحمل المسئولية ككاتب ، وأترك له حرية تحديد مسئوليته كرئيس تحرير ، ولن أعارض أى قرار يتخذه ..

ونشرت القصة كاملة فى مجلة المصور .. ولكنها نشرت مطوية وبلا ضجة ، فلم تثر انتباه أحد .. ووافقت أنا على نشرها بهذه الطريقة ، فقد كنت خائفا على نفسى منها أكثر من خوف فكرى أباظة علىّ .. وأنا عندما أمسك بقلمى أنسى نفسى ، وعندما أترك قلمى أصبح مجرد بنى آدم ..

وبعد سنوات نشرت القصة فى كتاب ..

ثم ..

بعد خمس سنوات .. فى عام ١٩٦٩ .. وفى لقاء مع الرئيس أنور السادات ، قال لى إنه كان فى اجتماع مع جمال عبد الناصر ، وأنه – أى جمال عبد الناصر – قال للمجتمعين إنه قرأ قصة لى أقول فيها إن ما كان يحدث قبل الثورة يحدث بعد الثورة ، وأنه أمر بأن تعرض هذه القصة فى التليفزيون كما هى .. ثم قال إنه سيصعد إلى غرفته ليجلس أمام التليفزيون ، لأن القصة ستعرض الليلة ، ويخشى أن يكونوا قد اختصروا منها ، ثم أوصى المجتمعين بأن يشاهدوها هم أيضا ..

وفوجئت ..

لقد كنت أعلم أن القصة ستعرض فى التليفزيون .. وكان قد طلبها منى شاب من الذين تخصصوا فى الإعداد التليفزيونى فاعتقدت أنه مجرد اندفاع شباب .. وأعطيتها إياه وأنا معتقد أن القصة لن تعرض ، وإذا عرضت فستعرض مشوهة .. ثم فوجئت بأنها عرضت كاملة ، وفوجئت أكثر بأن جمال عبد الناصر نفسه هو الذى أمر بإعدادها وعرضها .. أى أنها كانت تعرض وأنا فى حماية جمال عبد الناصر ..

وقال لى يومها أنور السادات إن عبد الناصر يسأل لماذا توقفت عن كتابة القصة .. ؟

وكنت قد توقفت فعلا عن كتابة القصة ، بل عن كتابة المقال السياسى الكامل بعد « الشحططة » التى عانيت منها طويلا ، والتى احترت فى أسبابها وفى اكتشاف الذين يسلطونها علىّ ..

وقلت للرئيس السادات أيامها :

– لن أكتب ، لأنى لا أضمن أن يقرأ جمال عبد الناصر بنفسه كل ما أكتبه ..

• •

ونعود إلى جلاديس ..

لقد ظلت جلاديس فى خيالى وحتى اليوم ترمز إلى كل البنات والنساء اليهوديات .. وقد أوحت إلىّ بكثير من القصص التى تشمل المجتمع اليهودى .. سواء فى مصر أو خارج مصر ، القصة ، كقصة « سيدة صالون » .. وربما كانت هذه هى طبيعة خيالى الذى تحركه هواياتى الأدبية ، وقد عرفت وصادقت وأنا صغير فتاة فى قريتنا (كفر ممونة - شبرا اليمن - مركز زفتى) عرفت فتاة فلاحة اسمها « سبيله » ، ومن يومها ، وحتى اليوم ، كلما كتبت قصة تدور فى قرية - وهى قصص كثيرة على عكس ما يتصور البعض - أتأثر بشخصية سبيله ، بل إن بعض بطلات هذه القصص يحملن اسمها ..

* *

ومنذ أسابيع منحت نفسى إجازة ، والإجازة التى أسعى إليها دائما هى إجازة لعقلى ، أى أن ابتعد عن كل ما يشغل بالى ، أو يثير جدلا بينى وبين نفسى ، وبخاصة الجدل السياسى .. ولذلك فإنى أتعمد أن أختار لإجازتى مكانا بعيدا ، مجهولا ، لا أعرف فيه أحدا ولا يعرفنى فيه أحد ، بل لا يحتمل أن ألتقى فيه بأحد يعرفنى أو أعرفه ، ثم لا تصله الصحف العربية .. أى صحيفة عربية ..

واخترت لإجازتى هذه جزيرة « ماديرا » .. جزيرة فى المحيط الأطلسى فى موازاة الساحل الإفريقى قدرت أنها لم تكتشف بعد لدى السياح العرب ، وليست لمصر بها أية علاقة ..

وذهلت فى ماديرا ..

أذهلتنى الطبيعة ..

إنها قطعة واحدة من الصخر فى وسط المحيط .. ولكن الصخر مغطى

بالزهور .. الصخرة الضخمة تلتصق بها زهور طبيعية ، كل زهرة ممتدة فى اتساع عجلة سيارة ، وتحمل مجموعة من الألوان كأنها كل ألوان الدنيا .. والجبال والوديان مغطاة بأشجار العنب والموز ، بل لأول مرة أكتشف أنه يمكن زراعة قصب السكر فى الجبال ..

والحديث عن ماديرا يطول ..

وأنا أقضى أيامى مذهولا مع المبدع الأول الذى رسم كل هذا الجمال .. مع الله .. ثم كنت أترك الجبال وشواطىء المحيط ، وأتجول فى شوارع المدينة « فونشال » .. إن وجوه أهل الجزيرة صورة من وجوه أهل مصر .. اللون .. والملامح ، حتى أسلوب التعبير والحركة .. بل كان يخيل إلىّ بين كل لحظة وأخرى أن واحدا منهم سيتقدم منى ويحدثنى بالعربية .. ويبدو أن العرب عاشوا طويلا فى ماديرا أيام الفتوحات الإسلامية ..

ورأيتها ..

جلاديس ..

إنها واقفة عند مدخل دكان الأحذية ..

هل هذا معقول ..

لا يمكن .. ليست هى .. لقد مررت بها ولم تعرفنى .

وعبرت الشارع الضيق ووقفت على الرصيف الآخر أنظر إليها من بعيد .. إنها هى ، لا شك أنها هى . إنها سيدة كبيرة ، ولكن جلاديس كانت أكبر منى بعام أى أن عمرها لا يقل عن السادسة والخمسين .. والملامح نفسها .. عيناها العسليتان الجادتان دائما كأنها تنظر بهما إلى داخل عقلها .. ابتسامتها الضعيفة المرسومة دائما فوق شفتيها كأنها تواسى بها قلبها ..

وساقاها الجميلتان المهذبتان اللتان كانت تحرص على أن تكشف عنهما وهى صبية ، لا تزال تكشف عنهما بعد أن تعدت الخمسين .

واندفعت إليها ..

إذا لم تكن هى ، فإنى أستطيع أن أدعى شراء حذاء ..

واتسعت ابتسامتها فى وجهى ، وإن لم تتحرك فى وقفتها ، ثم فاجأتنى بأن حدثتنى بالعربية :

– أهلا بك .. متى جئت .. ؟

قلت فى دهشة :

– هل عرفتنى ؟

قالت :

– طبعا ..

قلت :

– ولكنى مررت بك . ولم تعرفينى ..

قالت وابتسامتها الضعيفة تتنهد فوق شفتيها :

– عرفتك ولكنى تمنيت ألا تعرفنى ..

قلت :

– لماذا ..

قالت وهى تعتدل فى وقفتها كأنها تهم بأن تتخذ قرارا :

– لأنى أفضل أن احتفظ بذكرياتى الحلوة فى خيالى ، ولا أعرضها للواقع ، حتى لا يفقدها الواقع حلاوتها .. ووجودك معى واقع ..

قلت :

– أحيانا تتحول الذكريات إلى واقع أحلى ..

قالت :

– لا يمكن .. إنى أعرف أول سؤال ستواجهنى به .. لماذا تركت مصر .. إن مجرد هذا السؤال يدمى ذكرياتى ..

قلت :

– لا .. لن أسألك لماذا تركت مصر ، ولكنى أسألك .. لماذا لا تعودين إلى مصر .. ؟

قالت :

– إنه سؤال مجاملة بالأسلوب المصرى .. كأن تقول لأحد المارة اتفضل .. اتفضل شاى .. ولو تفضل لأحسست بنكبة تقع على رأسك ..

قلت وشهوة التطلع واكتشاف الواقع تجتاحنى :

– أنا لا أجامل .. إنى أتمنى فعلا أن تعودى إلينا ..

قالت وابتسامتها الضعيفة تنضح بالحسرة :

– إذن فقد تغيرت .. ليست هذه طبيعتك .. ولا طبيعة أى مصرى .. هل تقبل عودة الزوجة الخائنة إلى زوجها ..

قلت :

– قد لا تكون خائنة .. قد تكون قد اعتدى عليها أو غرر بها .. المهم ألا تكون الخيانة من طبيعتها ..

قالت :

– وهل يقبلوننى فى مصر ..

قلت :

– لماذا لا يقبلونك ..

قالت :

– لأنى يهودية ..

قلت :

– إن كيسنجر يهودى ، وبرغم ذلك هو صديق لنا كلنا ..

قالت :

– إن كيسنجر يتحرك بصفته الرسمية لا بصفته يهوديا .. إنه أشبه ببائع فى دكان ، يرحب بالزبون ويخدمه ولكن ليس على حساب صاحب المحل .. لو اشتريت منى حذاء الآن فسأنتقى لك أحسن ما عندى ، وأضمن لك ألا يكون واسعا ولا ضيقا ، ولكنى أكثر حرصا على ألا يخسر صاحب المحل « سكودس » واحدا (عملة ماديرا) .. هذا ما يفعله كيسنجر بينكم وبين إسرائيل .. وأنا .. أنا شىء آخر .. أنا واحدة من الناس .. وكنت واحدة منكم فى مصر .. ثم كنت واحدة من الناس فى إسرائيل .. ومن أدراك .. ربما كنت أحارب معهم ..

قلت لمجرد أن أشدها إلى مزيد من الكلام :

– ولكن كيسنجر حارب مع إسرائيل أيضا . كان هو الذى يضغط على وزير الدفاع الأمريكى ليحارب معهم ، وكان نيكسون يؤيده .. ثم انتهت الحرب .. وأصبح كيسنجر ونيكسون صديقين لنا .

قالت وابتسامتها الضعيفة تنقلب إلى ابتسامة ساخرة :

– هل تعتقد أن الحرب انتهت ..

وتوقفت برهة عن الكلام .. لم يعد هذا الأسلوب ينفع فى حديثى مع جلاديس .. ثم قلت :

– لا .. الحرب لم تنته ..

قالت :

– هل تستطيع أن تحدد متى تنتهى ؟

– لا .. لا أحد يستطيع ..

قالت :

أى أن الحرب قد تبدأ من جديد ..

قلت :

ربما ..

قالت :

وإذا بدأت فأين يقف كيسنجر منها ..

قلت :

– يحاول وقف إطلاق النار ليعود بنا إلى الحرب السياسية ..

قالت وابتسامتها الساخرة تتسع :

– كن أكثر صراحة معى .. إن كيسنجر سيحارب معنا .. أقصد مع اليهود .. آسفة ، أقصد مع إسرائيل .. قد يستقيل ليترك غيره يتحمل المسئولية ، ولكنه لن يترك إسرائيل وحدها أبدا ..

وسكت أنا ..

وعادت تقول :

– إذا كان هذا هو كيسنجر الصديق .. فلماذا تطلب منى أنا ..

قلت كأنى أهرب منها :

– لا شىء .. ولكن .. ما الذى أتى بك إلى ماديرا ..

قالت بلا حماس :

– إنها مكان ..

قلت :

– وماذا تفعلين هنا ؟

قالت :

- إنى شريكة فى هذا الدكان ..

قلت :

- لقد كنت معلمة فى مصر ..

قالت :

- إنى لا زلت أعمل مدرسة هنا .. أدرس اللغة الفرنسية ..

قلت :

- ومتى تركت إسرائيل ..

قالت :

- من زمان بعيد .. إنى أحمل الآن الجنسية البرتغالية ..

قلت :

- وجنسية إسرائيل ..

قالت :

- لا زلت أحملها أيضا .. وقد عشت فى فرنسا سنوات وحصلت على الجنسية الفرنسية أيضا .. مصر وحدها التى لم أعد أحمل أوراقا تثبت انتمائى لها .. ألن تكرر دعوتك لى للعودة إلى مصر ..

قلت :

- لقد كان كلاما على طريقة الكرم المصرى .. اتفضل .. اتفضل شاى ..

قالت وعيناها الجادتان تعودان كأنها تنظر بهما فى داخل عقلها وابتسامتها تعود ضعيفة بين شفتيها كأنها تواسى قلبها .. قالت فى صوت خافت :

- ألم أقل لك .. من الأفضل دائما أن تحتفظ بذكرياتك فى خيالك ولا تعرضها للواقع ..

وافترقنا ..

لم أرها أبدا ..

وبعد يومين جاءتنى منها مجموعة من القصص فى كتاب كبير مطبوع طباعة أنيقة .. كأنها تريد أن تذكرنى بأيام أن كانت تترجم لى القصص الفرنسية .. ولكن هذه القصص لم تكن قصصا من الأدب الفرنسى .. كانت مجموعة من الأدب اليهودى القديم « ياديش » وعنوان الكتاب A Treasury of Yiddish Stories وقد أرسلتها إلىّ مترجمة باللغة الإنجليزية كأنها تريد أن تقول لى إنى لم أعد فى حاجة إليها .. وقد عشت فى هذه القصص طويلا .. أحسست كأنى أكتشف آفاقا ومعالم جديدة عن اليهود لم أكن أعرفها من قبل .. وقد عودت نفسى أن أسعى إلى التعرف على شعوب العالم من خلال قصص أدباء كل شعب ، لأصل إلى حقائق ومعالم لا يمكن أن أصل إليها لو اكتفيت بتتبع التاريخ السياسى ، أو اعتمدت على أحاديث وتصريحات الزعماء السياسيين ..

كلمـــة

قال لى أستاذى توفيق الحكيم إنى ظلمت نفسى ككاتب لأنى جمعت بين الاهتمام السياسى ، والاهتمام الأدبى .. أى أنى أكتب فى السياسة ، وأكتب القصة .. وكانت النتيجة أن المجتمع السياسى أصبح ينسبنى إلى المجتمع الأدبى ، والمجتمع الأدبى ينسبنى إلى المجتمع السياسى .. أى أن كلا المجتمعين تخليا عن مسئوليتهما عنى .. فظلمت !

ونصحنى توفيق الحكيم أن أتفرغ وأتخصص فى كتابة القصة ..

وعارض الذين كانوا معنا ، ونصحونى أن أتفرغ وأتخصص فى كتابة المقال السياسى ..

والواقع أنى لا أستطيع ..

لا أستطيع أن أتفرغ ، ولا أن أتخصص ..

ربما لأن الظروف التى أمسكت خلالها بقلمى وأتاحت لى النشر كانت ظروفا سهلة ، لم تتطلب منى أن أفكر فى الاحتراف ، والسعى وراء الاحتراف هو أكبر دافع من دوافع السعى إلى التخصص .. ولأنى لم أكن فى حاجة إلى ما يمكن أن يحققه الاحتراف من مكاسب ذاتية ، فقد تركت نفسى حرا مع كل أحاسيسى بمجتمع الإنسان .. عشت مع قلمى الحياة كلها ، بكل ما فى الحياة من متطلبات السياسة والفن ، والعلم .. وبكل ما فيها من دموع المرارة وابتسامات الفرح .. تماما كما كنت وأنا ما زلت صبيا بلا مسئوليات .. كنت أشترك فى مظاهرات الطلبة عام ١٩٣٥ .. وأشترك فيها بعنف وتهور .. وبعد أن تنتهى المظاهرة أربط رأسى فوق الجروح والكدمات التى أصابتنى من الكونستبلات الإنجليز ، ثم أذهب إلى السينما لأعيش داخل قصة ، أو أرقد فى فراشى لأقرأ قصة ، أو أذهب إلى أرض العيون فى حى العباسية لألعب الكرة مع أولاد الحى .. وأعيش مع القصة أو مع لعب الكرة بالتفانى نفسه الذى اشتركت به فى المظاهرة السياسية ..

ولا شك أنى ظلمت ..

إن كثيرا من الإجراءات التى اتخذت ضدى نتيجة قصص كتبتها . إلى حد تقديمى إلى النيابة والمحاكمة ، بل إلى حد أن نوقشت إحدى هذه القصص فى إحدى جلسات مجلس الأمة .. هذه الإجراءات لم تكن دوافعها الأساسية هى القصص التى أحاكم من أجلها ، بل كانت دوافعها هى اتجاهى السياسى الذى أعبر عنه بمقالاتى السياسية ..

وكان رئيس مجلس الأمة أيامها هو الرئيس أنور السادات ، وقد استدعانى سيادته قبل درج الموضوع فى جدول أعمال المجلس ، وقال لى إنه قد قُدم سؤال موجه إلى وزير الإرشاد

عن قصة لى ، وأنه سيعرضه فعلا على المجلس . وحاولت أن أقنع سيادته بأن هذه القصة ليست سياسية ، والمجلس ليس مجال مناقشتها ويمكن أن تناقش فى أى هيئة أدبية رسمية ، وأجابنى سيادته بأن السؤال مقدم فى حدود لائحة المجلس وأنه لم يتعود أن يتحدى القانون أو اللوائح ، وكل ما يوصينى به هو أن أحتمل .. وكنت أعلم أن هذا السؤال مقدم بإيحاء من أحد مراكز القوى التى كانت تسعى لعزلى من عملى . ولكن الرئيس السادات لم يقل لى أبدا عما تسعى إليه هذه المراكز ، واكتفى بأن أوصانى بالاحتمال ..

وخرجت من مكتب الرئيس السادات وذهبت إلى المجلس الأعلى للفنون والآداب ، وطلبت أن يعترض المجلس على إثارة هذا الموضوع فى مجلس الأمة قبل عرضه على الهيئات الأدبية أو على الأقل يقول رأيه فى القصة قبل تقديم السؤال ، ولكن مجلس الفنون والآداب اعتبر القضية كلها قضية سياسية ليست من اختصاصه ، حتى لو كانت خاصة بإنتاج أدبى ، أو كان ضحيتها أديب .. فاعتذر لى ولم يتحرك ..

واستسلمت كعادتى فى الهروب من المعارك الجانبية .. وبعد أيام اتصل بى الدكتور عبد القادر حاتم ، وقال لى إنه أعد الرد على السؤال الموجه والذى يخص قصتى ، وأنه كُلف من الزعيم جمال عبد الناصر بأن يقرأ لى الرد الذى أعده قبل أن يلقيه فى مجلس الأمة ، ليسمع رأيى .. ومع دهشتى لهذا الإجراء الذى يعتبر تكريما لى واهتماما بى من الزعيم عبد الناصر ، استمعت إلى رد الحكومة مستسلما . وأذكر أنى رجوت تغيير كلمة واحدة أحسست أنها تمسنى وتغيرت فعلا .. وكان الرد قائما على عدم مسئولية الدولة عما ينشر من إنتاج أدبى ، ومن يعترض يستطيع أن يتقدم إلى النيابة ..

ودفعت مراكز القوى أحد الأشخاص لتقديم دعوى إلى النيابة .. وذهبت إلى النيابة فعلا ، وأخذت أقوالى ، وكان وكيل النيابة يحقق معى وهو يسخر من الدعوى ومن مقدمها كأنه يعرف كل شىء .. ولكن .. بعد أيام فوجئت بأن النيابة العامة قد أحالت الموضوع على نيابة الآداب واعتبرت أنا ذلك محاولة للتشهير بى .. ولم أستطع أن أحتمل أكثر مما تحملت ، فاتصلت بصديق العمر يوسف السباعى باعتباره سكرتير عام مجلس الفنون والآداب ، وسكرتير جمعية الأدباء ، وسكرتير نادى القصة ، وقلت له إنى لن أذهب إلى النيابة ، وسأبقى فى البيت إلى أن يقبض علىّ حتى ولو عشت بقية عمرى فى السجن .. واتصل يوسف السباعى بعدها مباشرة بمكتب الزعيم جمال عبد الناصر وروى ما حدث لى .. وفى اليوم نفسه تنازلت النيابة عن استدعائى ، وحفظت القضية كلها ..

والأكثر من ذلك أن العضو المحترم الذى قدم السؤال جاءنى فى مكتبى بعد حفظ القضية ليعتذر لى .. وسألته ضاحكا لمعرفتى بجهله .. فى ذمتك ، هل قرأت القصة .. وأجاب ببساطة : لا ..

وبعدها بشهور اشترت الدولة القصة نفسها لتنتجها فى مسلسلة إذاعية .. ثم اشترتها مرة ثانية لتنتجها فيلما سينمائيا ..

وقبل ذلك ..

حدث أنى اجتمعت مرة فى أوائل سنوات الثورة بأستاذى توفيق الحكيم فى نادى القصة .. وكان توفيق الحكيم يتحدث عن ضرورة أن تقيم الثورة كيانا أدبيا رسميا ، كالهيئات التى أقيمت فى الاتحاد السوفيتى وفى كثير من الدول الأخرى .. وأخذت الفكرة من توفيق الحكيم ، واستكملتها ، ثم سجلتها فى مذكرة تفصيلية لأقدمها للزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، وطلبت من توفيق الحكيم أن يوقعها معى ولكنه اعتذر ، فعرضتها على يوسف السباعى ، فوضع توقيعه بجانب توقيعى ..

ووافق عبد الناصر على الفكرة ، وأحالها على السيد كمال الدين حسين - وزير التربية أيامها - للتنفيذ .. وعقد وزير التربية لجنة تأسيسية ضمت كبار الكتاب والأدباء ورجال الفن والعلم ، ودعيت معهم ، وشرحت الفكرة ، وقال كل واحد رأيه ..

وبعد أيام جاءنى يوسف السباعى ليبلغنى آخر الأنباء .. لقد صدر قرار بإنشاء المجلس الأعلى للفنون والآداب بناء على المذكرة التى قدمتها ، واختير أعضاء مجلس إدارته .. ولست منهم .. وقال لى يوسف السباعى ضاحكا .. لقد اعتبروك كاتبا سياسيا ولست أديبا .. أى أن الدولة نفسها لا تريد أن تعترف بى أديبا .. وقد قالها يوسف ضاحكا لأنه يعرفنى ويعرف أنى لن أهتم .. ولم أهتم فعلا ..

وبعد أكثر من خمسة عشر عاما .. فى العام الماضى فقط .. فوجئت باختيارى عضوا فى مجلس إدارة المجلس الأعلى للفنون والآداب !!

وخشيت أن أعتذر حتى لا يفسر اعتذارى تفسيرا سياسيا ، ولكن لا أستطيع أن أشترك فى معظم جلسات المجلس لأنى أشعر بأنى لست متخصصا ولا متفرغا ، فلا أستطيع أن أقدم خدمات لها قيمة ، حتى مع وجاهة المظهر ..

وأنا لا أتغير ..

أكتب القصص وأنا أعيش السياسة ..

وأكتب السياسة وأنا أعيش القصص ..

وأضيع ..

كما حدث عندما ضعت مع قصة الدكتورة دورثى فى باريس ..

□

كم تدفع .. لا ماذا تأكل

كنت قد اخترت أن أقضى نهارى على أرصفة مقهى « الفوكت » ، وهو مقهى يعتبر بين مقاهى شارع الشانزليزيه ، مقهى الأرستقراطية .. أثمانه أغلى ، ومعظم زبائنه من العجائز ، الذين يتمسكون بارتداء الجاكت وتعليق « الكرافت » حتى فى النهار .. ودمه ثقيل .. ليس فيه موسيقى ولا مرح الشباب .. لكنه من أقدم مقاهى الشانزليزيه وله سمعة محترمة ، تتركز على نوع الأطعمة التى يقدمها .. ممتازة .. وقد اخترته لأنه أصبح أهدأ مقهى فى الشانزليزيه ، وربما لأنى أصبحت عجوزا ..

وأنا لا أتردد على أى مقهى فى القاهرة ، ربما لأنى لست غريبا فى أى مقهى ، ولا أستطيع أن أتفرغ فى أحدها لنفسى .. أما عندما أسافر إلى الخارج فى إجازة ، فإن معظم وقتى أقضيه على رصيف مقهى .. وحيدا .. أنظر إلى المارة كأنى أنظر إلى زهور طبيعية نثرها الله على الأرض .. زهرة يثيرنى جمالها .. وزهرة تثير عجبى .. وزهرة تثير إشفاقى .. ومع كل زهرة أتمتع بأن أترك خيالى يتصور لها قصة .. إن كل فرد بين ملايين البشر له قصة قائمة بذاتها تصلح للنشر ..

وأتمتع متعة هادئة بالوقت الذى أقضيه على الرصيف .. أتمتع بما يملأ عينى من مناظر الزهور البشرية ، وبما يملأ خيالى من قصص ..

وعلى مائدة قريبة منى من موائد المقهى كانت تجلس آنسة .. لا .. لا شك أنها سيدة .. إنها تبدو أكبر من أن تظل محتفظة بلقب آنسة .. وهى ليست زهرة جميلة جمالا صارخا ، ولكن جمالها هادىء .. وتسريحة شعرها تلف وجهها فى إطار جميل منسق .. ولا يبدو أنه شعر مصبوغ ،

كما لا يبدو أنه « باروكة » .. إن « الباروكة » هى أكبر كذبة تقدمها المرأة للرجل ، ولا يبدو أن هذه السيدة تكذب .. وثوبها ولو أنه يحمل خطوطا جريئة متطورة مع آخر طراز ، إلا أنها خطوط معتدلة ليست واضحة فى الكشف عن لحمها ، كأنها تريد أن تبرز شخصيتها كشخصية مثقفة محترمة .. وهى وحيدة .. طوال النهار وحيدة .. وأخذت بعد أن ملأت بها عينى .. أرسم لها فى خيالى قصة .. ربما كانت زوجة أحد رجال الأعمال ، وقد تركها زوجها وحيدة ، وراح يجرى وراء الصفقات فى كل عواصم العالم .. من يدرى .. ربما كانت إحدى الفراخ الغالية Poule de Luxe وهو نوع من النساء المحترفات غالى الثمن ، ويستأجر أحيانا لا لمجرد المتعة ولكن لتكملة السهرات الاجتماعية الراقية ، وهو ما يسمح به المجتمع الأوروبى ..

وعشرات القصص تملأ خيالى ..

وهى وحيدة ، تقرأ أحيانا فى كتاب ، وأحيانا تتطلع مثلى إلى الزهور البشرية .. وقامت وابتعدت ساعة الغداء ، دون أن يتقدم لها أحد ، أو تدعو أحدا للتقدم إليها ..

وفى نهار اليوم التالى رأيتها .. فى المقهى نفسه وعلى المقعد نفسه تقريبا ..

وأيضا وحيدة ..

ولكن بعد ساعات ، رأيت شابا زنجيا يتقدم إليها ، ويقف بجانبها ويتحدث طويلا .. ورأيت كأن وجهها يكفهر غاضبا ، ثم تدير رأسها بعيدا عن عينيه .. ويبتعد الشاب الزنجى .. وتتبعته بعينى .. إنه طويل أنيق كعود من الأبنوس انتهى من صياغته فنان ، وأنفه ليس مفطوسا وشفتاه ليست متضخمتين .. إنه وسيم .. ويبدو أنه انصرف غاضبا ، خطواته عصبية .. يدق الأرض بقدميه كأنه يريد أن يشقها ..

وفى النهار التالى رأيتها أيضا .. هى .. وفى المقهى نفسه وعلى المقعد نفسه .. وبعد ساعة جاء الشاب الزنجى ، ووقف يحدثها .. وخيل إلى أنها فى حالة تردد عنيف .. فهى أقل غضبا من أمس ، ولم تدر وجهها عنه ، ولكنها بعد مدة أشارت إلى الساقى ، وفتحت حقيبتها ودفعت بنفسها حساب مشروبها ، ثم قامت وانصرفت مع الشاب الزنجى ..

وتركت خيالى يرسم لها قصصا ، وكانت القصة الغالبة تتصورها كإحدى الفراخ الغالية وإذا كانت ليست صغيرة لتكون فرخة غالية ، فلا شك أنها اختارت مكانا لها هذا المقهى لأنه مقهى العجائز .. ولأنها لم تجد عجوزا خلال يومين ، فقد استسلمت للشاب الزنجى ، وأنا أعرف أن كثيرات من نساء أوروبا يشعرن بضعف ناحية الرجال الزنوج ..

وكان اليوم الذى بعده ..

وجاءت ..

وحدها أيضا ..

وموائد المقهى مزدحمة على غير العادة .. وأخذت تبحث لنفسها عن مائدة ، وأنا جالس إلى مائدة وحدى ، وبجانبى مقعد خال ..

وقمت واقفا ، ودعوتها بالفرنسية :

هنا مقعد خال ..

ونظرت إلى مبتسمة كأنها أصبحت تعرفنى من كثرة ما تقابلنا عن بعد ، ولكنى فوجئت بها تحدثنى باللغة الإنجليزية .. قالت :

– هل أنت وحيد اليوم أيضا ..

قلت :

– إنى هنا وحيد دائما ..

قالت مبتسمة :

إذن ليجلس كل منا وحده حتى ولو جمعتنا مائدة واحدة ..

ولم يجلس كل منا وحده .. بدأ الحديث يجمعنا ..

قلت لها :

كنت أعتقد أنك فرنسية ، ولكن يبدو من لهجتك أنك إنجليزية .

وقالت فى شموخ كأنها ترفع العلم البريطانى فوق برج إيفل :

طبعا إنجليزية ..

واكتشفت بعدها أنها تريد أن تتكلم .. تتكلم كثيرا .. لا تريد أن تكف عن الكلام ، ربما كان من طبيعتها الثرثرة ، وربما كانت مثلى تريد أن تنفس عن الوحدة التى تعيش فيها .. وكان حديثها يبدأ دائما بسؤال .. تسألنى عن مصر .. وعن شخصى .. وعن عملى .. وعن العرب .. وعن السياسة .. وكانت تعليقاتها تعبر عن ثقافة واسعة ، تشمل موضوعات متعددة ، وكانت أحيانا تلجأ إلى التفسيرات العلمية ، فأدهش .. ولكنها كانت فى كل حديثها تبدو كأنها تطلق نصائح ، أو تريد أن تكون دليلا فى طريق أجهله ..

ومر الوقت .. وسألتها :

– هل أنت واثقة أنك لست فى انتظار أحد ..

قالت :

– لا .. لماذا يخيل إليك أنى فى انتظار أحد ..

قلت فى خبث متعمد :

– لأنى لاحظت بالأمس أن لك صديقا ..

قالت وهى تلوى شفتيها كأنها قرفانة من هذا الصديق :

لقد أبعدته .. انتهى ..

ولم تستطرد فى الحديث عن صديقها .. وقلت :

– إذن .. هل أستطيع أن أدعوك إلى الغداء ..

ونظرت فى عينى نظرة طويلة كأنها تريد أن تطمئن إلىّ ، ثم قالت :

– لا مانع ..

قلت :

– لننتقل إلى مطعم المقهى فى الداخل ..

قالت فى لهجة حاسمة كأنها صاحبة الحق فى أن تقرر ما تريد :

– لا .. إن الأثمان هنا غالية .. والطعام ليس له شخصية .. تعال سنذهب إلى مطعم آخر ..

ثم أشارت للساقى ، وفتحت حقيبتها لتدفع ثمن المشروب الذى تناولته ..

قلت :

– دعينى أدفع ..

– لا .. ادفع لنفسك ..

وقامت ، وسارت بجانبى وهى لا تسألنى ولا تقول لى إلى أين .. إنها وحدها التى تقرر .. وأنا مستسلم استسلام من يريد أن يكتشف عالما جديدا .

ووقفت فجأة وأشارت إلى سيارة تاكسى ، وركبت وراءها .. وهى إلى الآن لا تقول لى إلى أين .. وسمعتها تبلغ السائق باسم شارع من شوارع باريس .. وقالت لى والتاكسى يجرى بنا كأنها تلقننى درسا جديدا :

– إن تناول الطعام فى باريس أصبح يحتاج إلى دراسة وعلم .. لقد كنا زمان نسأل عن أنواع الطعام فى كل مطعم ثم نسأل عن الثمن .. أما اليوم فإننا نسأل عن الثمن أولا ثم نسأل عن أنواع الطعام ..

ووقف التاكسى فى شارع ضيق جانبى ، أمام مطعم صغير لا يضم

أكثر من ثلاث موائد ، وله شخصية فرنسية خالصة ، كأن زبائنه كلهم من الفقراء الفرنسيين لا من السياح أمثالنا ، أو ربما احتفظ بهذا الطابع ليجذب السياح أكثر ..

وتركتنى أدفع أجر التاكسى ..

ولكنى ارتبكت ، فإن سائق التاكسى فى باريس يضيف عدة فرنكات على ما يسجله العداد ، دون أن يفسر لك لماذا .. ولاحظت ارتباكى ، فشدت الفرنكات من يدى قائلة فى كلمة سريعة :

– عن إذنك .

ودفعت للسائق من نقودى ثم أعادت لى الباقى صامتة ..

وعندما دخلنا المطعم رحب بها الساقى كأنه يعرفها ، وبدأت بعد أن جلسنا إلى المائدة تحدثه بلغة فرنسية ركيكة ، وإن كانت تنطقها كأنها لا تريد أن تعترف بركاكتها .. وطلبت لها ولى أصناف الطعام دون أن تسألنى رأيى .. اكتفت بأن قالت :

– هذا الصنف سيعجبك ..

وأعجبنى ، خصوصا أنى لست ذواقا فى الطعام ، بل إنى متهم بأنى ضعيف فى حاسة التذوق ، وفى حاسة الشم ، كما بدأت أخيرا حاسة السمع تضعف هى الأخرى ..

وكانت تأكل أمامى وهى تحلل لى كل نوع من الطعام تحليلا علميا .. فى هذا الصنف كذا كالورى ، وفى هذا فيتامين كذا ، وهذا مركب من كذا وكذا ..

وقلت :

– إنك تدهشيننى .. تتحدثين كأنك عالمة ..

قالت :

- إنى دكتورة ..

- غير معقول .. صحيح دكتورة ؟

قالت :

- ماذا يدهشك .. نعم دكتورة ..

قلت :

- دكتورة فى ماذا ؟

قالت :

- دكتورة طبيبة .. دكتورة عامة .. لم أتخصص بعد ..

قلت :

- دكتورة وتقضين فى باريس إجازة سياحية ..

قالت :

- لا .. ليست إجازة .. إنى أعمل ..

قلت والدهشة تستبد بى :

- وماذا تفعلين فى باريس ..

قالت :

- لا شىء .. فقط ابتعدت عن لندن لأتفرغ للبحث عن نفسى ..

قلت :

- لا أفهم شيئا ..

قالت مبتسمة :

- تريد أن تعرف كل شىء .. لا مانع .. إنى أحس اليوم بأنى أريد

أن أتحدث طويلا وكثيرا .. ولكن لندفع الحساب أولا .. خمسة وتسعين فرنكا .. غال .. ولكنه أرخص الغالى .. أنت تدفع النصف وأنا النصف ..

قلت :

لا .. مستحيل ، إنى دعوتك ..

قالت وابتسامتها تتسع ، وكأن عقلها آلة كمبيوتر تحسب كل شىء بما تأخذ وبما تدفع :

شكرا .. إذن تدفع أنت وسأعوضك أنا بحديثى ..

وكان الساقى قد جاء بفاتورة الحساب فأخذتها منه لتترجمها لى ، وعندما أخرجت الفرنكات من جيبى ، مدت يدها وأخذتها منى ، ودفعت الحساب والبقشيش وأعادت لى الباقى .. بلا استئذان ولا اعتذار ..

ثم قالت :

- تعالى نشرب القهوة فى مكان آخر ..

وأخذتنى إلى مقهى قريب يطل على حديقة صغيرة أقيمت فى ميدان صغير بين حوارى باريس .. وبدأت وهى تشرب القهوة تتحدث عن نفسها .. لم تكن تتحدث إلىّ ، لم تكن عيناها معلقتين بعينى .. كانت تنظر إلى بعيد كأنها تحادث نفسها .. وتروى تفاصيل دقيقة صريحة ، ولم يكن ذلك ثقة منها بى ، ولكن الإنسان أحيانا يحكى لغريب لا يعرفه من أسراره الخاصة أكثر مما يحكى لشخص يعرفه ويعيش معه فى مجتمع واحد .. إنك عندما تحكى لغريب لا تعرفه ، فكأنك تمزق أوراقك وت[illegible]ها فى سلة المهملات .. وترتاح .. مجرد راحة نفسية تزيح عن صدرك ثقل أسرارك .

وبدأت تحكى ..

- إنى اخترت أن أكون طبيبة لا لمجرد أنى اكتشفت فى نفسى هواية

الطب ، ولكن لأنى أحب أن أعطى .. أعلى درجات سعادتى هى الدرجة التى أصل إليها عندما أحس أنى أعطيت .. وقد اخترت بعد أن تخرجت أن أعمل فى أحد المستشفيات العامة ، وكنت أستطيع أن أعمل فى مستشفى خاص ، أو مساعدة لأحد الأطباء المعروفين .. الأجر أعلى والزبائن أغنى .. ولكنى فضلت المستشفى العام لأن مجال العطاء فيه أوسع .. ووصلت هناك إلى أعلى درجات السعادة .. إنى أعطى .. أداوى .. أنقذ الحياة .. أرد الراحة والابتسامة ..

إلى أن جاء كارلو إلى المستشفى .. إنه إيطالى يحاول أن يعيش فى لندن .. وبرغم شبابه وقوة بنيانه ، إلا أنه كان يبدو منهارا ، آلامه مكتومة لا يعبر عنها ، وخطوط وجهه كلها تعبر عن أنه يعيش فى فشل دائم .. وكان يشكو من آلام حادة فى الكلية .. وبدأت أعالجه .. والعلاج فى هذه الأيام لا يعتمد على شفاء الجسد وحده .. لا يقوم على الدراسات الفسيولوجية فقط ، إنما هو يبحث وراء الأعصاب .. لقد اكتشفنا أن أعصاب الإنسان لا تنعكس على حالته النفسية وحدها بل تؤثر تأثيرا مباشرا على حالته الجسدية .. إن أمراض الكلى ، والقلب ، والمعدة ، والأمعاء ، بل المفاصل واللوز ، قد تكون أسبابها الرئيسية هى الأعصاب .. وقد بدأت آلام كلية كارلو تخف ، وبدأت الأشعة تبرز لها صورا مطمئنة .. ولكن الميكروب الذى يعيش فى داخل كارلو هو ميكروب فى أعصابه .. هذا ما اكتشفته .. وقررت أن أعطيه أكثر .. قررت أن أتولى بنفسى علاج أعصابه دون أن يدرى أنى أقدم له علاجا .. وأصبحت أقضى كل أوقات فراغى بجانبه .. ولم يكن يحيط به إلا الفشل .. فشل فى إيطاليا .. وفشل فى الحبشة .. وهو الآن فاشل فى لندن .. إنه ليس متخصصا فى شىء .. ولا على درجة عالية من الثقافة .. وكل ما يحتاج إليه هو أن ينجح .. أن ينجح فى أى شىء ..

وتنهدت دورثى .. الدكتورة دورثى .. وهى مطلقة عينيها إلى

السماء ، واستطردت قائلة :

وقررت أن أعالجه بالنجاح .. الدواء الذى يحتاج إليه هو النجاح .. وبمجرد أن يخرج من المستشفى سعيت لدى صديق من رجال الأعمال ، فأخذه عنده فى مكتبه .. وكنت ألتقى به كل يوم ليحكى ما وصل إليه فى عمله الجديد .. إنه ذكى ، ويستطيع أن يستوعب سريعا أسرار العمل .. كما أنه قريب إلى القلب ، يستطيع أن يكسب بسرعة الشخصيات التى يسعى وراءها والتى أصبحت قريبة منه عن طريقى ..

وأعطيته أكثر ..

استأجرت شقة فى حى من أحياء لندن المتوسطة ، وتركتها له ، ثم أعطيته نفسى .. جسدى .. كنت أريد أن أرفع من ثقته بنفسه بأن أشعره بأنه وهو الفقير ، المشرد المنخفض فى مستواه الثقافى ، استطاع أن يحصل على .. على دكتورة مثقفة ، ناجحة ، من عائلة محترمة .. صحيح أنى كنت أتمتع به ، ولكن متعتى الكبرى ، كانت إحساسى بأنه يتمتع بى ..

وهو يقول لى كل شىء عن عمله ، وعن اتصالاته ، وعن تحركاته ..

ودائما يستجيب لنصيحتى .. لقد كنت أقرأ بحوثا فى مختلف مجالات التجارة والتعامل الاقتصادى ، حتى تكون نصيحتى له على أساس صحيح ، برغم أنى مازلت أعمل كطبيبة ..

وبدأ كارلو ينجح .. لعله نجح بأسرع مما كان هو نفسه يتصور إنه يستطيع أن ينجح .. ونجاحه عالج أعصابه واصبح فى صحة كاملة . لم يعد هناك خطرا أن تعاوده آلام كليته ..

ولكنه بعد عامين بدأ يتغير .. لم يعد يحرص على أن يقول لى أسرار عمله وتحركاته . ثم بدأ يناقشنى فى نصائحى ، ويستسخفها أحيانا ، وعندما أصر على نصيحة كان يتظاهر بالموافقة ثم يكذب .. ثم فوجئت بأنه دون

أن يستأذننى استأجر شقة أخرى .. أوسع وفى حى أرقى .. لقد أصبح غنيا .. وهو يطلب منى أن ألقاه فى الشقة الجديدة ، وكنت أرفض فيأتى ليلقانى فى الشقة القديمة .. الشقة التى أخذتها له .. ولكنه كان يأتى والملل والتسرع يسيطران عليه .. وضعفت ، واستجبت له ، وبدأت أذهب لألقاه فى الشقة الجديدة .. شقته .. وبدأت أعانى .. أعانى من فقدان شخصيتى .. إنى لم أعد أعطى كارلو كما تعودت ، أصبحت آخذ منه .. آخذ المكان الذى ألتقى فيه به .. وآخذ الطعام الذى يقدمه لى .. وآخذ .. وآخذ .. لا أريد أن آخذ .. أريد أن أعطى ..

ثم .. ثم بدأ كارلو يقدمنى إلى أشخاص هو الذى يعرفهم .. لست أنا التى أعرفه بهم .. شخصيات ليس لى رأى ولا إرادة فى اختيارهم ، وكان يحرضنى فى إلحاح أن أعاملهم معاملة خاصة .. أن أعرى ساقى .. وأن أبتسم .. وأن أطلق فى نفوسهم شهوة الأمل فى الحصول .. لقد نسى كارلو أنى نكتورة .. أنى لم أعد إلا امرأة .. مجرد امرأة لها جسد امرأة .. وكان يدافع عن نفسه صارخا .. انما متطلبات العمل يا حبيبتى .. هل تريديننى أن أضحى بمليون إسترلينى حتى لا تسقط عن ساقك .. وانهرت .. استجبت إلى حد أن أصبحت امرأة يقدمنى كارلو إلى رجال الأعمال مع كأس الويسكى دون أن أدرى كم أخذ ثمنا لى ..

ولم احتمل طويلا ..

هربت ..

هربت بعيدا عن كارلو ، وعن لندن ، وعن انجلترا كلها .. هربت إلى حيث أستطيع أن أعود الدكتورة دورثى التى تعطى .. وتداوى .. وتنقذ الحياة ..

هربت إلى إفريقيا .. أواسط إفريقيا ..

• •

وصمتت دورثى برهة وبين شفتيها ابتسامة ساخرة كأنها تسخر بها من نفسها .. وعادت تقول :

لقد انضممت هناك إلى بعثة طبية لمقاومة الأوبئة .. ولم تكن إقامتى فى المدينة ، كنت أقيم فى القرى الصغيرة داخل الغابات .. ولا تدرى كم كنت سعيدة بنفسى .. لقد استرددت بسرعة كل شخصيتى التى أعتز بها .. إنى فى أيام قلائل بدأت أحس أنى أعطى من نفسى للحياة كلها منذ وجدت الحياة ، وكنت أحس وأنا أتلقى بين يدى الأهالى الزنوج العرايا ، بأنى أتلقى بذورا طبيعية لم تزرع بعد ، وأحس كأنى أزرع هذه البذور وأتتبعها وهى تنمو لتصبح أشجارا وزهورا آدمية تنبض بالحياة ..

وهناك وجدت « لالو لواكا أو كنثوا » ، واسمه المسيحى جونى .. كان أكثر شباب القرى نشاطا ، وكان جبينه يلمع بالذكاء ، وكان يتكلم الإنجليزية البسيطة الممزقة التى تعلمها فى الكنيسة التبشيرية ، وكان يعمل مع البعثة الطبية كمترجم وكدليل .. ولاحظت منذ اليوم الأول الذى صحبنى فيه للطواف ببعض القرى ، أن الأهالى الزنوج يحبونه .. أكثر من مجرد طبيب .. كأنه بينهم سليل الآلهة ، وهو على قدر ما يحنو عليهم يحادثهم كأنه يأمرهم ، وهم يستسلمون لأوامره بلا مناقشة ، حتى زعماء القبائل العجائز يستسلمون له ..

وبدأت ألاحظ أنه برغم إخلاص « لالو » فى العمل معنا ، فإنه منعزل عنا حتى فى ساعات العمل .. إنه يعمل دون أن يلتفت إلىّ ، كأنه يعرف واجبه تماما دون حاجة إلى أخذ رأيى فى شىء .. وأحيانا كنت اصطدم بنظرات تنطلق من عينيه وتنصب علىّ ، كأنها نظرات غيظ ، أو تحد ، أو حقد .. لماذا .. لابد أنه معقد نفسيا .. وخسارة أن يضيع هذا الذكاء داخل عقدة نفسية .. إن الآدمية والمدنية فى هذه المنطقة الإفريقية فى حاجة إلى صيانة نكاء شعوبها ، أى صيانة نكاء « لالو » .. يجب أن أعالجه .. أن أداويه .. أن أعطيه ..

وكنت قد لاحظت أن « لالو » يحاول أن يرفع من مستواه إلى مستوانا نحن الإنجليز .. إنه يحرص على ألا يبدو عاريا كبقية أهله .. يرتدى دائما القميص والبنطلون ، حتى الحذاء كان يضع قدميه فيه دائما ، برغم أنى أنا نفسى كنت أتضايق من حذائى وأنا أسير به بين حشائش الغابات وأتمنى أن أسير حافية كالأهالى .. لابد أن عقدة « لالو » النفسية هى عقدة التطلع إلى الرقى ، وإلى المركز المحترم ..

وبدأت أعطيه ..

أصبحت أناديه « مستر جونى » برغم أن كل أفراد البعثة ينادونه « لالو » .. ثم أخذت أطلب منه فى رجاء أن يساعدنى فى بعض الأعمال الطبية البسيطة .. وقد دهش أولا ، وكان ينظر إلىّ نظرات الشك ، كأنه يسأل نفسه ماذا أريد منه .. ولكنه أقبل بعد ذلك سعيدا بما أكلفه به من أعمال طبية .. وربما كانت أسباب سعادته أنه أحس أنى لا أعامله كخادم .. وأكثر من ذلك .. لقد عدنا مرة من جولة بين القرى ، فدعوته إلى تناول العشاء على مائدتى بجانب الكوخ الصغير الذى كان قد أعد لى .. أنا الذى أعددت له الطعام بيدى .. وقد جلس على مائدتى وهو مبهور كأنه لا يصدق نفسه .. وبدأ يأكل وهو ينظر إلىّ بطرف خفى ، ليقلدنى فى طريقة تناول الطعام واستعمالى الشوكة والسكين ، وتركته يقلدنى ، دون أن أشعره بأنى أعرف أنه يقلدنى .. أنى أعطيه .. أنى أرفعه إلى مستوى المدنية .. وقد ثار أفراد البعثة الطبية كلهم عندما رأوا « لالو » يتناول الطعام معى .. ولكنى أقنعتهم بأن « لالو » يقدم للبعثة خدمات كثيرة ، وأن البعثة فى حاجة إليه ، ويجب أن نعطيه صداقتنا ، ومهمة البعثة ليست فقط تقديم العلاج ، بل أيضا تقديم المدنية .. واقتنع أفراد البعثة ..

وأكثر من ذلك ..

لقد كنت أنا و « لالو » عائدين من قرية بعيدة سيرا على أقدامنا ،

وتعبت فى الطريق ، وجلست تحت شجرة لأستريح ، وابتعد « لالو » وجلس تحت شجرة أخرى بجانبى ، فقد كانت قواعد البروتوكول ترفض أن يجلس الإفريقى بجانب الأوروبى إلا إذا طلب منه ذلك .. إنى أريد أن أعفيه من البروتوكول .. أريد أن أرفعه فوق مستوى الفرقة بين الإفريقى والأوروبى .. بين الأبيض والأسود .. أريد أن أعطيه .. وناديته ، وطلبت منه أن يجلس بجانبى ، وجلس صامتا كأنه يستسلم لأوامر السيد .. وأملت رأسى على صدره قائلة :

دعنى أستريح ..

ثم حدث .. أعطيته نفسى .. جسدى .. كنت أريد أن أحرره من كل عقده .. لا يمكن أن تبقى فى نفسه عقدة تفرقة ، بعد أن يجد نفسه فى أحضان دكتورة بريطانية بيضاء .. وقد أخذنى يومها « لالو » وهو فى دهشة ، حتى كانت دهشته تثير فى داخلى ضحكات .. إنه كمريض لا يصدق أنه شفى ..

وأصبح « لالو » يأتى إلى الكوخ فى المساء بعد أن ينام أفراد البعثة ، وقد بدأت ألاحظ أنه يرقد معى وهو منفعل بإحساس عنيف ، كأنه انتصر .. كأنه يشعر .. كأنه يفرض إرادته على الإمبراطورية البريطانية كلها .. كأنه يخضع اللون الأبيض للون الأسود .. وكنت أتركه يتمتع بأحاسيسه . إنى لا أحرمه من شىء أستطيع أن أعطيه .. وقد سعيت له لدى مركز البعثة فكلف بمهام أكثر وارتفع أجره .. ثم سعيت له لدى المفتش الإنجليزى ، وعهد إليه بمهام إدارية رئيسية .. وكان يعود دائما ويقول لى كل شىء .. ويسمع نصائحى ، وينفذها .. سأجعل منه يوما رئيسا على حكومة بلده ..

وقد قررت أن أعطى نفسى إجازة بعد أن قضيت عامين فى العمل ، وأخذت معى « لالو » إلى لندن .. أول مرة كان يشاهد فيها لندن ، وهناك ألحقته بمدرسة صيفية للتدريب على التمريض .. وكان يعود إلىّ فى المساء ، وفى نفس الشقة التى كنت أستأجرها « لكارلو » الإيطالى وكنت

لا زلت أحتفظ بها وأوجرها فى غيبتى .. وبعد ثلاثة شهور عدنا إلى افريقيا ..

وبدأ « لالو » يتغير .. لقد عاد ولم يكتف بأن يستفيد من دراسته القصيرة فى التمريض ، بل انفصل عن خدمة البعثة الطبية ، وأعلن نفسه بين الأهالى كطبيب وتركته يكذب .. إنها كذبة بريئة .. فإن دروس التمريض لواحد من شعب فى هذا المستوى تكفيه ليكون طبيبا .. ولكنه لم يعد يقول لى كل شىء .. وأصبح يغيب أياما عن المنطقة كلها ، وأسمع أنه ذهب إلى المدينة ، ثم يعود ، وألقاه فلا يقول لى شيئا ، ولا يحاول أن يستشيرنى ، ويسخر من نصائحى .. وقال لى مفتش المنطقة البريطانى إن « لالو » يعمل مع إحدى الجمعيات السياسية السرية فى المدينة .. وسألته .. سألت « لالو » وهو فى فراشى .. وبمجرد أن سألته ضربنى .. صفعنى على وجهى ، وعلى كل قطعة من جسدى العارى ، ثم أخذنى إلى جسده كأنه يصب علىّ كل ثورته ، وكل حقده ، وكل همجيته .. تصور هذا الإفريقى يضربنى .. وبرغم ذلك تحملت .. وقاومت شهورا لعلى أستعيده .. ثم يئست ، وتركت إفريقيا كلها ..

وتركت « لالو » .. لقد مضى أكثر من عامين ، وأصبح « لالو » الآن شخصية مهمة فى بلده .. أعتقد أنه زعيم أو وزير .. ثم .. بعد كل هذا الغياب ، بحث عنى وحاول أن يعود إلىّ .. إنه يشعر الآن بحاجته إلىّ .. إلى نصائحى .. لقد رأيته معى أمس .. ولكن لا أمل .. لقد أصبح ماضيا ، ولن أعود إليه أبدا .. إنه لم يعد فى حاجة إلى أن أعطيه ..

• •

والتفتت إلىّ الدكتورة دورثى ، وقالت كأنها أشفقت علىّ من صمتى الطويل وهى تروى حكايتها :

– هذه هى قصتى .. ما رأيك ..

قلت مبتسما :

– هل تريدين رأيى حقيقة ..

قالت :

– طبعا ..

قلت :

– كل رأيى الصريح ..

قالت :

– إنك تشوقنى .. ما هو رأيك ..

قلت :

– رأيى أنك أخطأت فى أسلوب حياتك .. فقد كان يجب أن تحددى الثمن قبل أن تعطى ..

قالت فى حدة :

– إنى لا أبحث أبدا عن ثمن ، إنى أعطى لمتعة العطاء ..

قلت :

– إنك تكذبين على نفسك .. لا عطاء بلا ثمن .. وقد قلت لى منذ مدة إن الناس أصبحوا الآن يسألون عن الثمن قبل أن يسألوا عن أصناف الطعام .. وهكذا كل شىء .. العلاقات الفردية ، والعلاقات الدولية أيضا .. لقد أعطت بريطانيا لمصر فى عهد الاستعمار القديم عطاء كبيرا .. أعطتها فرصة انتقال إلى مستوى حضارى جديد ، ولكنها كانت صريحة فى تحديد الثمن .. الثمن هو الاحتلال العسكرى والسياسى والاقتصادى .. وقد قاومت مصر لأنها وجدت أن الثمن أكبر من قيمة ما تأخذه ، وتحررت

مصر من بريطانيا ، وعاشت بعدها حياة دولية قلقة متعبة كلفتها الكثير لأنها لم تكن تحاول تحديد الثمن قبل العطاء ، مكتفية بالشعارات العامة كشعار الإنسانية ، الذى أقنعت به نفسك فى علاقاتك « بكارلو » الإيطالى و « لالو » الإفريقى .. حدث هذا بين مصر والاتحاد السوفييتى .. لم يحدد الثمن صراحة .. فوقع الخلاف ثم الانفصال .. وحدث بيننا وبين كثير من الدول .. الآن نقبل على صداقة نريدها ونسعى إليها مع الولايات المتحدة ، والمشكلة التى تشغل عقولنا اليوم هى تحديد الثمن .. ثمن هذه الصداقة .. ثمن العطاء .. وهكذا أنت .. كان يجب أن تحددى أولا الثمن مع « كارلو » و « لالو » ..

وقالت صارخة وهى تنظر إلىّ كأنها تهم بأن تبصق فى وجهى :

– أى ثمن تعتقد أنى كنت فى حاجة إليه مع مثل هؤلاء الفقراء ..

قلت فى هدوء :

– الثمن هو أن يكون الرجل ملكك .. إنك تحاولين أن تفرضى ملكيتك حتى علىّ أنا ..

قالت وهى تقوم واقفة منتفضة :

– إنك معقد أنت الآخر .. عقدة النقص أمام الشعوب الأكثر تحضرا .. عقدة الضعف .. التأخر .. الحسد .. الغيرة .. آسفة لأنى قبلت دعوتك ..

وقلت وأنا مازلت جالسا على مقعدى وهى تبتعد عنى :

– وأنت أيضا معقدة .. عقدة الإحساس بالتفوق الحضارى .. عقدة

التباهى بالقوة .. عقدة النظر من أعلى إلى بقية الشعوب .. إنها ليست عقدة قومية فقط ، إنها عقدة فردية أيضا ..

وابتعدت الدكتورة دروثى ..

اختفت ..

وتركتنى تائها فى حوارى باريس التى أخذتنى إليها ..

وإنى أتمنى أحيانا أن أتوه حتى أشغل فكرى بالبحث عن طريقى .

كلمـــة

لم يصبنى الانهيار عندما تلقيت وأنا فى مكتبى أنباء هزيمة ٦٧ .. كان النبأ صدمة مفاجئة ، فقد كانت تقديراتى ، وتقديرات كثيرين غيرى ، لا تحسب حساب الهزيمة ، أو على الأصح كنت لا أتوقع الحرب كلها .. وقبلها .. قبل الهجوم الإسرائيلى .. تعمدت أن أتصل ببعض الشخصيات الرئيسية المسئولة ، لأقيس حساباتى بما لديهم من جداول الحساب ، وذلك برغم ما هو معروف عنى من انعزال عن جميع المسئولين ، وكانوا يطمئنوننى .. بعضهم لا يتوقع الحرب .. ويعتقد أن كل ما يجرى هو مجرد ، بلفة ، سياسية ، وبعضهم يؤكد أنه إذا بدأت الحرب فليس هناك أى احتمال للهزيمة ..

وهزمنا .. هزمنا بضربة واحدة ..

ولم أقع منهارا ، ولم يطف بى إحساس اليأس برغم كل ما كان يجرى قبل الهزيمة ويدعو إلى اليأس .. ولم تتحرك الدموع فى عينى كما تحركت فى أعين كثير من زملائى وزميلاتى .. بل لم تتجسم أمامى صور آلاف الشهداء الذين سقطوا فى سيناء خلال أيام .. إنما انقلبت الهزيمة فى صدرى وفى عقلى إلى ثورة .. مجرد ثورة وطنية طاغية تشتعل فى كل أعصابى وتحرقها ، وبدأت أكتب وأنشر معبرا عن ثورتى .. كتبت أننا ، قبل أن نقضى على آثار الهزيمة ، يجب أن نقضى على أسباب الهزيمة ، .. وكتبت أن ، الهزيمة ، العسكرية قامت نتيجة الخطأ فى التقديرات السياسية ، أى أن الهزيمة الكاملة أشرف من الاستسلام لنصف الهزيمة ، .. بل إنى كنت أكتب لأتحرر من الخوف ورهبة مواجهة إسرائيل ومعها أمريكا ، إلى حد أنى اعتبرت أن احتلال القاهرة أفضل من السكوت على احتلال سيناء واحتلال القناة ، ووضع بورسعيد والإسماعيلية والسويس تحت رحمة نيران إسرائيل ، لأن البداية من الصفر ، إذا احتلت القاهرة ، تعين على البناء أكثر مما تعين البداية من مستوى الـ ٥٠٪ الذى نعيش فيه منذ وقعت الهزيمة .

إلى هذا الحد أخذتنى ثورتى .. إلى الوصول بخيالى السياسى إلى أن العدو قد احتل القاهرة .. وربما كانت هذه الثورة هى التى أدت إلى إبعادى عن مجالات النشر ، وبقيت فى بيتى عاما كاملا أعبر خلاله عن ثورتى لنفسى بنفسى . وربما كانت سيطرة هذه الثورة على فكرى هى التى أدت بى إلى أن أسير فى الطريق سرحانا غير واع ولا مهتم بحماية نفسى ، فوقعت فريسة للسيارة التى صدمتنى وكادت تقتلنى لولا المعجزات التى قام بها أطباؤنا الذين سهروا حولى كأنهم يشتركون معى فى تخطيط ثورة .. ثورة لإعادة الحياة ..

كل ذلك وثورتى أقوى من دموعى تكبتها وتسجنها خلف عينى ..

إلى أن كان يوم .. وضعت ثورتى برهة ، وتغلبت عليها دموعى فقفزت متحررة لتطل من حواف جفونى .. لم أبك ..

ولكنى كدت أبكى ..

وكان ذلك يوم التقيت بفاطمة .. وليكن اسمها خديجة أو عائشة أو نفوسة فإنى لا أسجل اسمها هنا .. وكانت فاطمة قد اتصلت بتليفون البيت أكثر من مرة تطلب مقابلتى ، وعندما يسألونها من هى تقول إنها من مهجرى القناة .. وترددت طويلا قبل أن أحدد موعدا لفاطمة .. وكنت زمان – أيام شبابى – أرحب بلقاء كل من لا أعرفهم ، وكنت أسميهم أصدقاء قراءة واستماع ، هم يقرأون لى وأنا أستمع إليهم ، وكانت أغلبية من يلقانى من قراء القصة ، كل منهم يعتبر نفسه قصة ، وكنت أستمع إلى كل منهم وأنا أعلم أنه لن يستفيد كثيرا برأيى . وربما لا ينتظر رأيى ، إنما كنت أستمع له كنوع من العلاج النفسى أريحه به .. فإن الإفراج عن الأسرار الخاصة التى يختزنها الإنسان فى صدره ، حتى بمجرد الكلام ، يؤدى إلى راحة .. راحة عميقة .. وقد استمعت إلى أسرار أعتقد أنها لا يمكن أن تقال لأب أو لأم ، أو لصديق أو صديقة ، إنما قد تقال لطبيب نفسى ، أو لكاتب غريب تقرأ له .. إلى أن بدأت مرحلة الانعزال ، وهو انعزال قادنى إليه أنى لست أصلا إنسانا اجتماعيا له القدرة على مزاولة فن الاتصالات الاجتماعية ، ثم إن ، الشحططة ، التى أصبت بها مع قلمى ، والإجراءات الغريبة التى سلطت علىَ ، كل ذلك دفعنى إلى الانعزال أكثر ، ولم أكن فى عزلتى أعتقد أنى أحمى نفسى فحسب ، بل كنت أعتقد أنى أحمى أيضا كل من يحاول لقائى ، فقد كان لقاء يفسر أيامها تفسيرا سياسيا متعمدا قد ينتهى بإجراء ظالم .. وانعزلت حتى عن أصدقاء القراءة والاستماع .. وبرغم أن كل ذلك تغير ، وانفتح الناس بعضهم على بعض ، إلا أنى – خلاص – تعودت عزلتى وأصبحت سعيدا مكتفيا بها ..

وفاطمة تلح فى لقائى ..

لا شك أنها تعيش قصة محملة بأسرار تريد أن تستريح منها ..

وقاومت عزلتى ، وحددت لها موعدا ..

وقبل أن تأتى فاطمة إلىّ ، راجعت كل معلوماتى عن مجتمع مهاجرى القناة حتى أعيش القصة التى يمكن أن ترويها لى ..

إن عدد المهاجرين من منطقة القناة يصل إلى مليون .. ترى من تكون فاطمة بين هذا المليون .. وقد جمعتهم الدولة فى مدن وقرى تشمل محافظات مصر كلها تقريبا .. طنطا ، كفر الشيخ ، زفتى ، بنى سويف ، المنيا ، سوهاج ، الوادى الجديد ، اسكندرية ، القاهرة ..

و .. و .. ترى من أى مهجر جاءت فاطمة ..؟ ولقد خصصت الدولة العمارات التى تملكها فى مدينة نصر لمهجرى القناة ، إنها عمارات راقية ، إيجار الشقة فيها ثمانية عشر جنيها ، وإن كانت العائلة المهجرة قد أعفيت من دفع الإيجار .. قد تكون فاطمة من سكان إحدى هذه العمارات .. والدولة تدفع إعانة لكل عائلة مهجرة .. إنها تدفع للعائلات المعدمة عشرة قروش فى اليوم لرب الأسرة ، وخمسة قروش لكل واحد من الأولاد ، بحيث لا يزيد المبلغ شهريا عن ستة جنيهات .. وتدفع ما يسمى « السلفة التجارية » للأسر التى كانت تشتغل بالتجارة أو بالأعمال الحرة ، وهى سلفة تتراوح بين عشرة جنيهات وخمسة وعشرين جنيها فى الشهر ، حسب ما كان يدفعه رب الأسرة من ضريبة للدولة قبل التهجير ..

ولكن أهل القناة ليسوا هؤلاء فقط ، إن الأسر الكبيرة ، ورجال الأعمال الناجحين هاجروا وهم محتفظون بكل كيانهم ، وبمستواهم المعيشى ، وبرغم المرارة التى يعانونها بعد أن تركوا البيت والأرض ، وبرغم المعاناة التى يقاسونها وقد انتقلوا إلى مجتمع جديد غريب ، وبرغم نظرة الإشفاق والمواساة التى يجرحهم بها كل من يعرف أنهم من أهل القناة ، وبرغم كل ذلك استطاعوا أن يعملوا ، وأن ينجحوا ، وأن يرتفعوا بأنفسهم وأولادهم إلى مستويات أعلى .. بل إنى أعرف شابا من أهل القناة كان عاملا ، وكان من هواة الأدب ، واستطاع وهو عامل أن يحصل على التوجيهية ، ثم هجّروه من بلده ، ومن عمله ، ومن مجتمعه ، فلم ييأس ، ولم يلق بمسئوليته على الدولة ، بل بدأ يعمل من جديد ، والتحق بالجامعة فى الوقت نفسه ، وتخرج فى العام الماضى .. إن الهجرة تجعلك فى حالة دفاع عن النفس مستمرة ، وهى حالة تجعلك أقوى وأقدر ، وأذكى ، فتصل إلى أعلى مما يمكن أن يصل إليه الفرد العادى المستقر الذى لا يحتاج إلى الحياة دفاعا عن النفس .. إن نسبة الناجحين من المهجرين الفلسطينيين داخل الدول العربية أكبر من نسبة الناجحين من أبناء الشعوب العربية الأخرى - ومنها مصر - الذين يعملون فى البلاد نفسها .. لأن الإحساس بالضياع .. الإحساس بأن ليس لك بلد تعود إليه ، يجعل كل مواهبك وقواك تتفتح وتزدهر دفاعا عن وجودك .. وأهل القناة كانوا كأهل فلسطين .. مهجرين .. لاجئين .. لأن المدينة أو القرية التى ولدوا وعاشوا فيها هى الوطن الصغير ، لا تستطيع أن تنساه ، أو تستغنى عنه ، أو أن تكف عن السعى إلى تحريره والانتقام له .

ولكن أين فاطمة من كل ذلك ..

إنى لا أستطيع أن أرسم بخيالى صورة لمجتمع أهل القناة بكل مستوياته . وبكل ما أصابه بعد الهجرة .. فقد كان النشر عن أهل القناة محرما ، ممنوعا بأمر الرقابة ، حتى لو حاولت أن تنشر مجرد قصة إنسانية .. فمن أين أستطيع أن أعرفهم ، وكيف أستطيع أن أتخيل فاطمة ..

إلى أن جاءت ..

إنها شابة ، لعلها فى حوالى الثلاثين من العمر .. ووجهها لا يشدك إليها ، ولا ينفرك منها .. إنه وجه خطوطه عادية ، وإن كانت تشوبه صفرة ، وتتغلب عليه ملامح الاستسلام الحزين ، كأنه وجه فلاحة ماتت بقرتها منذ شهور .. ويبدو أنها لم تبذل جهدا متعمدا فى تصفيف وتنسيق شعرها ، وثوبها رخيص يبدو فوق قوامها المتسق كأنها لم تنتقه ، أو كأنه ليس ثوبها .. وهى تبدو حائرة مترددة ولعلها مندهشة من الاحترام الطبيعى الذى تستقبل به .. إنها لا تجلس على المقعد إلا بعد أن أدعوها أكثر من مرة إلى الجلوس ، وتتردد قبل أن تمد يدها لالتقاط كوب العصير الذى يقدم إليها إلى حد أن ترتعش يدها ، ثم تنتفض واقفة فى ارتباك عندما دخلت زوجتى لترحب بها قبل أن تتركنا وحدنا لأستمع إليها ، رأسها منكس ، وعيناها ملتصقتان بالأرض ، ولم تمد يدها لتصافح زوجتى ، كأن هذا ليس من حقها ، إلى أن مدت زوجتى يدها إليها ..

واحترت فيها وأنا أستقبلها بنظراتى الأولى .. لا يمكن أن تكون قارئة .. بل قد لا تكون ممن يجيدون القراءة والكتابة ، ولا ممن يحرصون على شراء الكتب ولا حتى الصحف والمجلات .. إذن لماذا جاءت .. ؟ لماذا اختارتنى أنا بالذات إذا لم تكن قد تأثرت بما قرأته لى .. ولعلها من رواد السينما وتأثرت بموضوع قصة لى شاهدتها على الشاشة .. و ..

وترددت فاطمة طويلا قبل أن تبدأ فى رواية حكايتها .. بل إنها لم تكن تعرف من أين تبدأ .. ضائعة بين كل أيام حياتها وأنا ضائع معها ، إلى أن اضطررت - وهو ما يحدث مع كل لقاء لى - أن أحدد لها من أين تبدأ ..

ومع حكايتها بدأت أراها من جديد .. إنى أعرفها .. أعرفها شخصيا منذ أكثر من عام ..

إنها الهزيمة ..

فاطمة هى الهزيمة ..

الهزيمة فى صورتها التى تجاهلناها ، أو التى حجبت عنا حتى لا نزداد انهيارا ..

صورة المجتمع المهزوم ..

□

الهزيمة.. كان اسمها.. فاطمة!!

إنها من إحدى مدن القناة .. وأنا أتعمد ألا أحدد أى مدينة من المدن الثلاث .. وهى من عائلة من العائلات التى وضعتها الدولة فى كشف « العائلات المعدمة » .. ولكنها لم تكن عائلة معدمة .. الرزق سهل والحمد لله .. وهى مكتفية سعيدة .. أبوها يملك دكانا صغيرا على ناصية الحارة .. وزوجها عامل فى أحد المصانع القريبة .. هل تزوجت عن حب .. ؟ وابتسمت فى مرارة ، وأنا أسألها هذا السؤال .. لا ..

كان لها حب وهى صغيرة وانتهى بلا زواج .. لم تتزوج عن حب ولكنها هى التى اختارت زوجها ، وربما لم تصل معه إلى حد الحب حتى بعد الزواج ، ولكنه كان يدللها ، وكان يحب بيته ، ويقيم معها كيانا عائليا كاملا مستقرا .. إنها تقيم معه فى شقة من ثلاث غرف كاملة الأثاث تجمع كل ما تستطيع أن تتباهى به أمام صديقاتها .. وأبوها وأمها وبقية أخوتها الصغار يقيمون فى شقة أخرى بالبيت نفسه .. وأنجبت .. ولدا وبنتا .. وزوجها يعود من المصنع فى المساء ليحوطها بمزيد من الرعاية والتدليل .. لم يكن زوجها وحده هو الذى يدللها .. إنها مدللة منذ صباها بين كل بنات الحى .. إنها ذكية .. جريئة .. تجد دائما ما تشغل به نفسها وتشغل به كل من حولها .. وخفيفة الدم .. إنها تنثر الضحكات والمرح والسعادة بين كل الناس . وهى تهوى السينما .. لا تستطيع أن تكف عن مشاهدة كل ما تستطيع أن تصل إليه من أفلام .. وكانت تعود من كل فيلم لتجمع صديقاتها وتقلد لهن دور البطلة .. ويتضاحكن .. وأحيانا تعود باكية ، وقد تبقى باكية حتى اليوم التالى .. أبكاها الفيلم .. حتى بعد أن تزوجت .. إن زوجها لا يطيق السينما ، ولا يريدها أن تذهب إليها .. ولكن

لا .. إلا السينما .. ولأنه يدللها ، وحريص على كل ما يسعدها ، وافق على السينما .. كان يتركها تذهب مع أخوتها أو صديقاتها ، وأحيانا قليلة كان يذهب معها لينام فى المقعد بجانبها ..

إنها سعيدة ..

مكتفية ..

لا ينقصها شىء ..

وبدأت مقدمات الحرب .. ولم تهتم ، لا أحد فى المدينة يهتم .. ليست هذه أول حرب وقد لا تكون آخر حرب ، والمدينة عاشت حروبا كثيرة وهى شامخة ، سليمة ، مستقرة .. إن كل ما يحدث فى المدينة هو ازدياد الحركة نتيجة وصول قوات جديدة من الجيش المصرى وزيادة أرباح المقاهى والدكاكين ، حتى أرباح أبيها ..

وبدأت الحرب .. وكل شىء حولها يتغير ، ولكن لا هى ولا أحد حولها يستطيع أن يتصور ما يمكن أن يحدث .. لا يمكن أن يحدث أكثر مما حدث فى الحرب الماضية ، ولا أكثر مما سمعته عن أحداث الحروب القديمة .. حتى الغارات الجوية التى أنصبت فوق المدينة لا تستطيع أن تتصور نهايتها .. إنها تحمل أولادها وتشد أمها وتذهب بهم إلى الدور الأرضى ، وأحيانا كثيرة لا تتحرك من مكانها ساعة الغارة .. ولا يهمك يا بت .. خليها على الله .. وزوجها لا يزال يخرج فى الصباح إلى عمله ليعود فى المساء .. كل شىء يمكن أن يستمر كما هو إلى أن يسكت هذا الضجيج ..

وسكت الضجيج ..

ومرت أيام هادئة ..

انتهت الحرب ..

وبدأت تحاول أن تعود إلى حياتها العادية .. إنها تسمع حكايات .. وترى أشياء كثيرة تحدث فى المدينة .. ولا تفهم شيئا ، ولا تحاول أن تفهم .. ليس من اختصاصها أن تفهم .. إن قلبها يتمزق وهى تسمع الحكايات عما حدث للرجال ، وتبكى فى صمت وهى ترى شهيدا أو جريحا ينقلونه عبر المدينة .. ولكنها لا تفهم لماذا حدث كل هذا ، ولا ماذا كان يمكن أن يحدث بعد هذا .. ماذا كانوا يسمون ما حدث .. نكسة .. ماذا تعنى نكسة .. ؟ إنها لا تفهم ..

وسكتت فاطمة برهة وقد ازداد اصفرار وجهها وأصابعها الرفيعة الملقاة على مسند المقعد ، تنقبض فوق كفها ، ثم تتكلم وصوتها يرتعش فى عصبية كأنها تقاوم الصراخ ..

إنهم يريدونها أن تترك البيت هى وأولادها .. لماذا .. ؟ إنه بيتى .. بيتى أنا .. لا أحد يستطيع أن يأخذنى من بيتى ، أو يأخذ بيتى منى .. لقد أصبحت المدينة منطقة عسكرية .. مالى ومال العسكر .. ولماذا اختاروا بيتى وحارتنا .. ليبحثوا عن حارة أخرى يحاربون منها .. إنها المدينة كلها وليست الحارة وحدها ، كل مدن القناة ، وهم يريدون أن يحموا حياتك وحياة أولادك ، إنك هنا فى انتظار الموت .. دعونى .. إن انتظار الموت فى بيتى أرحم من انتظاره فى العراء .. وزوجها يحاول أن يقنعها ، إنها لا تستطيع أن تختار ، إنها أوامر الحكومة ، ثم إنهم لن يغيبوا عن البيت طويلا .. أسبوع .. شهر على الأكثر .

لا تأخذى معك إلا ما تحتاجين إليه فى حياتك اليومية ..

هكذا قال لها زوجها ..

ولم تنس أن تأخذ الكردان والسوارين الذهب شبكة زواجها ..

وجمعت البنت والولد ومعهما أمها ، وخرجوا من البيت يتقدمهم زوجها إلى حيث تبدأ الرحلة ..

أين أخوتها ..

إنهم مع أولاد الجيران ..

وأبوها ..

لقد اختفى ، لا أحد يعرف أين .. قد يلحق بهم فيما بعد ..

وأركبوهم فى سيارة نقل .. عشرات السيارات والناس تتزاحم ويضيع بعضها من بعض .. ووجدت نفسها فى سيارة ومعها أمها والبنت والولد وزوجها وأبوها لم يظهر بعد .. وأخوتها فى سيارة أخرى .. إنها تستطيع أن تراهم . ولكن بعد فترة من المسير لم تعد تراهم .. ضاعوا عن عينها .. وهى لا تدرى إلى أين يأخذونها .. ولا تحاول أن تدرى .. إن كل ما يشغل بالها هو البيت .. بيتها .. لقد حرصت قبل أن تتركه على أن تغلق النوافذ بالمسامير .. أقفلت الباب بالمفتاح ، وبالقفل الصغير الذى كانت تستعمله من قبل ، قفل الدولاب .. ومدت يدها داخل حقيبتها لتتأكد من وجود مفتاح القفل .. البيت فى أمان ..

ووقفت سيارات النقل أمام باب جمعية تعاونية فى إحدى القرى .. وطلبوا منهم أن ينزلوا .. وجمعهم زوجها ونزلوا .. ولكن دار الجمعية التعاونية لم تسع كل هذا العدد ، فطلبوا من الباقين أن يعودوا إلى سيارات النقل .. وعادوا .. وعادت مع من عادوا .. وبعد مشوار طويل وقفت السيارات أمام باب مدرسة فى قرية أخرى .. وطلبوا منهم أن ينزلوا ..

وعرفت أنها ستقيم فى هذه القرية داخل بناء هذه المدرسة ..

ولكن كيف ..

لقد وضعوها هى وعائلتها ومعهم ثلاث عائلات أخرى داخل صالة واحدة ، من بناء المدرسة ، وتركوهم ينظمون حياتهم داخل هذه الصالة الواحدة .. وفى صمت تجمعت كل عائلة فى ركن من الأركان .. وهى

وزوجها وأمها والبنت والولد فى ركن .. لقد كان بيتها ثلاث حجرات ومطبخا وحماما .. وصمت مرير حزين يخيم على الجميع .. وقد صرفوا لكل عائلة منذ اليوم الأول ستة جنيهات .. إنه مبلغ إعانة شهر .. وأهالى القرية يفدون إليهم مرحبين مشجعين ، ويحملون إليهم هدايا من الأطعمة .. وهم يتقبلون الترحيب فى صمت .. ويمدون أيديهم إلى الطعام فى صمت .. والأولاد خرجوا يلعبون فى حارات القرية ..

وفى اليوم التالى بدأت العائلات الأربع التى تقيم فى الصالة الواحدة ، تفكر فى أن تستر كل عائلة نفسها بستار من الخيش أو الحصير أو القماش ، تحيط به الركن الذى تقيم فيه .. ولكن المدرسة ليس فيها خيش ولا حصير ولا قماش ، ولجنة الاتحاد الاشتراكى المشرفة على المهجرين تعد ، ولا تجد ما تفى به الوعد ، وكل رب عائلة يتسلل فى القرية باحثا عما يستر به ركنه .. وأهل القرية كفوا عن إمداد المهجرين بهدايا الأطعمة .. إنهم لا يستطيعون أن يحملوا أكثر من طاقتهم .. كل عائلة أصبح عليها أن تشترى طعامها .. ويحمل رجل الأسرة ما اشتراه ويسلمه للزوجة لتطبخ .. ولكن أين تطبخ وكيف .. ؟ إن المدرسة ليس بها مطبخ .. ربما كان الحل الوحيد هو أن يقيموا موقدا فى فناء المدرسة .. كيف تتجمع كل الزوجات حول موقد واحد .. موقدين .. ثلاثة .. ربما كان الأجدى أن يعد الاتحاد الاشتراكى مطبخا يعد طعاما جماعيا .. ولكن لم يحدث .. وبدأت المشاحنات .. مشاحنات تصل إلى حد العنف أحيانا .. مشاحنات بين المهجرين بعضهم وبعض ، ومشاحنات بين المهجرين وأهل القرية .. إن المصيبة تجمعهم كلهم ، وتوحد وتؤلف بينهم كلهم .. كل منهم يبكى نفسه ويبكى الآخر .. ولكن المصيبة أيضا حطمت أعصابهم ، لم يعد أحد منهم يتحمل الآخر .

وكان أهم ما يشغل بال زوجها منذ اليوم الأول هو البحث عن هذا الساتر الذى يغطى الركن الذى يقيم فيه .. لم يكن يطيق أن تنام زوجته

مكشوفة أمام بقية الرجال .. ولا حتى حماته .. وبعد أيام استطاع أن يشترى من بعض أهالى القرية ، عددا من الحصر ، وقضى يوما بعيدا عن المدرسة جالسا فى أحد الحقول ، يحيك هذا الحصير بعضه ببعض ، إلى أن عاد به ليلفه حول ركنه .. ولكن .. كيف يستطيع أن يستر عائلته وبقية العائلات الثلاث عارية .. وبدأت المشادة بين الرجال إلى أن قرر زوجها تأجيل إقامة الساتر إلى أن يحقق ستر الباقين ، وخرج الرجال الأربعة إلى القرية ، كأنهم خارجون فى مظاهرة .. كأنهم أعلنوا الحرب .. وأثاروا القرية ، وأثاروا لجنة الاتحاد الاشتراكى ، وحركوا مركز البوليس ... واستطاعوا أن يعودوا بكميات من الحصر والخيش ، دفعوا بعض ثمنها ، وعادوا فرحين بها فرحة النصر .

وبدأ كل واحد منهم يقيم الساتر حول ركنه ..

وابتسمت فاطمة ابتسامة تخفيها فى صدرها ، وهى ترى الساتر الذى أقامه لها زوجها ، أكبر وأوجه ساتر فى أركان المدرسة كلها .. كانت ابتسامتها ساخرة ، تسخر من فرحتها ، فلم تكن تتصور أنها تفرح عندما يصبح بيتها مجرد ستار من الحصير .. وزوجها أيضا كان فرحا .. كأنه أحس بأنه انتهى من تأمين عائلته ، لم يكن يتصور أن قطعة من الحصير لا تكفى لستر امرأة .. لا ستر جسدها ، ولا ستر عرضها ..

وقد أصبح زوجها بعد أن أقام الساتر يضيق بالفراغ الذى يعيش فيه .. ويسخط على الجنيهات الستة التى يعيش بها وعائلته .. وقد حاول أن يبحث عن عمل داخل القرية .. أى عمل .. ولكنه لم يجد .. ولم يكن قد مر على الهجرة أكثر من عشرة أيام حين قرر أن يهاجر مرة أخرى إلى المدينة القريبة ، ليبحث عن عمل .. وهاجر وحده ..

وكانت فاطمة تعتقد أنه سيعود كل مساء أو كل يومين ، أو كل أسبوع .

ولم يعد ..

اختفى زوجها ..

وكان أبوها قد اختفى من قبل ، كما اختفى أخوتها بعده ..

وأصبحت تحمل الهم كله وحدها .. هم الحياة فى كل ركن داخل حجرة وراء ساتر من الحصير .. وهم إعالة ابنها وابنتها وأمها وإعالة نفسها .. ولا تستطيع أن تعيش بهذه الجنيهات الستة .. إن كل شيء حتى فى القرية يرتفع ثمنه .. إن تجار القرية يتمتعون بمكاسب الحرب .. وفى خلال شهرين اضطرت أن تبيع السوارين الذهب .. ولكن ليس هذا هو الثمن الذى يريده الرجال منها .. كل الرجال .. إنهم يعرفون أنها أصبحت وحدها .. لا أحد يحمى شبابها .. وساتر الحصير ليس بيتا تتحصن فيه ، ولا يمكن أن تتحصن المرأة إلا وراء إحساسها بأنها ليست فى حاجة إلى رجل .. الرجل الآخر .. وهى تشعر أنها تنحرف نحو الحاجة .. الحاجة إلى أن تأكل ، ويأكل أولادها ، وتأكل أمها .. وتعيش ويعيشون .. وكانت تقاوم .. تقاوم الرجال .. تقاوم أحيانا بلباقة وذكاء حتى لا تخسر إعانتهم لها على الحياة ، وتقاوم أحيانا فى عنف تثير به فضيحة عندما تجد أن شهوة الرجل تكاد تنقلب إلى اعتداء .. ولكن الفضيحة التى كانت تثيرها لم تكن تصيب الرجل ، كانت تصيبها .. أصبحت مفضوحة فى القرية ..

وضاقت ..

لم تعد تحتمل ..

وكما قرر زوجها أن يهاجر ، قررت هى أيضا أن تهاجر لتبحث عن عمل .. إنها تستطيع أن تكون خادمة ، أو مربية أطفال ، أو طباخة ، أو خياطة .. وابنة خالتها لها صديقة من القاهرة كانت تتردد عليهم كثيرا ، وتطيل إقامتها عندهم ، وكانت تعرف أن زوجها موظف حكومة .. إنها تستطيع أن تذهب إلى سعدية ، صديقة ابنة خالتها فى القاهرة ، لتبحث لها

عن عمل هناك ، وتترك الولد والبنت فى رعاية أمها ، وفى حماية الجنيهات الستة ، إلى أن تعود إليهم .. ربما كان هذا أرحم من أن تبقى معهم ، فأمها العجوز والطفل والطفلة سيثيرون عطف الجميع وإشفاقهم ، فيعاونونهم على الحياة ، دون مطمع فيها .. فى فاطمة ..

وهربت ..

هربت دون أن تبلغ أمها ..

وجاءت إلى القاهرة ..

وسكتت فاطمة برهة عن حكايتها ، وتنهدت كأنها ألقت عن صدرها بعض حمله ، ثم ابتسمت ابتسامة مسكينة كأنها ترثى نفسها .. وفى هذه اللحظة دخل واحد من أهل البيت يقدم لها القهوة .. ونظرت إليه فى دهشة ، والتفتت إلى بعينيها كأنها تسألنى رأيى ، كأن السفرجى أخطأ واعتقد أنها تستحق فنجان قهوة .. وألححت عليها أن تقبل القهوة حتى تريح أعصابها .. ومدت يدها المرتعشة والدهشة لا تزال تملأ عينيها .. إنها لا تصدق .. لا تصدق أنها يمكن أن تصادف فى حياتها كل هذا الاحترام .. فنجان قهوة ، بعد كوب العصير ، والسفرجى ينحنى أمامها ، وسيدة البيت ترحب بها .. ورأيت دمعتين صامتتين تنزلقان فوق وجنتيها .. ولم أسألها عن دموعها ، ولكنى عدت ألح عليها أن ترشف القهوة .. ولعلها لم تكن متعودة تناول القهوة ، فقد رشفت رشفة واحدة كأنها تريد أن ترتفع بنفسها إلى المستوى الاجتماعى الذى يشرب القهوة .. ثم وضعت الفنجان بجانبها ، ونظرت إلىّ شاكرة ، ثم عادت إلى حكايتها ..

لقد جاءت إلى القاهرة وليس معها سوى قرشين .. تركت كل ما كان يمكن أن تمد يدها إليه لأمها ، حتى الكردان الذهب تركته لأمها وللولد والبنت .. وكانت كل ما تعرفه عن صديقة ابنة خالتها ، أنها تقيم فى حى شبرا ، وأن زوجها اسمه محمد عبد السلام السيد ، وأنه موظف حكومة ..

فى أى مكان من الحكومة ، لا تدرى .. وربما اعتقدت أن القاهرة وأحياءها لا تختلف عن مدينتها .. مجتمع متقارب بعضه من بعض ، وتستطيع أن تسأل عن صديقتها ، أو عن عبد السلام أفندى فتصل ..

كانت المرة الأولى التى تطأ فيها بقدميها أرض القاهرة ..

وسألت عن حى شبرا ودلوها عليه ، وبدأت تسير فى الشارع العريض ، وتتوقف مع كل خطوة تسأل عن عبد السلام أفندى .. أحيانا تتلقى ردا سريعا .. وأحيانا يستوقفها من تسأله ليجرها إلى حديث طويل لا تخرج منه بشىء .. وأحيانا يكون الرد على السؤال نكتة ضاحكة :

- أنا لا أعرف عبد السلام ، أعرف عبد العزيز .. ما رأيك ..

ولا تفهم شيئا ، ولا ترد ، ولا تضحك ، وتعود تسير وتسأل .. وقد تعبت .. لم تعد خطواتها تستطيع أن تحملها .. وألقت بنفسها جالسة على الأرض بجانب جدار منزل .. إنها تغفو .. يكاد يغلبها النوم .. وانتفضت واقفة .. وعادت تسير حتى تقاوم النوم .. وقال لها ذكاؤها الفطرى إنه ربما لن تجد أحدا يستطيع أن يعرف عبد السلام فى هذا الشارع الواسع .. وبدأت تدخل الشوارع الجانبية الضيقة التى تصادفها .. وتسأل الرجال عن عبد السلام ، وتسأل النساء عن ست سعدية زوجة سى عبد السلام ..

وضاع النهار وهى بين الشوارع والحوارى ..

والليل يتسلل إلى داخلها .. كل ما فيها ظلام .. ولم تعد تسأل ، ولا تفكر ..

إنها فقط تريد أن تنام .. لم تعد تستطيع أن ترفع جفنيها .. ولا تستطيع أن تخطو . وهى لم تأكل شيئا ، ولكنها ليست جائعة .. الجوع لم يأت زمانه بعد ..

وكانت قد وجدت نفسها فى الشارع الذى يوازى النيل .. واقتربت من

السور الذى يفصل بين الشارع والشاطىء . واعتلته ، ورقدت ، ونامت ..

ولا تدرى كم نامت ، ولكنها انتفضت صاحية على يد ثقيلة تهزها بقسوة .. إنه رجل البوليس ينظر إليها ويكاد يبصق فى وجهها .

- ابحثى لك عن مكان آخر إلى أن تجدى الزبون .. ابعدى قذارتك عنى ..

وجرت من أمامه ..

وسارت على شارع النيل وهى لا تدرى أين تذهب .. ربما لم يعد أمامها إلا أن تعود إلى المهجر .. لا .. لا .. لا تستطيع أن تعود .. لا تريد .. من يدرى فقد تستطيع أن تعيش ..

ومرت بجانبها سيارة بداخلها رجلان ، ثم توقفت السيارة فجأة ، بعيدا عنها ، وعادت إليها .. وسمعت الصوت :

- نوصلك .. نحن فى الخدمة .. اتفضلى ..

ولم تكن من الغباء بحيث لا تفهم .. ولكنها تفضلت .. ركبت بجانبهم .. إنها ضائعة محتاجة والضائع المحتاج لا يستطيع إلا أن يستسلم لقدره .. وما يمكن أن يحدث لها هنا ، كان يمكن أن يحدث هناك فى المهجر .. وربما هنا أرحم لأنها لن تفضح بين أهلها وأمام أولادها ..

وكانت صامتة جامدة وهى بين الرجلين .. كل ما تحاوله أن تبقى جفنيها مرفوعتين حتى لا تستسلم للنوم .. وسمعت أحد الرجلين يقول للآخر :

- إلى صحارى سيتى ..

والآخر يرد :

- البيت خال والجيران ناموا ..

وأخذوها إلى البيت .. وهى باردة .. متجمدة .. صامتة .. لا تحس بكل ما يحدث لها .. فقط تقاوم النوم ..

ووضعوا فى يدها جنيها وأمروها أن تترك البيت .. والليل لم ينته .. وصرخت فى توسل ويدها ملتفة حول ورقة الجنيه :

– اعمل معروف يا سيدى .. دعنى حتى الصباح .. إنى أستطيع أن أكون خادمة .. أطبخ .. وأغسل .. وأمسح .. اعمل معروف . ربنا لا يشرد لك امرأة ..

وأحدهما يرد فى غلظة :

– أنت باردة .. لوح ثلج .. لا تصلحين لشىء ..

وتتوسل :

– حتى الصباح فقط ..

والآخر يقول :

– دعها تنام فى المطبخ ، وتخرج قبل أن يستيقيظ البواب ..

وتركاها تنام فى المطبخ ..

وأحد الرجلين خرج من البيت وبقى الآخر .. والمطبخ به أطباق طعام .. وهى جائعة .. تذكرت أنها لم تأكل طول النهار والليل .. ومدت يدها وأكلت .. أكلت حتى شبعت .. ثم ألقت نفسها على بلاط المطبخ ، ونامت ويدها قابضة على الجنيه .. لن تنفق منه سوى عشرة قروش .. إنه السعر الذى حددته الدولة لكل رب أسرة من مهجرى القناة ومن طبقة المعدمين .. وهى معدمة ، فلتطبق لوائح الدولة على نفسها ، وتأخذ من الجنيه عشرة قروش ، وتحتفظ بالباقى لترسله إلى أمها والبنت والولد ..

ومع الفجر استيقظت وصاحب البيت يرفصها بقدمه :

– استوليت على كل الطعام .. أين تخفينه .. وقالت وهى ترتعش :

– فى بطنى يا سيدى .. كنت جائعة ..

وصفعها على وجهها ، صفعة كلسعة الكرباج ، وطردها خارج البيت ..

ولمست مكان الصفعة بيدها دون أن تهتم أو تتأثر .. وعادت إلى شبرا .. أيضا شبرا .. من يدرى ربما التقت بسعدية صدفة .. وكانت تسأل ولكنها لم تكن تسأل عن سعدية وزوجها عبد السلام فحسب ، ولكنها بدأت أيضا تستجدى عملا .. طباخة .. غسالة .. مربية .. ولم تكن تستجديه من الرجال .. كانت تعرف نوع العمل الذى يحتاج إليه الرجال .. ولكنها كانت تستجديه ممن تقابلهن من النساء .. ولا شىء ..

والليل يقترب .. يبدو أنها ستضطر أن تذهب إلى شارع النيل كما حدث ليلة أمس .. ووقفت منهكة مستندة على جدار ، وبدأت تبكى فى صمت ، تحاول أن تغسل ضياعها بدموعها .. ووقفت أمامها امرأة شابة تسألها :

– لماذا تبكين يا امرأة ..

وأجابت فاطمة وهى ترفع عينها إليها من خلال دموعها :

– إنى أبحث عن عمل .. أى عمل .. وأبحث عن بيت يلمنى ..

وأخذت المرأة الغريبة تنظر إليها كأنها تقيسها بعينيها ، ثم قالت فى لهجة آمرة كأنها اتخذت قرارا :

– تعالى معى ..

وسارت معها فاطمة . وقد لاحظت أنها امرأة تغالى فى تبرجها ، وأن فى صوتها رنة وقحة ، وفى حديثها ما تستطيع أن تفهم منه مصيرها .. لا يهم .. على الأقل لن تبقى وحدها ضائعة فى القاهرة ..

وأخذتها « فهيمة » إلى بيتها .. حجرة ضيقة كل ما فيها ممزق .. وقالت وهى تعد لها طبق طعام وتشير لها على الركن الذى تنام فيه :

– الليلة .. ارتاحى ..

وتركتها وغابت ، ولم تعد إليها إلا فى آخر الليل ..

وكانت فاطمة قد قضت الساعات تنظف فى الحجرة ، وترتق ما هو ممزق فيها ، وتغسل ما يقع فى يدها مما يحتاج إلى غسيل .. كانت تريد أن ترد إلى فهيمة ثمن التقاطها من الشارع ..

وفرحت بها فهيمة .. وقضت يومها تحدثها عن تفاصيل العمل وأسراره .. وفى الليل خرجت معها إلى الشارع .. إنها تتعلم أين تنتظر الزبائن .. وكيف تتعامل مع رجل البوليس .. وكيف تقبض الثمن .. و .. و .. والليالى تمر ، وهى تدفع لفهيمة نصف ما تحصل عليه .. أجر سكن .. وعمولة .. وليال كثيرة تعمل كل منهما بعيدة عن الأخرى .. وفاطمة منغصة دائما .. إنها لا تطيق أن تستمر .. إنها تريد عملا .. مجرد خادمة .. حتى لو اضطرت أن تتحمل رجلا .. فالرجل الواحد أرحم من كل هذه الأصناف من الرجال التى تمر على جسدها ..

وفهيمة عاجزة عن أن تجعل من فاطمة امرأة مستسلمة للاحتراف .. ولكنها لا تغضب منها .. ولا تلومها على ترديد شكواها .. إلى أن عادت فى آخر إحدى الليالى ، وقالت لها إنها وجدت لها عملا .. مديرة بيت لإحدى العائلات العربية .. وقالت فهيمة كأنها تتولى القيادة :

– لقت قلت لهم إنك خام .. وأنك زوجة توفى زوجها منذ شهور .. إياك أن يعرفوا عنك أكثر من ذلك .. ويدفعون أربعين جنيها فى الشهر ..

وشهقت فاطمة :

– كتير يا فهيمة ..

وضحكت فهيمة من غباء فاطمة :

– يا عبيطة .. إن لم تصلى إلى مائة ومائتين ، انتحرى ..

وذهبت فاطمة إلى العائلة التى تنتمى إلى إحدى البلاد العربية .. كانت فعلا عائلة .. الزوج والزوجة والأولاد .. وبدأت تعمل .. كانت تعمل كأنها عادت إلى بيتها الذى تركته منذ شهور ولم تعد إليه كما وعدوها ، ولا يبدو أنها ستعود إليه .. بل بدأت تحس أن هذا البيت بيتها .. إن لها به حجرة خاصة .. وهى ترعى الأطفال بنفسها .. وتستقبل الضيوف وتخدمهم كأنهم ضيوفها .. وفى أيام كسبت اعتماد كل أهل البيت عليها .. بل أصبحت كأنها هى سيدة البيت .. هى التى تصحب الزوجة إلى الحوانيت وتشترى لها ، وكانت تندهش من السخاء الذى يشترون به ولكنها تعودته .. وأصبحت تعيشه .. أصبحت هى الأخرى تعيش فى سخاء .. إن مرتبها لم يعد أربعين جنيها .. إن دخلها من خدمة هذه العائلة يصل إلى أكثر .. وأكثر .. وهى لا تزال تدفع العمولة إلى فهيمة ، ولكن لا أحد من أفراد العائلة يعرف فهيمة ..

ربما كان كل ما أصبح يعذبها ، هو أنها لم تعد تستطيع أن تنسى بيتها .. إنها تسمع أنهم يتحاربون هناك .. ماذا يسمونها .. حرب الاستنزاف .. إنها لا تفهم .. ولكنها تعرف أن بيتها يعيش وسط النيران .. نيران المدفعية ونيران الطائرات .. لعل البيت تهدم .. واحترقت الملاءات البيضاء التى تركتها فيها .. والسرير النحاس الذى كانت تقضى حوله ساعات فى كل يوم ليزداد لمعانا ، ترى ماذا حدث له .. والحلل ووابور الجاز هل تستطيع أن تجمع كل ذلك من بين الأنقاض لو كان البيت قد تهدم .. وأبوها .. لقد سمعت أنه هرب من التهجير وبقى فى المدينة مصمما على أن يموت فيها .. ترى هل مات .. وزوجها .. إنها لا تريد أن تتذكره .. إنه يقززها .. لقد اعتمد على الحكومة .. على الستة جنيهات .. ولم يعد من يومها إلى أولاده .. لقد أرسلت الكثير مما يصل إليها إلى أمها .. كانت قد التقت بأحد معارفها من أهالى المدينة هنا فى القاهرة ، وأصبح هو الذى يحمل ما ترسله إلى أمها ، ويعود ليطمئنها عليها .. ومن

يدرى .. لعلها تستطيع يوما أن تستأجر شقة فى القاهرة وتدعو أمها والولد والبنت للإقامة ..

وبدأت تحس براحة كأنها جمعت كل ما ضاع وتهدم من شخصيتها ، ونظفت كل الأوساخ التى تعلقت بجسدها ..

ثم ..

سافرت الزوجة والأولاد عائدين إلى بلدهم .. وبقى الزوج .. معها وحده .. لم يعد حولها ما يحميها ، وهو بسرعة يطلب .. وهو يطلب فى بساطة كأن هذا أمر طبيعى .. يطلب جسدها .. ولم يكن يهمها هذا الجسد الذى لا يزال يحمل جروحه ، ولكن كان يهمها شخصيتها التى استعادتها ولا تريد أن تفقدها من جديد .. فأصرت على أنها امرأة خام .. لا تستطيع أن تعطى رجلا إلا إذا كان زوجها .. وضحك الرجل ساخرا .. وعاد فى المساء إلى البيت ومعه صديق وامرأتان .. واختبأت بسرعة ، داخل حجرتها بعد أن فتحت الباب .. ورفضت أن تقوم بخدمة الضيوف .. ولم تكن تغار .. ولم يكن هذا الرجل يهمها فى شىء كرجل .. ولكنها خافت أن تكون واحدة من هاتين المرأتين تعرفها .. قد تكون واحدة شاركتها فى ماضيها على أرصفة الشوارع .. ثم من يدرى .. لعل واحدة منهما تستطيع أن تقنعه بأن تكون هى مديرة البيت ..

وفى اليوم التالى حاولت أن تقنعه بالاحتفاظ بكرامة ومظهر هذا البيت الذى كان يضم زوجته وأولاده .. وقد تعود إليه زوجته وأولاده .. وهو لا يريد أن يسمع هذا الكلام .. إنه هنا ليمرح لا ليتلقى دروسا فى الأخلاق .. والمرح والمتعة يحتاجان إلى امرأة .. وعندما كانت زوجته هنا كان يمارس مرحه فى بيوت أصدقائه من أهالى بلده الذين جاءوا معه إلى القاهرة ، أما الآن فبيته يغنيه عن بيت أصدقائه ..

إنه محتاج .. فإما أن تعطيه حاجته ، وإلا يبحث عن غيرها ..

وأعطته ..

وكل ما أكرمها به هو أنه اكتفى بما تعطيه إياه ولم يدخل عليها امرأة أخرى ..

وازداد دخلها من أمواله ..

ولكنها عادت تعانى الانهيار .. انهيار الشخصية .. وتعانى مرارة الاستسلام ..

وأكثر من ذلك ..

يبدو أنه كان يتباهى بمتعته بها أمام أصدقائه .. ويبدو أن صديقا له طلبها منه .. سلفة .. فإذا به يطلب منها أن تذهب إليه .. لم يقل لها أكثر من أن هذا الصديق قد جاء أخيرا إلى القاهرة وبيته فى حاجة إلى من يعده ويرتبه له .. وفهمت .. ولم تستطع أن ترفض .. عوامل الخوف من الضياع تفرض عليها حالة الاستسلام ..

وذهبت ..

ذهبت لبضعة أيام ، ثم عادت إليه بعد أن طلبها لقد أوحشته ..

وأصبحوا يتداولونها .. ودائما تعود إليه لأنه يريدها .. يريدها حتى بعد أن عادت جامدة ، فى برودة الثلج ..

وقد قرر أخيرا أن يعود إلى بلده ، وقد وعدها أن يأخذها معه ، لتعود وتعيش بين زوجته وأولاده وتشرف على البيت .. إنه لا يستطيع أن ينكر قدرتها كمديرة بيت حتى لو استغنى عن جسدها ..

وهى تريد أن تذهب معه .. لا لأنها تريد أن تعمل مشرفة على بيت .. أى بيت فحسب .. ولكن لأنها تريد أن تضيع بعيدا عن مصر كلها .. تريد أن تحس أنها ماتت كمصرية .. وهناك لن يعرفها أحد .. لن يعرف ماذا كانت ولا كيف أصبحت ولا ماذا تريد أن تكون .. وهناك ستكون بعيدة جدا عن بيتها الذى تركته فى المدينة على شاطىء القناة ، ولا تعرف هل تهدم

أو لا يزال قائما ؟ .. بعيدة عن الولد والبنت اللذين لا تستطيع أن تعرف لهما مستقبلا .. ستتركهما للحكومة كما تركهما زوجها ..

إن شخصيتها ضاعت فى مصر ..

لعلها تجدها هناك .

* *

وانتهت فاطمة من حكايتها ، بعد أن تركت الدموع تطل من بين جفنى ، برغم أن دموعى دائما عاصية لا تستجيب لأى نداء أبدا ، ولكنها استجابت عندما رأت هزيمة ٦٧ مجسمة فى إنسان .. وأخذت أقاوم دموعى بأن أذكر نفسى بما حدث للمجتمع البريطانى بعد انسحاب الجيوش من دنكرك ، وبما حدث للمجتمع الألمانى والإيطالى واليابانى بعد الهزيمة .. إن ما حدث فى المجتمع المصرى أخف وأرحم ..

وكنت قد كتبت قصصا ومسرحيات ومقالات كثيرة عن هزيمة ٦٧ .. كانت كلها قصصا يدفعنى إليها تجسيمى للهزيمة .. هزيمة سياسية ، وهزيمة عسكرية ، وهزيمة عقلية حاكمة .. ولكن هذه القصة .. قصة فاطمة .. لم أكتبها إلا اليوم .. فقد كانت أقسى وأبشع صورة للهزيمة يمكن أن يتحملها قلمى ، ويمكن أن أضعها أمام القارىء ..

ولا أدرى أين فاطمة اليوم ..

لقد وعدتنى بعد أن زارتنى أن تتصل بى لتروى لى ما يجد فى حياتها .. ولكنها لم تتصل .. لعلها سافرت مع الإنسان العربى الذى احتواها .. ولعلها وجدت فى الاحترام الذى استقبلت به فى بيتى ما أحرجها من أن تكرر الزيارة ..

لا أدرى أين هى ..

وقد سبق أن كتبت قصة « الرصاصة لا تزال فى جيبى » وكانت تدور حول هزيمة ٦٧ ، وتنتهى عندما كان يسمى حرب الاستنزاف .. ونشرتها فى هذه الحدود .. ثم حدثت بعد أن نشرتها أحداث ٦ أكتوبر ٧٣ .. فأخذت بطل القصة نفسها وعشت معه أحداث ٦ أكتوبر ، إلى أن وصل البطل إلى شخصيته ومستقبله الجديد .. شخصية ومستقبل من يستطيع أن ينتصر ، ويستطيع أن يستكمل انتصاره .. ومن يدرى ..

لعلى بعد شهور أعود وألتقى بفاطمة ، بعد أن تكون قد عادت إلى مدينتها على شاطىء القناة وضمدت الجروح التى أصابتها بها الهزيمة ..

وبعدها .. قد أعود وأكتب مستكملا هذه القصة .

محاولة إنقاذ جرحى الثورة

إنه حتى فى شبابه – لم يتعود التردد على الحانات .. والآن وبعد أن أصبح شخصية معروفة لها مركزها الخاص ، لا يمكن أن يخطر على باله أن يضع نفسه في حانة ، خصوصا إذا كان فى زيارة لبيروت .. إن بيروت مدينة صغيرة ، أشبه بزنزانة سجن عالمى ، لها نوافذ عالية يطل العالم كله منها ومن وراء قضبان .. قضبان نوافذ السجن .. وأى حركة له داخل بيروت سيراها العالم كله ، وأى كلمة يرددها ستصل إلى أسماع العالم كله .. فلا يمكن أن يجازف بنفسه ويدخل إلى حانة ، وإلا أوقع نفسه فى فضيحة ، يمكن أن تتحول بمنطق بيروت ، ومن خلال ألسنة بيروت ، إلى فضيحة سياسية ..

ولكنهم أبلغوه أنها تعمل خادمة أو ساقية فى حانة .

هى ..

نعمت البلتاجونى .. لا يمكن .. إن كثيرات من النساء المحترفات اللاتى يضعن أنفسهن فى خدمة السواح العرب ، أو يعملن فى بيروت ، يدعين لأنفسهن أسماء الأسر المصرية الكبيرة العريقة ، كما يدعين أنهن من طالبات الجامعة ، لمجرد أن يشعر السائح أو الغريب بأنه حصل على امرأة ثمينة فيدفع أكثر ، ولا شك أن واحدة من هاتيك المحترفات قد أدعت لنفسها اسم نعمت البلتاجونى ..

ولكنهم يؤكدون له أنها هى نفسها نعمت البلتاجونى .. وقد رأوها بأعينهم تعمل ساقية فى الحانة .. نعمت .. لقد عاشت فى خياله منذ أن كان شابا ثوريا يحاول أن يقلب ويهدم كل شىء فى مصر .. وكان عندما لا يكون فى السجن الذى دخله وخرج منه عشرات المرات بحكم نشاطه

الثورى العنيف ، وعندما كان يفرغ من اجتماعات المنظمات السياسية التى لم تكن تنتهى .. كان يتسلل إلى نادى الجزيرة الذى لم يكن عضوا فيه ، ولا كان من حقه أن يدخله ، ليقف بعيدا بين الأشجار ويملأ عينيه برؤية نعمت ..

كانت نعمت أيامها فى السادسة أو السابعة عشرة من عمرها .. جميلة ، تحمل فى جمالها كل ما تستطيع أموال العالم أن تشتريه لرعاية وإبراز الجمال .. وكان أبرز ما يميز شخصيتها برغم صغر سنها ، هو أرستقراطيتها المتعالية التى ترتفع بها فوق رؤوس كل الناس .. هى وحدها فوق وكل الناس تحت ، وتعاملهم متعمدة أن تبقيهم دائما تحت .. إنها تبدو كأنها ملكة .. وهى لم تكن من العائلة المالكة ، وليست من سلالة محمد على .. إنها مصرية خالصة تمتد كل جذورها فى داخل أرض مصر .. ولكن ما هو الملك .. ؟ إنه ليس العرش الذى يجلس عليه أى فرد ليصبح ملكا ، ولكنه ما تملك .. ونعمت كانت ابنة عائلة تملك أكثر من عشرة آلاف فدان من أرض مصر .. تضم عشرات القرى ، والبنادر ، وقطار السكة الحديدية يقف على أكثر من محطة داخل أرض نعمت .. إن ما تملكه نعمت اكبر وأوسع مما تملكه إمارة موناكو .. وهى تحكم كل ما تملكه .. تحكم الأرض ، وتحكم الناس الذين يعيشون فوق الأرض ، وأبوها يستطيع أن يصدر أحكاما على أى فرد وهو جالس فى قصره .. يستطيع أن يحكم بالإعدام أو السجن ، أو النفى خارج أرضه .. ولو أنه هو شخصيا قام بإحدى عملياته الثورية داخل أرض البلتاجونى ، وقبض عليه ، لقدم إلى الباشا ، والد نعمت ، ليصدر حكمه عليه .. وربما أصدر حكما أقسى من أى حكم يمكن أن تصدره محكمة رسمية من محاكم القاهرة ، بل ربما لو كانت نعمت جالسة بجانب أبيها وهو يصدر حكمه ، لاضافت مزيدا من القسوة ، ووصلت بإحساسها بأن كل الناس تحت ، إلى حد أن تضعه تحت الأرض .. فى قبر ..

وبرغم ذلك – وبرغم شبابه الثورى – ظل خياله متعلقا بنعمت ، وبقى يتسلل بين أشجار نادى الجزيرة ليراها من بعيد .. ربما كان يحس بها كقطعة فنية ، كأنها لوحة جميلة من اللوحات المرسومة بين آثار الفراعنة .. وهو لا يؤمن بنظام الحكم الفرعونى ولا بالمجتمع المصرى الذى كان قائما أيام الفراعنة ، ولكنه لا شك يحس بجمال الفراعنة والفن الفرعونى .. وهو يدعو اليوم للقضاء على نظام الحكم القائم وعلى المجتمع الذى تعيشه نعمت ، ولكن هذا لا يتعارض مع تعلق خياله بنعمت .. وربما لو قامت الثورة وقضت فعلا على هذا المجتمع ، فإنه سيطالب بالاحتفاظ بنعمت كقطعة فنية تستحق الرعاية والاهتمام كأثر تاريخى ..

وربما كان هناك سبب آخر لتعلق خياله بنعمت ، وهو تعاليها ، الذى تبدو به كفتاة صعبة لا يمكن الوصول إليها .. وهو الجمال المتعالى المترفع .. يحب الصعب .. إن أى شىء سهل لا يمكن أن يجذبه أو يحركه .. ولكن الذى يحركه هو الصعب .. إن الثائر هو الذى يختار الصعب .. وهو ثائر ، ونعمت فتاة صعبة ..

وتحققت الثورة ..

وأصبحت الثورة هى التى تملك وهى التى تحكم ..

ومنذ الأيام الأولى للثورة فتحت أبواب نادى الجزيرة للشخصيات الثورية المعروفة ، ولكل من عرف أنه ينتمى للثورة ، دون أن يصدر بذلك أى قرار ، دون أى تعمد من الثوار ، وفوجىء بكثيرين من أعضاء النادى يتقربون إليه بعد أن كان يتجاهله من يعرفه منهم ، ومن لم يكن يعرفه يتأفف من أن يعرفه .. بل إنه فوجىء بناد آخر كان أكثر تعاليا وأرستقراطية من نادى الجزيرة ، وكان رئيسه أحد أمراء العائلة المالكة ، وهو نادى السيارات ، فوجىء به يرسل إليه بطاقة عضوية شرفية تكريما لجهاده الوطنى ، والبطاقة تحمل توقيع الأمير !!

وبدأ يقبل الدعوات إلى نادى الجزيرة ، ويستقبلونه هناك بترحاب ، ويبذلون جهدا متعمدا لينقلوه إلى مستواهم ، ووجد نفسه يجلس بين الأمراء ، والباشوات والبكوات ، وزوجات وبنات الأمراء والباشوات والبكوات .. وكل منهم ومنهن يعطى له ويطلب منه .. وهو بين العطاء والطلب لا يحاول ولا يريد أن ينتقل إلى هذا المستوى .. أنه أن يكون يوما « أميرا » ولا « باشا » ولا « بك » ، وهو يعلم أنه لم تبق إلا أيام وينتهى كل هذا .. كل هذا المجتمع .. ولكنه يدور بعينه بحثا عن نعمت .. وقد يرى من بعيد أحد زملائه فى الجهاد الثورى ، وهو مختل تحت إحدى الأشجار بأميرة شابة من أميرات عائلة فاروق .. وقد يرى زميلا آخر وهو يصحب ابنة باشا من الباشوات ويبحث عن مكان فى أرض الجولف يختبىء بها فيه .. فيضحك فى صدره .. سبحان مغير الأحوال .. أحوال الناس ، وأحوال المجتمعات .. من كان يتصور أن فتحى بن عبد الله أفندى الموظف بوزارة الأوقاف ، يمكن أن يمد يده ويشد شعر الأميرة خديجة مداعبا ، فتضحك الأميرة ، وتعطيه مزيدا من شعرها ليشد أكثر ..

ويعود يدور بعينيه بحثا عن نعمت .. وكانت نعمت آخر من ظهر من بنات النادى بعد الثورة .. جاءت متعالية مترفعة كما يرسمها له خياله ، وفى صحبة بعض الصديقات والأصدقاء ، وجلسوا إلى مائدة فى شرفة « الليدو » المطل على حمام السباحة .. ولاحظ وهو يرقبها من بعيد أنها أقل صديقاتها كلاما ، وأن ضحكتها عندما تضحك ، ضحكة خافتة كأنها همسة ، وأن نظرات عينيها منطلقة لا تركزها على أحد ، كأن لا أحد يستحق منها مجرد نظـرة ..

وقامت وحدها من جلستها واتجهت إلى الجناح المخصص للنساء لتغيير ملابسهن بالملابس الرياضية ، وانتظر قليلا ثم قام ودار حول المبنى إلى أن رآها خارجة من الجناح وهى مرتدية زى ركوب الخيل ، وفى انتظارها يقف رجلان لعل أحدهما مدربها والآخر مدرب الخيل .. وسارت

تتقدمهما كأنها الملكة ، والاثنان من رجال الحاشية .. وتتبعها إلى أن بدأت الركوب .. إن الحصان نفسه يقف أمامها مستسلما فى أدب كأنه هو الآخر من الحاشية . وتعلم قواعد البروتوكول ..

وتعلق بالسور الذى يحيط بساحة ركوب الخيل ، وعيناه منطلقتان وراءها متعلقتان بها كأنه يمتع نفسه بلوحة فنية معلقة فى متحف الثورة ..

ورآها فى النادى مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة .. وهى لا تحاول أبدا أن تستقبل على مائدتها غرباء عنها ، ولا تحاول أن تتقرب إلى أفراد الطبقة الجديدة التى دخلت النادى كما كان يفعل باقى أعضاء النادى .. بل إن زميلا له .. زميلا فى الجهاد .. حاول أن يفرض نفسه على مائدتها ، فتقدم وصافح صديقا لها كان يعرفه وكان جالسا معها ، ثم جلس بجانبه ، وبمجرد أن جلس ، قامت واقفة وابتعدت ..

وكان يلتقى فى النادى بأحد أبناء الباشوات الذين يتعمدون التقرب إليه ، فبدأ يسأله عن نعمت ، متظاهرا بعدم الاهتمام ، وبعد أن تكرر سؤاله ، قال له ابن الباشا :

– دعك منها .. إنها لا تطاق ..

لكنه استمر يسأل ويستفسر عنها حتى جازف ابن الباشا وصحبه إلى مائدتها بعد أن تظاهر أنه أخذه ليقدمه لإحدى صديقاتها ، وليس لها .. وجلس معها على مائدة واحدة .. وربما خيل إليه أنها تهتم بالاستماع إلى كل ما يقوله ، ثم لاحظ أنها مالت على ابن الباشا وهمست فى أذنه ، ثم اعتدلت ، وقد اشتدت نزعة التعالى فى نظرتها ، وقامت بعد قليل وابتعدت ..

وسأل صديقه ابن الباشا :

– بماذا همست إليك ..

وقال ابن الباشا :

– كانت تسألنى عن اسم أسرتك ..

قال :

– وبماذا أجبتها ..

قال ابن الباشا :

– قلت أن ليس لعائلتك اسم أعرفه ..

وابتسم .. ولم يهتز إحساسه وهو يعرف أنها ابتعدت عنه وهو جالس إلى مائدتها لمجرد أنها اكتشفت أنه ليس من أولاد العائلات الكبيرة .. أن نفرتيتى لا يمكن أن يلومها أحد إذا غضبت وهى ترى نفسها معلقة على جدار المعبد ، ويمر بها ، ويبحلق فيها ، كل هؤلاء الذين لا ينتسبون إلى الآلهة ..

وتكررت الجلسات التى جمعته معها على مائدة واحدة ..

وربما كان مما اكتشفه ، أن نعمت ترى الثورة كأنها مجرد تغيير وزارى ، ما دام النظام الملكى لا يزال قائما ، ولا تزال تملك الأرض .. ولا تزال ملكة .. وربما تمنى لو استطاع أن ينقلها إلى حقيقة الثورة ، حتى تعيش الواقع أو على الأقل تستعد له .. وربما كانت أمنيته تصل إلى حد يستطيع معه أن ينقلها فعلا ليعلقها كلوحة فنية فى متحف الثورة .. ولكنها لم تمنحه الفرصة أبدا ليقنعها ، وظلت تعيش فى تعاليها لا تريد أن تفيق ..

إلى أن حدث كل شىء ..

واستولت الثورة على كل ما تملكه ، وفرضت الحراسة على كل عائلتها ، وحددت إقامتها فى شقة من إحدى العمارات التى كانت تملكها .. وصرف لأبيها معاش أو إعانة لا تزيد على ستين جنيها فى الشهر .. وهى .. نعمت كانت الإعانة التى خصصت لها عشرين جنيها ..

ولم تعد نعمت تظهر فى النادى . ولا فى أى مكان آخر ..

وهو نفسه كان قد انقطع عن النادى .. شغلته الأحداث حتى عن خياله الذى تعيش فيه نعمت .. إلى أن مرت شهور ، وبدأ يسأل عنها من جديد .. ان أباها لم يتحمل الصدمة ومات .. البلتاجونى باشا مات دون أن يحس بموته أحد ، ربما لأن عائلته لم تعد تملك تكاليف نشر إعلان فى صفحة الوفيات بجريدة « الأهرام » ، وربما لأنه لم يعد له وجود فى تقدير الناس منذ قامت الثورة ، فلم يعد له حق الحياة ولا حق الموت .. وهى .. نعمت .. إنها ليست فى أى مكان .. اختفت هى الأخرى .. ثم عرف أنها سافرت إلى الخارج .. لا يدرى إلى أين .. ولكنها سافرت ولن تعود .. ولم يحاول أن يعرف كيف استطاعت أن تسافر رغم أن السفر إلى الخارج كان محرما على أفراد هذه الطبقة ، واكتفى بأن ابتسم ابتسامة حسرة على ضياع اللوحة الفنية التى كان يتمنى أن يعلقها على حائط متحف الثورة ..

وقد مرت عشر سنوات منذ اختفت نعمت من القاهرة ، وهو الآن فى بيروت يسمع أنها تعمل ساقية فى حانة - أو « بارميد » - كما يسمون ساقية الحانة ..

وحاول أن يخفف عن نفسه وقع الخبر الذى سمعه .. إن كثيرا من القطع الفنية التى تحكى تاريخ ما قبل الثورة ، قد سرقت وبيعت فى عواصم العالم .. وهو يمر فى شوارع بيروت فيرى خلف نوافذ بعض الحوانيت تحفا يعلم أنها أخذت من قصور العائلة المالكة ، ومن قصور العائلات التى كانت تملك أرض مصر .. قطعا من الأثاث النادر الثمين ، ومن النجف ، ومن « البيبلو » ، ومن الأدوات الذهبية والفضية ، بل وأيضا من المجوهرات .. ولكن هذه القطع تباع هنا بثمن غال ، وتوضع فى بيوت محترمة ، وكل من يشتريها يتفاخر بأنه اشترى قطعة من تاريخ مصر ، كما يتباهى بأنه اشترى قطعة من تاريخ فرنسا التى كانت تزين قصور

ملوكها قبل الثورة الفرنسية .. أما أن تسرق نعمت وتباع بالثمن الرخيص وتوضع خادمة فى حانة ، وهى قطعة من تاريخ مصر ، فهذا ما يحز فى نفسه ، وما يجعله يسخط على البائع والمشترى ، بل يحس بأنه خدش فى شعوره الوطنى ..

وتذكر أنه عندما عرضت مخلفات الملك فاروق لبيعها فى مزاد علنى عالمى ، كان من بين المعروضات نظارة بحرية مكبرة ، موضوعة فى علبة من القطيفة .. وكان كل تقديرها بين أفراد اللجنة التى تتولى البيع ، أنها مجرد نظارة معظمة ربما كان فاروق يلهو بها فى طفولته .. وتقدم أحد المشترين ، وأخذها بعد أن دفع ثمنا لها عشرة جنيهات استرلينيه ، وبعد أن خرج من قاعة المزاد مباشرة عرض على المشترى أن يبيعها بخمسين ألف جنيه استرلينى ، ولكنه رفض ، وحملها معه إلى لندن وعرضها هناك حيث بيعت بمائة ألف جنيه استرلينى .. لا لأنها النظارة التى كان يلهو بها فاروق فى صغره ، ولكن لأنها نظارة قائد الأسطول البريطانى نيلسون ، والتى كان يستعملها أثناء هجومه على أسطول نابليون فى معركة أبى قير البحرية .. بيعت كتحفة تاريخية كما تباع تحف قدماء المصريين .. وكان الخطأ الذى وقعت فيه اللجنة التى أشرفت على المزاد ، أنه لم يخطر على بال أحد من أفرادها أن يقرأ السطور التى كانت مسجلة داخل العلبة التى تضم النظارة ، ربما لأنها كانت سطورا مكتوبة بالانجليزية .. ومن يدرى ربما كان من باع نعمت أيضا لا يعلم قيمتها التاريخية .. لم يقرأ السطور التى تسجل أنها ابنة البلتاجونى باشا الذى كان يحكم عشرة آلاف فدان من أرض مصر .. وحتى الذى اشترى نعمت أيضا لم يقدر قيمتها فوضعها ساقية فى حانة ..

كل ذلك يتردد فى فكره وهو يقاوم إحساسه الذى يلح عليه بأن يذهب بنفسه إلى الحانة ليرى نعمت بعد أن أصبحت ساقية .. خادمة ..

ولا يدرى سر إلحاح هذا الإحساس عليه .. هل هو فعلا يريد إنقاذ

قطعة فنية تاريخية كما يقول لنفسه ، أم أنه يريد أن يشبع شهوة الشماتة فى الماضى القريب ، بأن يذهب ليجلس فى مكان السيد لتخدمه الفتاة التى كانت تفرض نفسها عليه كملكة ..

ولم يستطع أن يستمر فى المقاومة ..

وضع على نفسه ملابس عادية .. مجرد بنطلون وقميص سبور .. ليخفى صفته الرسمية ، ثم وضع على عينيه نظارات سوداء ثقيلة واسعة ، وذهب إلى الحانة ..

إنها حانة عادية ، فى حى رخيص من أحياء بيروت ..

ورآها واقفة خلف « البار » ومن ورائها حائط مغطى بزجاجات الخمر ..

إنها هى ..

نعمت ..

رغم كل شىء فهى نعمت .. إن وجهها قد امتصته صفرة الضياع ، وعينيها اللتين عرفهما متعاليتين ، قد امتلأتا بنظرات جريئة متحدية كأنها فى حالة دائمة للدفاع عن النفس ، وضحكتها التى كانت خافتة كأنها همسة تنطلق صارخة وقحة ، وقد رفع عودها حتى تبدو كأنها بلا لحم ، مجرد هيكل من العظم .

وتقدم نحوها ، وجلس على المقعد الذى يواجهها وبحلقت فيه برهة .. لقد عرفته ..

رغم ملابسه العادية ، ونظارته السوداء ، عرفته .. ولوت شفتيها كأنها تهم أن تبصق فى وجهه ، ثم ابتعدت بسرعة عن مكانها خلف مائدة البار ، واستبدلت مكانها مع زميلتها التى تعمل معها ، ووقفت فى الناحية الأخرى من المائدة ..

وجاءت زميلتها تبيع له ابتسامة مرسومة وتسأله عما يريد .. ولم يرد عليها .. قام وانتقل إلى حيث تقف نعمت ..

ونظرت إليه نعمت فى غيظ وحقد ، ثم تظاهرت بأنها تخدم زبونا آخر ، وعادت واستبدلت مكانها مع زميلتها ، التى جاءت إليه تقول وهى تميل بصدرها على مائدة البار كأنها تعرض عليه بضاعتها :

– فى خدمتك ..

وقال فى صوت خافت :

– ألا أستطيع أن أحادث زميلتك ..

قالت وهى تمد يدها وتمسح على يده لتغريه أكثر :

– إنها فى خدمة آخرين كما ترى ..

وصاحب الحانة يرقب كل ما يجرى ، ثم قام واتجه إليه ، وصافحه فى حرارة ثم صاح فى مرح مفتعل :

– نعمت .. قدمى كأسا للأستاذ .. لقد شرفنا ..

ولمح صاحب الحانة وهو ينظر إلى نعمت من بعيد نظرة آمرة قاسية كأنه يهددها ، وجاءت نعمت مستسلمة وقدمت له الكأس ، وهى تكاد تلقى بها فى وجهه ، وقالت وهى تدارى ثورتها عن صاحب الحانة :

– طبعا ليست هذه زيارة صدفة ..

قال فى هدوء :

– لا .. جئت بعد أن عرفت إنك هنا ..

قالت وهى تضغط على أسنانها حتى لا تقذفه بصراخها :

– جئت شامتا ..

قال :

– ليس هنا ما يثير الشماتة ، ولكن ..

وقاطعته قائلة :

– أعرف ما ستقول .. ستنصحنى بأن أخرج من هنا .. كل الزبائن المصريين ينصحوننى .. وكلهم يعدوننى بحياة أخرى .. وكلهم سكارى يقضون ليلة خمر ..

قال :

– هل أستطيع أن أجلس معك إلى إحدى موائد الحانة بدلا من هذه الوقفة ..

قالت ساخرة :

– إن هذه الوقفة تكلفك ثمن كؤوس الخمر التى تطلبها ، أما لو جلست معك إلى مائدة فهذا يكلفك ثمن زجاجة كاملة ..

قال :

– مستعد ..

قالت :

– أعرف أنك مستعد ، لأنك ستدفع من المال الذى سرقتموه منا ..

قال :

– لننتقل إلى مائدة أولا ، ثم نتناقش ..

ونظرت إلى صاحب الحانة كأنها تتفاهم معه بعينها ، ثم نظرت إلى زميلتها ، كأنها تبلغها ما تم عليه الاتفاق ، ثم تحركت وخرجت من وراء « البار » واتجهت إلى مائدة وجلست إليها .. وجلس أمامها .. وخياله يجرى به إلى أيام نادى الجزيرة عندما كان الجلوس إلى مائدتها يعتبر مجرد أمنية .. عندما كانت متعالية .. متعففة .. تجلس فوق ، وكل الناس تحت .. إن هذه الذكريات تمزق خياله كأنها تمزق قلبه ..

وبمجرد أن جلست طلبت زجاجة شمبانيا ، وهى تقول ضاحكة فى شماتة :

– هذه ثمانون ليرة ..

وما كادت تفرغ رشفة من الزجاجة ، حتى طلبت زجاجة ثانية وثالثة وهو مستسلم فى هدوء ، ويتحدث .. يتحدث كثيرا .. وهى تستمع .. تقاطعه أحيانا بكلمة ساخرة ، ثم تعود وتستمع دون أن يبدو عليها أنها تقتنع .. إن عملها فى هذه الحانة هو أن تستمع لا أن تقتنع .. وهو يذكرها بمجد عائلتها ، ويحاول أن يقنعها بأنها تستطيع أن تعود إلى مصر وتعيش هناك محترمة ، سعيدة ، حتى ولو لم تعد ملكة .. ثم قال فى حدة بعد أن يئس من أن يثير اهتمامها بأى كلمة يقولها :

– اسمعى .. حتى إذا كنت قد احترفت بيع نفسك ، فإنك فى مصر تستطيعين أن تبيعى نفسك بثمن أعلى بكثير .. إنك فى مصر معروفة بأنك ابنة الباشا حتى لو كان باشا سابقا .. أما هنا فأنت فتاة ليس لها أصل ، ولذلك لا يمكن أن يتعدى ثمن أى بنت من بنات الشوارع ..

قالت ساخرة :

– تريد أن تخدمنى .. شكرا لك ..

قال ساخطا :

– لا أريد أن أخدمك ، أريد أن أدارى فضيحة .. إن الفضائح الداخلية أخف من الفضائح المكشوفة .. وإذا بليتم فاستتروا ..

ونظرت إليه كأنها حائرة فيه ، ثم قالت فى هدوء :

– إن كل ما قلته سبق أن سمعته من عشرات غيرك .. أتريد أن تعرف لماذا لن أعود إلى مصر .. لنفس السبب الذى تريدنى أن أعود من أجله .. لأنى ابنة البلتاجونى باشا .. وهذا ما أريد أن أنساه .. أريد أن أنسى ماذا

كنت ، حتى أستطيع أن أعيش فيما أنا فيه .. لا أريد أن أعود شحاذة فى نفس البلد الذى كنت فيه ملكة .. إنى لا أحس هنا بأن هناك من يصفعنى ، ولكنى أحس بأنى أبيع وأشترى ، حتى لو كنت أبيع نفسى ، ولكنى لو عدت إلى مصر فكل من أراه سيكون صفعة لى بمجرد رؤيته .. الرجال الذين كانون يحنون رؤوسهم لى ، سأحنى أنا رأسى لهم .. والنساء اللاتى كن يسعين فى ركابى سأسعى أنا إلى ركابهن .. سيكون أغلى ما أطلبه من الناس هو الشفقة والرثاء على حالى ، لا الاحترام .. لا احترام الماضى ولا احترام ما أنا فيه .. وانت .. إن جلستى معك تعذبنى ، حتى لو كلفتك آلاف الليرات ، لأنك تذكرنى بما كان لى وبما كنت عليه .. وتذكرنى بأنى أصبحت أجيرة مضطرة إلى الجلوس معك .. أما الغريب فلا يثير فىّ كل هذا العذاب ..

قال وكأنه يتحدث بلغة لا تفهمها :

– إن الثورات مهما تعمدت القضاء على الماضى ، لا تقضى على الإنسانية .. وأنت قبل الثورة وبعد الثورة إنسانة .. والثورة مسئولة عنك كإنسانة .. عودى إلى بلدك .. دارى فضيحتك ..

قالت :

– إنها ليست فضيحتى .. إنها فضيحة ثورتكم .. وأنت تريد أن تدارى فضيحتك لا فضيحتى .. دعنى أتمتع بأن أفضحكم حتى لو كنت أنا الضحية ..

ونظر إليها طويلا كأنه اكتشف سرها ، ثم قال فى لهجة عالم من العلماء توصل إلى سر الكون :

– فهمت الآن لماذا اخترت هذه الحياة .. لمجرد أن تحسى بأنك ضحية .. شهيدة .. وهبت نفسك فداء لعائلتك .. وللوطن .. وللقدر .. إن هناك نوعا من الناس لا يطيقون الحياة إلا إذا كان لهم ضحايا أو كانوا هم أنفسهم ضحايا ..

قالت :

– لا أفهمك .. ولكن تكلم .. إن من حقك أن تتكلم ما دمت تدفع ثمن زجاجات الشمبانيا ..

قال :

– تعبت من الكلام ، وتعبت من دفع الثمن .. تعالى أعود بك إلى بيتك ..

قالت ضاحكة فى سخرية :

– هذا ما كنت أنتظره .. أن تطلب منى أن أذهب معك .. طبعا لأنى مشكلة وطنية تريد أن تحلها وتنقذها ، لا لأى شىء آخر ..

قال :

– هذا صحيح ..

قالت فى شماتة مُرة :

– إنك تضحكنى .. تعتبرنى من الغباء والسذاجة إلى هذا الحد .. آسفة .. إنى أعرف ما تريد .. مجرد شىء آخر لم تأخذه منى بعد كما أخذت من قبل كل ما أملكه .. أنت وثورتك .. وللأسف أنى لا أستطيع أن أستسلم إلا لصاحب الحانة ، وثورتك لا تستطيع أن تأخذنى من صاحب الحانة .. إنه أقوى من الثورة ..

وانتفض واقفا ، ودفع حساب الحانة دون مراجعة ، وانصرف ساخطا ..

لقد أخطأ ..

كان يجب أن يقدر أنه لا أمل .. كان يجب أن يعدل عن اعتبار نفسه مندوب الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر لإنقاذ جرحى الثورة .. إن جراح الثورات أعمق وأقسى من جراح الحروب .. إنها جراح تنزف بالحقد

والغيظ وشهوة الانتقام .. ولا علاج لها .. لن يستطيع إرضاء نعمت إلا إذا وقف أمامها وانتحر ، حتى تحس أنها أخذت روحه نظير ما أخذته الثورة منها ..

وقرر أن يهمل موضوع نعمت ، وينسى مسئوليات الهلال الأحمر والصليب الأحمر ..

ولكن ..

بعد يومين فوجىء بها تحادثه بالتليفون .. عرفت مكانه وتريد أن تراه .. واعتذر أن يذهب إليها فى الحانة ، وقبلت أن تأتى إليه حيث يقيم ..

وازداد انقباض صدره وهو يراها فى النهار .. إن وجهها أكثر اصفرارا عما رآه بالليل ، وعينيها تبدوان كأنهما كأسان من كؤوس الحانة تحيط بهما الشروخ ، وعظامها أكثر بروزا ..

وبسرعة وصراحة قالت إنها جاءته لأنها فى حاجة إلى نقود ، وما دام يعتبرها قضية وطنية فلابد أن يدفع لها ..

وقال لها إنه لن يدفع لها إذا اعتبرته أحد زبائنها ، أو زبائن الحانة ، لأنه لا يريد منها شيئا ، وتستطيع أن تجد زبونا آخر ، ولكنه يدفع لها لو اطمأن إلى تحقيق أهداف القضية التى تمثلها ، والأهداف هى أن تترك الحانة وتعود إلى مصر ، على الأقل لتدخل مستشفى وتعالج هناك ، وهو يراها كأنها تموت ..

قالت فى ضعف :

لا أستطيع أن أترك الحانة ، ولا أن أترك بيروت .. إنه يقتلنى ..

قال فى دهشة :

من ؟

قالت ودموعها تسيل من عينيها المشروختين :

- إليـاس ..

وبدأ من خلال كلماتها المتقطعة يجمع قصتها كلها ..

لقد تركت مصر بعد أن صودرت أموال عائلتها ومات أبوها ، واستطاعت أن تسافر إلى إيطاليا ، لأن « فاروق » كان قد سافر إلى هناك ، وصورت لها سذاجتها أن كل الطبقة الأرستقراطية يجب أن تلحق بفاروق .. ولم تكن تعرف « فاروق » ولا أحدا من عائلته ، ولكنه غباؤها الذى دفعها إلى هذا التصور .. كأنها ستجد هناك الأرض التى فقدتها والخدم الذين كانوا يقومون على خدمتها ، والحصان الذى كانت تركبه .. ولم يكن معها مال ، فقط بضع قطع من الماس كانت قد أخفتها واستطاعت أن تهرب بها ..

ووجدت نفسها تائهة فى روما .. وكلما سمعت عن مصرى أرستقراطى يقيم هناك ، تحاول الاتصال به ، فيهرب منها ، أو يلتقى بها ليلة ثم يهرب .. والمال الذى جمعته من بيع قطع الماس يذوب .. واضطرت أن تنتقل من الفندق الأرستقراطى إلى فندق أقل أرستقراطية ، ثم إلى فندق أقل .. إلى أن ألتقت بكارلو .. إنه إيطالى كان يعمل فى مصر فى خدمة العائلة المالكة .. وهو لا يزال فى إيطاليا يقوم بخدمة نزوات فاروق .. وهو يعرفها .. ويعرف ما كانت عليه عائلتها .. وأخذها كلها .. واستسلمت له بكلها استسلام الخوف من الضياع .. وبدأ إحساسها بأنها ضحية يتسلل إلى نفسها .. وكان إحساسا يريحها ويجعلها تستسلم أكثر لكارلو .. وكارلو بدأ يتاجر بها .. وقد حاولت أن تقاوم .. حاولت كثيرا .. ولكن كان عليها أن تختار بين الضياع فى روما أو الاستسلام لكارلو .. واستسلمت .. وكان زبائن كارلو معظمهم من السواح العرب .. وكان يشترط عليها أن تبدو متعالية فى منتهى التعالى ، أرستقراطية فى منتهى الأرستقراطية .. كان يشترط عليها أن تبدو بكل عظمة عائلتها ويقدمها باسم عائلتها .. وهو يساوم عليها .. ويقبض الثمن نيابة عنها ..

وثارت .. لم تعد تحتمل .. ولم يكن ما يثيرها هو أن كارلو يدفعها بجسدها إلى الرجال .. لم يعد هذا هو ما يثيرها ، فقد تعودته .. ولكن ما يثيرها أن تعطى نفسها باسم عائلتها .. الرجال لا يأخذونها ولا يتمتعون بها ، ولكنهم يأخذون ماضيها ، ويتمتعون باسم عائلتها ، ويدفعون الثمن الغالى كأنهم يشترون تحفة أثرية ..

إلى أن التقت صدفة برجل إنجليزى فى مقهى على أحد أرصفة روما .. إنه طبيب أسنان .. وهو لا يعرف شيئا عن ماضيها ولا عن عائلتها ، ولا يبدو أنه يهمه أن يعرف .. ولكنه يرتبط بها بسرعة ، ويعرض عليها أن تأتى معه إلى لندن وتعمل فى عيادته كممرضة ..

إنها تستطيع أن تبدأ معه حياة كاملة جديدة .. أن تنسى الماضى وتعيش المستقبل ..

وهربت من كارلو وسافرت إلى طبيب الأسنان فى لندن ..

وبدأت تعمل معه ممرضة فى النهار ، وجسدا تلقيه بجانبه بالليل .. ولكن .. إنها لم تفلح كممرضة ، والرجل بعد شهور ضاق بجسدها .. وفى أدب إنجليزى بارد طردها ، ودفع لها ما يكفيها إلى أن تجد زبونا آخر .. ولكنها لا تريد أن تبحث عن زبون .. عن رجل .. تريد أن تحتفظ بشخصيتها كاملة مستقلة ، حتى لا تعانى ما عانته مع كارلو ، أو مع الطبيب الإنجليزى .. وتريد أن تتحرر من إحساسها بأنها ابنة البلتاجونى باشا ، وتعيش كفتاة عادية تطرق أبواب الرزق النظيف .. ولكنها فى الوقت نفسه لا تستطيع أن تتخلص من إحساسها بأنها ضحية .. شهيدة .. إنها عقدة نفسية لا تعيش إلا إذا استجابت لها .. وحاولت أن تعمل بائعة فى المحال التجارية .. وحاولت أن تعمل فى بعض المكاتب .. وكانت تتعمد أن تبتعد عن المصريين الذين تزدحم بهم لندن ، حتى لا يثيروا فيها إحساسها بأصلها وباسم عائلتها .. وانتهت إلى العمل فى الحانات .. وكانت ترتاح وهى تعمل

فى حانة ، لأنها تشبع عقدتها النفسية بأنها ضحية .. شهيدة .. إنها شهيدة وهى تقف تملأ كؤوس الرجال .. وهى شهيدة وهى تعطى نفسها لرجل مخمور يبصق خمره فى جوفها .. شهيدة لا تملك إلا الاستسلام .. وترتاح لأنها تجد ما يبرر استسلامها .

إلى أن دخل حياتها إلياس .. التقطها من إحدى الحانات التى كانت تعمل بها فى لندن .. ولا تدرى ما الذى ربطها به .. ربما لأنه كان قاسيا ، عنيفا ، بشعا ، جشعا ، سافلا ، قذرا .. لقد ضربها فى أول ليلة قضتها معه لمجرد أنها حاولت أن تعامله كامرأة عزيزة مدللة من أصل عريق ، وتركها فى الصباح بعد أن استولى على كل ما كان معها من نقود .. ثم فرض نفسه على كل لياليها .. واستسلمت له .. لأنه أعطاها المزيد مما يشعرها بأنها ضحية .. شهيدة .. فترتاح عقدتها النفسية .. ترتاح وهو يضربها ، وترتاح وهو يستولى على كل ما تحصل عليه ثمنا لجسدها .. إلى أن أخذها معه إلى بيروت ، وبدأ يبيعها هناك للحانات ، وينتظرها على باب الحانة كل ليلة ليستولى على ما تخرج به من نقود ، ثم يصحبها ليبيع جسدها لزبائنه وينتظر أيضا ليستولى على ما تخرج به من أجر ..

وقالت وهى تروى له قصتها :

- لقد نسيت مصر .. نسيت أننى ابنة البلتاجونى .. نسيت كل شىء ..

وقال وهو يحيطها بنظرة إشفاق :

- لا .. لو كنت قد نسيت لما وصلت إلى هذا الحال .. لاستطعت أن تكونى فتاة عادية مرتاحة هادئة كملايين الفتيات . ولأنك لم تنسى فإنك أدمنت السعى وراء المصائب ، كما يدمن التعيس الخمر حتى ينسى تعاسته .

قالت فى استجداء :

– أعطنى أى شىء .. ألف ليرة فقط حتى أذهب بها إلى طبيب ، وأعدك أنى سأعود إلى القاهرة .. وهم أن يضع يده فى جيبه ليعطيها ، ولكنه تردد برهة ، ثم عدل عن إعطائها قائلا :

– إن أى مبلغ أعطيه لك سيستولى عليه إلياس .. إنى متأكد .. وكل ما أستطيع أن أقدمه لك هو تذكرة طائرة إلى القاهرة ، وهناك نتولى علاجك ..

وثارت وأخذت تسبه بألفاظ قبيحة تجمع فيها كل اللغات واللهجات .. تسبه باللهجة المصرية .. واللبنانية ، وباللغة العربية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية .. أنت فلاح .. لا تساوى فردة حذائى .. إنى أطالبك بما أخذتموه منى .. لصوص قتلة ..

وهو ساكت .. إلى أن هدأت .. ووقعت على الأرض بعظامها النحيلة وأخذت تبكى .. ثم قامت وفى عينيها نظرة عنيفة كأنها قررت شيئا جديدا ، وقالت :

– أعطنى تذكرة الطائرة ..

قال :

– اذهبى إلى المطار وستجدين هناك من يصحبك إلى الطائرة ..

واتفقا .. وأعد لها كل شىء .. وكلف أحد معاونيه بأن يصحبها إلى القاهرة وأدخلت فى مستشفى وبدأ علاجها الذى استمر شهورا .. وبدأ اللحم يعود ويغطى عظامها ، وبدأت عيناها تستردان نضارتهما وتعود ضحكتها الصارخة إلى ابتسامة هادئة ..

وهو لا يكف عن رعايتها بعد أن أقنع نفسه أنه مندوب الهلال الأحمر لإنقاذ جرحى الثورة .. وبعد أن غادرت المستشفى اطمأن إلى أنها تقيم فى الشقة التى كانت الحراسة قد تركتها لأبيها ، واستطاع أن يرفع المعونة التى

تعطيها لها الدولة إلى خمسين جنيها ، كما اطمأن إلى أنها تعيش مع سيدة عجوز من سيدات العائلة ..

ولكنها لا تستطيع أن تهدأ ..

إن كل شىء فى مصر يذكرها بأنها ابنة البلتاجونى باشا ، وأنها تملك عشرة آلاف فدان ، وأن لها قصورا ، وخيولا ، وسيارات وحشما وخدما .. أين كل هذا .. أين أملاكى أيها اللصوص .. والحقد يغلى فى عروقها ، والغيظ يفتت كبدها .. وتحاول أن تستسلم .. وتذهب إلى نادى الجزيرة ، فلا ينبهر أحد بها ، ولا يحنى لها أحد رأسه .. إنها مجرد واحدة من عشرات النساء اللاتى أصبحن يملأن النادى ، وليس بينهن واحدة لها عائلة عريقة .. كلهن نساء عاديات ، وهى أيضا أصبحت امرأة عادية ..

إنها لا تستطيع ..

لا تستطيع أن تكون امرأة عادية ..

إما أن تعيش كابنة البلتاجونى باشا ، وإما أن تعيش كضحية .. شهيدة .. وهنا فى مصر لا يحس بها أحد كابنة باشا ولا ينظر إليها أحد كأنها ضحية أو شهيدة .. إن كل ما تعيش به هنا هو الحقد والغيظ ، وكل ما تحس به هو أنها ماتت .. ماتت كابنة البلتاجونى ، وماتت فلم تعد تثير الإحساس بأنها ضحية أو شهيدة .

واختفت ..

وعندما بحث عنها ، اكتشف أنها عادت إلى بيروت ، وعادت هناك إلى العمل ساقية فى حانة ، لتعيش ، إحساسها بأنها ضحية ..

واعترف بفشله فى علاج جرحى الثورة ..

إنها جروح ليس لها علاج ..

كلمـــة

لا شك أن هناك تباعدا وتعارضا كبيرا بين المجتمعات العربية بعضها وبعض .. فمجتمع السعودية - مثلا - يختلف عن مجتمع العراق ، ومجتمع العراق يختلف عن مجتمع الجزائر ، ومجتمع الجزائر يختلف عن مجتمع سوريا .. و .. و .. بل قد يقوم التباعد والتعارض بين مجتمعات عربية يلتصق أحدها بالآخر بحدوده الجغرافية .. فالمجتمع فى الأردن يختلف عن المجتمع فى لبنان ، والمجتمع فى الكويت يختلف عن المجتمع فى البحرين أو فى أبو ظبى و .. و ..

وربما كان السبب فى هذا التباعد والتعارض هو أن الشعوب العربية لا تزال تعيش فى أحاسيس الروح القبلية القديمة ، ولم تستطع وحدة الدين بين الأغلبية ، والتى تحققت منذ مئات السنين ، أن تجمعهم فى وحدة اجتماعية .. وحدة التقاليد ، ووحدة أسلوب الحياة ، ووحدة المظهر .. كما لم تستطع ذلك وحدة اللغة حتى مع اختلاف اللهجات . ولا الوحدة الجغرافية التى تربط العرب كلهم داخل إطار واحد ..

وربما كان السبب هو اختلاف شخصية الاستعمار فى تاريخ كل بلد عن الآخر ، والمجتمع الاستعمارى يفرض تأثيرا كبيرا على المجتمع الذى يستعمره .. فالمجتمعات العربية التى وقعت تحت الاستعمار الإنجليزى ، تجدها متأثرة فى تقاليدها وفى أسلوب حياتها بالمجتمع البريطانى .. كمصر .. والسودان ، والعراق و .. و .. والتى وقعت تحت الاستعمار الفرنسى تجدها متأثرة بالمجتمع الفرنسى .. كالمغرب ، وتونس و .. و .. والتى وقعت تحت الاستعمار الإيطالى تعيش حتى اليوم متأثرة بالمجتمع الإيطالى كليبيا .. بل إن هناك مجتمعات عربية ، أو قطاعات داخل هذه المجتمعات لا تزال متأثرة بعوامل المجتمع التركى ، رغم عشرات السنين التى مرت على اندثار الإمبراطورية العثمانية .. وهناك دول عربية عاشت منعزلة عن المجتمع الاستعمارى ، كانت خاضعة لسيطرة استعمارية ، ولكن الاستعمار لم يقم لنفسه مجتمعا فى داخلها يتأثر به شعبها ، أى لم يكن فى داخلها جيش أجنبى أو إدارة أجنبية وحياة أجنبية تتأثر بها .. هذه الدول لا تزال أكثر تأثرا بالمجتمعات القبلية التى وجدت نفسها فيها ..

وربما كان السبب فى هذا التباعد والتعارض بين المجتمعات العربية ، هو الاختلاف فى نسبة التطور .. التطور يتحقق بالانفتاح الخارجى - أقصد الانفتاح العقلى - نحو الحضارات الأكثر تقدما .. وهذا الانفتاح له عدة عوامل ، بينها عوامل جغرافية ، وعوامل تاريخية ، وعوامل اقتصادية تقوم على مدى حاجة كل شعب إلى الانفتاح نحو الخارج .. فالشعب الذى يعيش معتمدا على دخله من التجارة والخدمات العامة - كلبنان - غير الشعب الذى يعتمد

على دخله من البترول ، وغير الشعب الذى يعتمد على الزراعة ، وغير الشعب الذى يعتمد على السياحة كتونس و .. و .. و ...

وكل هذا مرتبط بالشخصية الذاتية لكل شعب ، والتى تبقى دائما قائمة حتى بعد التغلب على كل عوامل التباعد والتعارض ..

والذى يحدث داخل كثير من المجتمعات العربية هو نوع من التصارع بين ما يريده الفرد وما هو مقتنع به وبين ما يفرضه عليه المجتمع الذى يعيش فيه .. وهذا التصارع يؤدى بالتالى إلى نوع من التحايل والتهرب من تقاليد المجتمع ، كأنه تحايل وتهرب من القانون ..

التقاليد المفروضة على المرأة مثلا ..

هناك مجتمعات عربية لا تزال تحرم الاختلاط بين الجنسين ، فلا يستطيع الزوج - مثلا - أن يصحب زوجته إلى زيارة عائلة صديق ، ولا يستطيع أن يظهر بها أمام الناس فى منتدى أو ملهى عام ، أو يراقصها إذا كان من هواة الرقص .. هذا الزوج وهذه الزوجة ينتظران فى كبت ، وضيق ، وزهق ، إلى أن يسافرا إلى بلد آخر ، حتى لو كان بلدا عربيا ، وينطلقان .. الزوج يقدم زوجته إلى أصدقائه سواء كانوا من بلده ، أو من البلد الآخر ، ويطوف بها النوادى والملاهى ويراقصها ويعيشان كل حياة المجتمع الذى سافرا إليه ، إلى أن يعودا إلى بلدهما .. وهناك يعودان إلى كل ما يفرضه المجتمع المحلى عليهما .. لا يصبح لأصدقائه من نفس بلده والذين كانوا فى الخارج معه الحق فى أن يروا زوجته ، ولا هو يرى زوجاتهم .. ولا يصبح من حقه أن يخرج معها فى الشوارع كما كان يخرج معها فى شوارع القاهرة ، أو يراقصها كما كان يراقصها فى فندق سميراميس .. وقد جربت أنا نفسى هذا التناقض الاجتماعى مع صديق عربى أجله وأحترمه ، وجاء إلى القاهرة هو وزوجته ، ودعوتهما أنا وزوجتى إلى البيت ، وكنا نجتمع فى أمسيات عائلية نقضيها فى المحال العامة .. ثم .. سافرت إليه فى بلده ومعى زوجتى .. وهناك كانت الزوجات يجتمعن معا ، والأزواج يجتمعون معا بعيدا عن الزوجات .. ولا أمسيات عائلية مختلطة .. لم ألتق هناك بزوجته ، ولا التقى بزوجتى .. لماذا ؟ . مجرد التعارض بين المجتمعين ..

وحتى بضع سنوات فقط لا تتجاوز العشرين ، كان أحد المجتمعات العربية قد وصل من التطور إلى حد أن أباح العلم للفتاة ، ولكنه فرض على الفتاة ألا تذهب إلى المدرسة إلا وهى ملفوفة فى العباءة التى تغطيها من رأسها حتى قدميها ، ولا تترك لها إلا ثقبين فوق عينيها ترى الدنيا كلها من خلالهما .. وقد وصل التطور نحو تعليم الفتاة فى هذا المجتمع إلى درجة أن بعض العائلات أصبحت ترسل بناتها ليتعلمن فى البلاد العربية الأخرى التى توفر درجة أعلى من التعليم ، أو التى تقوم فيها جامعات .. وقد عرفت فتاة من هذا المجتمع كانت تتلقى

العلم فى الجامعة الأمريكية ببيروت .. وكانت تعيش كل حياة المجتمع اللبنانى ، أو على الأصح المجتمع الدولى داخل لبنان .. لم تكن تلتف بالعباءة .. كانت حرة ، تحمل مسئولية حريتها بجدية تفرض احترامها على الجميع .. وكانت عائدة إلى بلدها ، ومصادفة كنت أستقل معها نفس الطائرة وأنا فى طريقى إلى عمل فى نفس البلد .. وما كادت الطائرة تهم بالهبوط ، حتى وجدتها قد قامت وشدت عباءة من حقيبة فى يدها ، وأسقطتها فوق رأسها حتى قدميها .. وقلت لها وأنا أكاد أصرخ فى دهشة :

- ما هذا ..

قالت دون أن أرى ابتسامتها المسكينة التى لا شك قد علت شفتيها :

- تقاليد بلدنا ..

قلت :

- ولكن بلدكم يعلم أنك كنت فى بيروت بلا عباءة ..

قالت وصوتها يتعثر فى تنهيدة المرارة :

- حتى لو كانوا يعلمون ..

قلت :

- إنك فتاة مثقفة تستطيعين أن تعلنى ثورة اجتماعية لتحرير بنات بلدك ، بأن تنزلى من الطائرة مكشوفة الوجه ، كما فعلت هدى شعراوى عندما عادت من أوروبا ونزلت من الباخرة مكشوفة الوجه ، وأعلنتها ثورة لتحرير المرأة المصرية ..

قالت فى استسلام :

- لا أستطيع أن أثور على أبى .. إنه فى انتظارى على باب الطائرة ..

ونزلت ملفوفة بالعباءة ، ووالدها ورجال العائلة يستقبلونها ، ولم تجرؤ حتى على تقديمى إليهم ، ولم أجرؤ أنا الآخر حتى على مصافحتها قبل أن تبتعد عنى ..

كان هذا منذ عشرين عاما ، وحدث بعد هذا أن هذا المجتمع حرر بناته من العباءة ، ولكن أغلبية العائلات ما زالت تفرضها على بناتها ، كما أن أغلبية البنات اللاتى تحررن من العباءة مازلن يسعين إلى إتمام تعليمهن خارج بلدهن ، لأنهن يعشن حرية أكبر فى مجتمعات عربية أخرى .. حرية أكبر من مجرد رفع الحجاب .. والحرية لا تعنى الخطيئة ، ولكن الحرية هى الإحساس باكتمال الشخصية ..

ثم موضوع آخر ..

الخمـر :

إن مجتمعات عربية تحرم الخمر ، ومجتمعات عربية أخرى لا تحرمها .. ولا يمكن أن يكون الفارق بين المجتمعين هو أن أحدهما أكثر إسلاما وتدينا عن الآخر ، ولكن الفارق هو فى عقلية كل مجتمع .. فمجتمع يرى أن يلقى مسئولية تحريم الخمر على الفرد نفسه ، ومجتمع يرى أن تتحمل الدولة نفسها مسئولية تحريم الخمر على الأفراد ..

وليس هناك مجتمع فى العالم يدعو إلى تناول الخمر أو الإفراط فى تناوله ، ولكن الفارق دائما هو فى مسئولية الفرد عن نفسه ومسئولية الدولة عن الفرد ، وقد مرت سنوات حرمت فيها حكومة الولايات المتحدة - وهى ليست حكومة إسلامية - صناعة الخمر ، وبيعها ، وتناولها ..

ولكن هذا التحريم عرض المجتمع الأمريكى لجرائم رهيبة متتالية نتيجة عمليات التهريب ، دون أن تختفى الخمر ، بل أصبحت أكثر إساءة للفرد ، لأن الدولة لم يعد لها رقابة على صناعتها ، فأصبحت كلها خمورا مغشوشة قاتلة ، كما أن الشهوة الطبيعية فى ممارسة كل ما هو محرم ، أصبحت تجذب عددا أكبر من زبائن الخمر .. واعترفت الدولة الأمريكية بفشلها فى مقاومة الخمر ، كما فشلت الدولة المصرية حتى اليوم فى تحريم الحشيش ، رغم مرور أكثر من خمسين عاما على تحريمه ..

وألغت أمريكا قرار تحريم الخمر ، واعتبرتها مسئولية كل فرد عن نفسه مع إصدار القوانين واللوائح التى تحدد هذه المسئولية وتحميها ، كتحديد ساعات تقديم الخمر فى المحال العامة ، أو فرض عقوبة على كل من يقود سيارة بعد أن يحتسى الخمر ، حتى ولو لم يتسبب فى حادث ، أو يرتكب مخالفة مرور .. و .. و ..

والذى حدث فى المجتمعات العربية التى تحرم الخمر هو أن التحريم أصبح مقصورا على المظهر العلنى الرسمى والشعبى .. أى أن الدولة تفرض التحريم وتقاوم التهريب فعلا ، والشعب يحرص على ألا يبدو مخالفا للتحريم .. ولكن الواقع شىء آخر .. إن عمليات التهريب لا تتوقف رغم كل ما تبذله الدولة ، بل إن التهريب وصل إلى بعض المستويات الرسمية فى بعض هذه المجتمعات ، ونسبة الإدمان على الخمر لا تزال توازى إن لم تزد عن نسبتها فى المجتمعات العربية التى لا تحرم الخمر .. كما ظهرت أنواع من الخمور التى يمكن إعدادها داخل البيت نفسه .. وفى أحد المجتمعات العربية كان الناس لا يعرفون ولا يأكلون الزبيب - أى العنب المجفف - ولا يشترونه حتى لاستعماله فى إعداد الحلوى ، ثم صدر فى هذا المجتمع قانون بتحريم الخمر ، فإذا بالزبيب يصبح فجأة فاكهة شعبية يزداد الإقبال عليها ، لأنه أصبح يستعمل فى إعداد الخمر البيتى ، بإضافة عجين الخمير إليه ، وكذلك علب الفاكهة المحفوظة كالأناناس .. ووصل التحايل للوصول إلى الخمر إلى أن

الخمور أصبحت تباع فى زجاجات الكولونيا ، بل وصلت شهوة الخمر ببعض الأفراد إلى حد أنهم أصبحوا يشترون زجاجات الكولونيا الحقيقية لا للتعطر بها ، ولكن ليشربوها لأنها تحوى طعم وتأثير الخمر .. و .. السبرتو ، الذى يستعمل فى تنظيف الجروح وعلاجها ، أصبح الناس يشربونه لأنه مسكر ، حتى إن مجتمعا عربيا أصدر أخيرا قرارا بإضافة مادة سامة إلى كل المستورد من « السبرتو » وأعلن هذا القرار على الناس حتى لا يشربونه .. والأسهل من كل ذلك ، هو أن يركب الفرد فى مجتمع التحريم سيارته ويقودها ، وبعد ساعة يصبح فى مجتمع عربى آخر يبيح الخمر ، فيشرب حتى يرى النجوم سكارى ، ثم يعود فى الصباح إلى مجتمعه ، ومعروف عن أحد المجتمعات العربية أن القادرين فيه تعودوا أن يقضوا عطلة نهاية الأسبوع فى مجتمع عربى آخر ملاصق لمجرد أن المجتمع الآخر يبيح الخمر ..

وليس معنى ذلك أنى أدعو أو أؤيد إباحة الخمر .. بالعكس .. إن تحريم الخمر ، حتى وإن اقتصر على المظهر الرسمى والشعبى ، فهو يكلف الفرد كثيرا عندما يحاول أن يتحداه ويصل إلى الخمر ، وهذا وحده فيه إشعار للفرد بمسئوليته عن نفسه ، تجعله يتردد كثيرا وطويلا قبل أن يقدم على تحدى القانون ، والاستسلام لشهوة الخمر .. تماما كتحريم الحشيش عندنا فى مصر .. فالحشيش أيضا ليس محرما فى كل المجتمعات العربية ، بل إن بعض هذه المجتمعات تبيح زراعته ، لتصديره إلى مصر ..

وربما كان مما يؤثر فى التباعد والتناقض بين المجتمعات العربية ، هو اختلاف عدد السكان فى كل مجتمع .. فهناك مجتمع عربى يكاد يختنق بتزايد عدد سكانه ، ومجتمع آخر يشكو من قلة عدد سكانه ، دون أن تقوم أى محاولة لتوزيع العرب بين كل المجتمعات العربية حتى نتغلب على ضيق المجتمع المخنوق ، ونحل مشكلة المجتمع الذى يشكو النقص .. وكانت النتيجة أنه أصبح هناك مجتمعان اثنان فقط يدعوان إلى تحديد النسل هما مصر وتونس ، والمجتمعات العربية الأخرى تدعو إلى زيادة النسل ..

وهذه الظاهرة تنطبق أيضا على المجتمع الذى يقوم على الطائفية - كمجتمع لبنان - فكل طائفة تحاول زيادة عدد أفرادها بالتشجيع على زيادة النسل ، حتى تتفوق فى تعدادها على الطائفة الأخرى ..

ومعنى هذا أن الفتاة العربية إذا تزوجت فى مصر فإنها مضطرة - حتى تنال احترام المجتمع - ألا تنجب أكثر من اثنين ، وبعد ذلك تعيش على حبوب منع الحمل أو عمليات الإجهاض ، ونفس الفتاة إذا تزوجت فى الأردن فإن المجتمع هناك يفرح بها إذا أنجبت أربعة أو خمسة من الأطفال ، وإذا تزوجت فى ليبيا أو فى إحدى دول الخليج فإن المجتمع يعتبرها أما مثالية إذا أنجبت عشرة أو عشرين .. وهذا التناقض يترتب عليه تناقض فى كل متطلبات الحياة ..

ثم الحب ..

الحب بين الرجل والمرأة ..

الحب النظيف الطاهر الذى يبدأ بلقاء شخصيتين يتكاملان إلى أن يصل بهما الحب إلى الزواج ..

هذا الحب تختلف المجتمعات العربية أيضا فى تفسيره ، إلى حد أن بعض هذه المجتمعات لا تعترف به أساسا حتى لو كان مجرد حب قام على تبادل نظرات من بعيد .. عار .. فضيحة .. اعتداء على الشرف ..

وهذا يرجع إلى اختلاف نسبة مفهوم شخصية المرأة فى كل مجتمع .. فإذا كانت بعض المجتمعات قد وصلت إلى الاعتراف بالمرأة كشخصية إنسانية كاملة تحمل مسئولية نفسها ، فما يحمل الرجل مسئوليته عن نفسه .. فهناك مجتمعات عربية أخرى لا تزال - وحتى اليوم - تعتبر المرأة متعة يملكها الرجل ، بل قد يصل المفهوم إلى اعتبارها عورة لا يصح الكشف عنها ويجب التستر عليها ..

وكما يحدث فى المجتمعات التى تحرم الخمر من محاولات للتهريب والتحايل حتى يصل الفرد إلى الخمر ، كذلك يحدث فى المجتمعات المختلفة التى تفصل بين الرجل والمرأة من تحايل وتحد ليلتقى الرجل بالمرأة .. ووسائل التحايل تختلف باختلاف نسبة الانغلاق ، وقد يصل التحايل إلى الخطيئة أو الشذوذ ، ولكنه دائما يصل .. والخطيئة هى مسئولية فردية تقع فى كل المجتمعات مهما اختلفت مسئولية الدولة عن حماية الفرد منها .. أى من الخطيئة .. مما يجعل اختلاف المظهر لا يقابله اختلاف فى الواقع الإنسانى ..

المهم ..

التباعد والتناقض بين المجتمعات المتقاربة أمر طبيعى يشمل مجتمعات العالم كله ، وقد يصل إلى التباعد والتناقض بين المجتمع داخل الدولة الواحدة ، كالتباعد بين مجتمع وجه قبلى ومجتمع وجه بحرى فى مصر ، أو التباعد والتناقض بين مجتمع انجلترا ومجتمع اسكتلندا رغم أن المجتمعين يشكلان دولة واحدة هى بريطانيا .. كما أنى لم أقصد بكل ما كتبته مجتمعا عربيا محددا بالذات ، إنما هى نظرة عامة أعرضها كمقدمة لقصة ، وربما كنت متأثرا بالكاتب الإنجليزى برناردشو الذى كانت مقدمات قصصه تملأ من الصفحات أكثر من عدد صفحات القصة نفسها .

□

تائه فى شوارع الحرمان

كان المهندس صلاح قد انتدب للعمل فى إحدى الدول العربية ..

وكأى شاب عادى لم يرحب بهذا الانتداب لأن نوعية العمل قد أغرته فهو نفس العمل الذى يقوم به فى مصر ، ولكن لأن المرتب أكبر ، والعملة صعبة يمكن أن يشترى بها سيارة وأن يمرح بها فى أوروبا خلال إجازته ، ثم لأن طموحه كان يصور له أنه قد يستطيع الوصول بتنقله واتصالاته إلى مجالات أوسع ، وربما مجالات عالمية ، يبنى فيها مستقبلا أكبر من المستقبل الذى ينتظره فى مصر ..

وسافر إلى هناك ..

وكان قد سمع كثيرا عن المجتمع الذى جاء ليعيش فيه .. إنه مجتمع مغلق أو شبه مغلق ، ليست فيه حياة حرة ، ولن يلمح فيه ابتسامة حلوة ترفه عنه ، وأهل البلد متباعدون عن الأجانب ، ويعتبرون العرب من البلاد الأخرى أجانب أيضا .

ولم يهتم بكل ما سمعه ، إن شخصيته التى يعيش بها فى مصر ، يستطيع أن يعيش بها فى كل مكان .. وهى شخصية تميل إلى الانعزال والتباعد وليس معنى ذلك إنه إنسان مستسلم للحرمان ، ولكنه ليس مغاليا ولا مندفعا فى حياته الخاصة .. لا يهوى مجتمعات الليل ولا يجرى وراء العلاقات الرخيصة ، ولا يحتاج إلى أصدقاء خارج مجالات عمله .. إنها شخصية تقوم على نسبة كبيرة من الاكتفاء الذاتى ، وهذه الشخصية تستطيع أن تعيش فى أى مجتمع مغلق ..

وأحس بأعصابه كلها تبتسم وهو يلقى بنفسه لأول مرة فى المدينة

المطلة على البحر .. إنها مدينة تشرح القلب .. ترك فيها الاستعمار القديم كل ما يمكن أن يزودها بالجمال ، وكل ما يمكن أن يحقق لأهلها من راحة .. ليس فيها شىء آخر ، غير هذا الجمال المرسوم على شاطىء البحر ..

واستطاع أن يستأجر شقة من عمارة فى حى هادىء بعيد يعتبر نسبيا من أرقى أحياء المدينة ، وقرر أن ينزوى فيها متفرغا لعمله ولنفسه ، وكان سعيدا وهو يكتشف نفسه وهو وحده بعيدا عن عائلته التى تركها فى القاهرة .. بعيدا عن أمه .. إنه الآن المسئول عن نفسه مسئولية كاملة .. يشترى لنفسه ، ويطبخ لنفسه ، ويمسح ويكنس لنفسه ، ثم يلقى بنفسه على مقعد مريح بعد العشاء ، ويقرأ .. ويقرأ .. ويقرأ .. إنه يقرأ فى ليلة واحدة قدر ما كان يقرؤه فى أسبوع وهو فى القاهرة ..

واكتشف منذ اليوم الأول أن فى مواجهة العمارة التى يسكن فيها ، معهدا للبنات ، عرف أن به قسما داخليا ، وبلا تردد قرر أن يخفض ستائر نوافذه التى تواجه المعهد ، وهى ستائر من الحصير .. ترتفع وتنخفض لتحمى البيت من حرارة الشمس .. وكان يخفضها إلى مستوى نصف ارتفاع الشباك ، حتى لا تحرمه من الهواء ، وفى الوقت نفسه تحجب عنه رؤية بنات المعهد ، وتحجبه عنهن ، حرصا على تقاليد المجتمع الذى انتقل إليه ، وإبعاد لكل شبهة يمكن أن تمسه ..

والأيام تمر ..

وبدأت متعة الانتقال إلى حياته الجديدة ، تبهت .. وبدأ يكتشف أن العمل الذى يتولاه يخضع لنفس ثقل الروتين الذى كان يشكو منه عندما كان يعمل فى القاهرة .. لا مجال هنا للخلق والابتكار والتجربة .. إنه مجرد عمل .. مجرد موظف .. وربما كانت مجالات البحث عن جديد فى القاهرة أوسع منها هنا ..

وفى حياته الخاصة أيضا بدأ يفقد متعة التردد على محال البقالة وعلى « السوبر ماركت » وبدأ يضيق إلى حد القرف وهو يقلب بين يديه قطع اللحم وأعواد المكرونة ، وتخريط البصل ، ويزداد اشتياقا إلى أمه التى كانت تتولى عنه كل ذلك .. إن الإنسان لا يعرف قدر أمه ، كما يعرفه بعد أن يبتعد عنها .. حتى القراءة .. لقد بدأ يشعر أنه مضطر إلى القراءة أكثر مما هو فى حاجة إليها .. يقرأ لأنه ليس هناك شىء آخر يملأ به فراغه .. يقرأ فرارا من وحدته .. والراديو أيضا .. لقد كان دائما يهتم بتتبع الأخبار العالمية ، وهو يحفظ عن ظهر قلب مواعيد إذاعة الأخبار فى محطة إذاعة لندن ، وباريس ، وأمريكا ، وهو يهوى الاستماع إلى الموسيقى وإلى أغانى أم كلثوم ، بل إن أول ما اشتراه من أول مرتب تقاضاه كشىء يبقى له ، هو راديو ترانزستور موديل ٧١ .. ولكن المشكلة التى بدأت تضغط على أنفاسه ، ليست مشكلة الأحداث العالمية والعربية التى يلتقطها من نشرات الأخبار .. إنها مشكلة وحدته .. والموسيقى مهما بلغت هوايته لها ، فهو يسمعها وحده .. دائما وحده وقد انعكست وحدته على أهالى المجتمع الذى يعيش فيه ، وتركت له صورة تثير بينهم الاحترام ، على قدر ما تثير الحيرة .. يحترمونه لأنه لا يعيش حياة التسلل والتستر التى يعيشها بقية الشبان فى هذا المجتمع .. ويحتارون فيه لأن أحدا لا يستطيع أن يصدق أن شابا فى مثل وسامته وسلامة بنيانه ، يمكن أن يستغنى عن كل متع الشباب .. وكانوا يحبونه ، فرغم أنه تعود أن يعتذر عن الدعوات التى توجه إليه من زملائه فى العمل ، فإن اعتذاره كان دائما لبقا ضاحكا ، يقرب صاحب الدعوة إليه ، ولا ينفره منه .. ورغم أنه كان يستمع إلى كثير من مغامرات الشباب ، وإلى تفاصيل اللقاءات التى يمكن أن تقع فى هذا المجتمع ، ورغم أنهم كانوا يعرفون أنه ليس له مغامرة ولا لقاء ، فقد كان دائما يستطيع أن يجد تعليقا يثير الضحكات بينهم ، ويقربهم إليه أكثر ..

وقد حاول ..

حاول أن يثور على وحدته ..

ولكن ..

أين يذهب بنفسه ..

لقد حاول أن يعيش داخل مجتمع مواطنيه من المصريين الذين يعملون معه فى نفس البلد .. ولكن المجتمع المهاجر ، لم يستطع أن يوجد نوعا من التآلف ، والتعصب الإقليمى ، بين أفراده بعضهم وبعض .. وهو ما وصل إليه المجتمع المهاجر السورى ، واللبنانى ، والفلسطينى .. ربما لأن الهجرة ظاهرة جديدة فى المجتمع المصرى .. لم تتأصل بعد ، وأصبح نمطا من أنماط الحياة .. إن المصريين فى الخارج لا يزالون أبناء البلد الزراعى الذى يفصل بينهم عدد الفدادين التى يزرعها كل منهم .. وكل منهم يريد أن يزرع وحده ، حتى لا يدخل شريك قد يغتصب منه الأرض .. هذه هى طبيعة المجتمع الزراعى الذى لم يصبح بعد مجتمع خدمات ، وتجارة ، وخذ وهات ، والصورة التى ترسم للمصريين فى الخارج - ولا شك أنها صورة مبالغ فيها - هى صورة مجموعة أفراد ينافسون بعضهم بعضا أكثر مما ينافسون المهاجرين من بلاد أخرى .. بل إن هناك صورة للمصرى الذى يتولى رئاسة أو قيادة أى عمل فى الخارج ، فإن أول ما يسعى إليه هو التخلص من المصريين الذين يشتركون معه فى نفس العمل حتى يتخلص من منافستهم ، بعكس ما يقال عن رئيس مهاجر من بلد آخر ، يكون أول ما يسعى إليه هو فتح الأبواب لمواطنيه حتى يكوّن منهم جبهة تسيطر على العمل .. والسفارات المصرية فى كل مكان تشكو من علاقة المصريين بعضهم ببعض داخل بلاد الهجرة أكثر مما تشكو من علاقة المصريين بأهل البلد أو بالمهاجرين من البلاد الأخرى ..

ولم يشعر صلاح بكل هذا .. لم يقع فى خلاف أو منافسة أو إحساس بغيض بينه وبين أحد من المصريين ، ولكن المجتمع المصرى هناك بدأ

يحرك ويثير فيه التفكير فى إلغاء انتدابه والعودة إلى القاهرة .. وهو يريد أن يقاوم ويهرب من هذا الفكر اليائس المنهار ..

وحاول مجتمعا آخر ..

وحاول أن يعيش فى مجتمع أهل البلد أنفسهم .. إن له زملاء منهم فى العمل ، وهو محبوب بينهم .. محترم .. وقد تعمد أن يبدأ صداقته بهم فى الجلسات العامة .. فى المقاهى .. أو فى مصاحبة بعضهم للسير على طريق البحر .. كان يعتذر عن جلسات الرجال الليلية لأنه يعلم أنه تباح فيها كثير من المحرمات ، ومن بينها الخمر التى تحرمها الدولة .. كما كان يعتذر عن رحلات عطلة الأسبوع خارج المدينة لأنه يعلم أيضا ما يجرى فيها .. ويكتفى دائما بالجلسات الجادة الهادئة عند مغيب الشمس .. ولكن .. مع استمرار هذه الجلسات بدأ يكتشف أن أهل البلد معقدون بنوع من التعالى على المهاجرين إليهم من البلاد العربية .. إنهم يحسون بهم كأنهم مجرد طامعين فى أموالهم .. وهناك القصة المعروفة عندما قال أحد المواطنين لأحد العرب الذين يعملون فى البلد ، وهو ليس مصريا .. إنك هنا طامع فى أموالنا .. فأجابه العربى الآخر .. وماذا عندكم من شىء آخر أطمع فيه .. الحضارة .. أم العلم .. أم المناظر الطبيعية ..

وهم بالنسبة لصلاح لا يفصحون عن هذا الإحساس بالتعالى والغرور ، ولكنه يحس به من تحت أسنانهم .. وكان الأقسى عليه هو أن مصر كانت لا تزال تعيش أيام الهزيمة ، وهذه الهزيمة تركت نوعا من الإحساس بالشماتة لدى بعض من يجتمع بهم .. وكانت هذه الشماتة تنتهى أحيانا إلى نوع من إدعاء التفوق السياسى بل والعسكرى .. وتنطلق الألسنة تخطط ما كان يجب أن يحدث لو كان الأمر بيدهم .. كان يجب أن تفعلوا كيت وكيت .. وكان يجب أن تتحركوا هكذا وهكذا .. وأصبح صلاح يحس أنه معرض فى أى لحظة لأن ينطلق فى نقاش حاد قد ينتهى إلى أكثر من مجرد النقاش .

وابتعد عن مجتمع أهل البلد ..

عاد إلى وحدته ..

وفكرة إلغاء انتدابه والعودة إلى بلده تلح عليه أكثر وأكثر .. والملل والزهق وإحساسه بأنه يضطهد شبابه بوحدته ، يكاد يلقى به فى أول طائرة وتطير به بعيدا ..

وكان فى كل يوم يجلس على المقعد المريح داخل غرفته فى مواجهة النافذة ليقرأ .. والقراءة تزهقه ، فيمد عينيه من تحت ستار الحصير الذى يغطى النصف العلوى من الشباك .. إنه لم يرفع أبدا هذا الستار عن كل الشباك ، ولم يقف أبدا ليطل من هذا الشباك ، ولم يخرج أبدا إلى الشرفة .. ولكنه فقط بدأ يطلق عينيه من تحت ستار الحصير ..

ورآها ..

إنها تطل من شباك معهد البنات ..

إن كثيرات من بنات المعهد ومن المشرفات يطللن من الشباك .. ولكن هذه الفتاة .. ربما كانت أقربهن إلى ذوقه وإلى خياله الشاب .. وقد لاحظ أنه يستطيع دائما أن يراها فى مواعيده المحددة التى يجلس فيها على المقعد المريح ليقرأ .. وكما أنه يراها وهو جالس بعيدا داخل الغرفة دون أن يطل من الشباك ، فكذلك هى تراه وهى واقفة بعيدا عن حافة الشباك .. إنها تراه .. لا شك أنها تراه .. إنه يستطيع أن يلمح عينيها موجهتين إليه ..

ولكن لا يهم ..

مهما قست عليه وحدته فيجب ألا تشده إلى أى خيال أو أى أمل يمكن أن تثيره هذه الفتاة .. والأيام تمر ..

أكثر من ستة شهور مرت عليه ، وكل ما جد فى حياته الخاصة هو

هذه الجلسة التى يجلسها على المقعد يطل من بعيد خارج الشباك .. وشىء جديد آخر .. لقد استطاع بتدبير دخله من مرتبه أن يشترى سيارة صغيرة .. وقد فرح بهذه السيارة ، وكان يقودها فى شوارع المدينة وهو يتخيل نفسه وهو يقودها فى شوارع القاهرة وستة شهور من الوحدة تكفى ثمنا لهذه السيارة ، فليترك هذا البلد وليعد إلى بلده .. ولكنه يقاوم .. إنه يحاول أن يقنع نفسه بأن العودة هى ضعف ، وهروب .. اعتراف بالفشل .. ولن يعود ..

وقوة احتماله كل هذه الشهور أصبحت تعينه على مزيد من الاحتمال .. ولكن الإحساس بالاحتمال .. احتمال الوحدة .. لا يفارقه ..

وفوجىء برنين جرس باب شقته .. وعندما فتح الباب فوجىء بأن وجد أمامه بواب معهد البنات .. الرجل العجوز الذى يحييه دائما ، كلما خرج فى طريقه إلى عمله ..

وقال له البواب أن آلة تليفزيون المعهد قد توقفت ، فهل يسمح بالحضور إلى المعهد لإصلاحها ..

وفكر بسرعة ..

هل يدخل بقدميه معهد البنات والساعة الآن بعد الغروب ..

ومن الذى أرسل إليه البواب ..؟ بعض المشرفات ، أم بعض الطالبات ..؟! أم هى الفتاة التى تنظر إليه من بعيد من خلال الشباك .. لا .. لن يذهب ..

واعتذر فى أدب للبواب قائلا إنه لا يجيد إصلاح آلات التليفزيون ..

وألح عليه البواب قائلا :

– ولكنك مهندس .. كلنا فى المعهد نعرف أنك مهندس ..

وصمم على اعتذاره مبتسما حتى لا يغضب البواب :

– إنى مهندس ولكنى لست متخصصا فى التليفزيون ..

وانصرف البواب ، وأغلق الباب وراءه ، وأسرع يجلس على المقعد المريح ينظر من تحت ستائر الحصير .. إنها واقفة فى غرفتها تنظر إليه من خلال شباكها .. هى نفس الفتاة .. لعلها هى التى تريد إصلاح التليفزيون ..

الحمد لله .. هذا أقسى قرار على نفسه اتخذه خلال وحدته .. ولكن الحمد لله .. والأيام تمر وتربطه أكثر بالمدينة ، وقد أصبح معروفا فيها كشاب مثالى متعفف وحيد .. إلى أن كان يوم ..

وكان عائدا من عمله بعد الظهيرة ، وتوقفت سيارته فى إحدى إشارات المرور ، وفوجىء بسيدة مغطاة بالعباءة لا تسمح لمن تحتها إلا بثقب واحد أمام العين لاكتشاف الطريق .. فوجىء بهذه السيدة تفتح باب السيارة وتقفز داخلها وتجلس فى المقعد الخلفى ..

وارتبك .. احتار .. وحاول أن يسأل هذه السيدة أو يتفاهم معها .. ولكن السيدة اكتفت فى لهجة متعالية أشبه بإصدار الأمر :

– هل عندك بيت ؟

وأجاب فى عصبية :

– طبعا عندى بيت ..

– وقالت المتعالية الآمرة :

– خذنى إلى بيتك ..

ولم يكن يستطيع أن يتوقف فى إشارة المرور حتى لا يثير انتباه أحد ، فقاد السيارة وهو يحاول أن يقنع السيدة التى لا يرى وجهها ، ولا يعجبه صوتها ولا لهجة كلامها .. يحاول أن يقنعها بأنه لا يستطيع أن يأخذها إلى بيته ، لأن بيته له بواب ، وله جيران وهو لم يتعود أن يجازف ويعرض

نفسه لفضيحة .. ولكن السيدة تصر ، ولن تترك السيارة إلا بعد أن يشير لها إلى بيته .. ستنزل من السيارة فقط بعد أن تعرف أين البيت .. وستتركه يدخل وحده ، ثم تلحق به ، ولم يلحظ أحد ، لأن أحدا لن يعرف إلى من هى ذاهبة .. وهى تعرف بلدها وتعرف كيف تتصرف .. ولن تنزل من السيارة قبل ذلك ، وخير له أن يستسلم لأنها تعرف أين يعمل ، ومنذ مدة وهى تتبعه بعينها فى مكان عمله ، وستلاحقه إلى أن تدخل بيته ..

واستسلم ..

وربما كان قد عانى من ظلم نفسه بنفسه إلى حد الاستسلام ..

ونفذ كل ما أرادته منه ..

ورفعت العباءة وهى فى بيته وداخل حجرته .. وتحت العباءة ثوب « مينى جيب » آخر طراز ..

إنها ليست جميلة ، وليست فتاة صغيرة .. وهى تقبل عليه كأنها تقبل على كأس من الخمر فى بلد يحرم الخمر .. مجرد اندفاع ، وتحد ، وأخذ .. لا شىء رقيق هادىء ، حتى ولا مقدمات ..

وهو مسكين بشبابه المحروم ..

وخرجت من البيت بسرعة ، كأن العملية قد انتهت ، وهى فى حاجة لتلحق بعملية أهم ..

وأسرع بعد خروجها يطل من تحت الساتر الحصير خلال الشباك .. إنها ليست واقفة فى حجرتها .. موعدها لم يأت بعد .. لم تر شيئا .. ولكن ماذا يهمه حتى لو رأت .. ماذا تساوى هذه الفتاة بالنسبة له ..

وبعد يومين ارتفع رنين جرس باب شقته وهو لم ينته بعد من تناول طعام غدائه وفتح الباب .. إنها امرأة داخل عباءة .. ودخلت بسرعة وبلا استئذان ، وخلعت العباءة . إنها ليست المرأة الأولى التى جاءته أول

مرة .. إنها امرأة أخرى .. صديقتها وقد دلتها عليه صديقتها .. إنهن مجموعة من النساء ضائعات فى العزلة والحرمان خلف العباءة والباب المغلق ، والمجتمع الذى لا يحسب لهن حسابا . فينفسن عن ضيقهن بهذه المغامرات الشاذة .. إن العباءة والباب المغلق لا يكفيان لحماية امرأة .. بل ربما يحرضان المرأة ..

واستسلم استسلاما لا يدفعه إليه رغبة ، ولكن يدفعه إليه الحرمان ..

ورنين جرس الباب يتكرر كل بضعة أيام .. كأنه أصبح فرشة أسنان ، الصديقات يتبادلنها ، وكل منهن تمشط بها أسنانها وتعطيها للأخرى .

وبدأ يكتشف أن شلة الصديقات الضائعات لا يترددن عليه إعجابا بشبابه ، ولا انجذابا إلى شخصيته ولكن لمجرد أنه غريب عن البلد .. والغريب يصون السر أكثر مما يصونه القريب .. ويعيش بعيدا عن المجتمع الذى يمكن أن يتأثر بالفضيحة .. إن هذا يحدث فى كل المجتمعات .. إخفاء الفضائح فى جيوب الغرباء عن أهل البلد ..

وثار ..

لم يعد شبابه يطيق الاستسلام ، وأصبح كلما رن جرس الباب ، وفى هذا الموعد المحدد بالذات .. موعد النساء الضائعات .. لا يفتح الباب ، ويعتذر بلهجة آمرة رافضة ، إلى أن يئست منه الضائعات .. وربما قرر الرفض بعد أن لاحظ استنتاجا أن بنات المعهد المقابل قد اكتشفن كل ما يجرى فى شقته .. اكتشفنه بلا غضب .. بل يراهن فى النوافذ وهن يتضاحكن ، ويشرن إليه إشارات ضاحكة ، كأن كل ما اكتشفنه فيه أنه رجل كبقية الرجال ..

وهى ..

إنها لا تزال تقف فى موعدها بعيدا عن حافة الشباك ، وربما تخيل

أنها لم تعد سعيدة فى وقفتها كما كانت .. ولكنها لا تزال تقف ..

وكان يوم ..

ورن جرس الباب فى موعد بعد الغروب .. ليس هذا موعد الضائعات .. وفتح الباب ووجد أمامه الرجل العجوز بواب المعهد ، يعطيه خطابا ، وينصرف بعد كلمة حلوة ، وابتسامة كبيرة كأنه يهنئه بها ..

وقرأ ..

إنها رسالة منها .. منها هى .. إنه متأكد أنها هى .. إنها كلماتها ، ومعانيها ، وسياق أحداثها .. كل شىء فيها يدل على أنها هى .. رغم أنه خطاب لا يحمل توقيعا ولا اسم صاحبته ..

وهى تحبه ..

هكذا تقول فى رسالتها رغم أنها تقول أيضا إنها تعرف ما كان يجرى فى شقته عندما استسلم للضائعات وهى تعذره لوحدته .. إن النساء فى هذا المجتمع يعذرن الرجال ، ويتمادين فى التماس العذر لهم .. وربما لم يكن عذرا ، إنما هو استسلام لإرادة فرضها الرجل على المجتمع ..

ولكن مهما اختلفت المجتمعات بعضها عن بعض فى تفسير معنى الحب وأسلوبه .. فهل يمكن أن يبدأ الحب بمجرد نظرة من بعيد .. ولكنه هو أيضا أحس بهذه الفتاة كما لم يحس بأى فتاة رآها فى نوافذ المعهد .. لعله هو الآخر يحبها .. ويجب أن يعترف بالحب .

هل يرد على رسالتها .. كيف ..

إنها على الأقل تعرف اسمه من البواب ، وتعرف أنه مصرى ، وتعرف أنه مهندس ، وربما استطاعت أن تعرف أين يعمل وما قيمة مرتبه .. وهو لا يعرف عنها شيئا حتى اسمها ، ولا يعرف أين ينتهى إذا

بدأ ، ويعرف ما يحيط به وهو يمشى نحوها .. وجلس وأمسك بالقلم وهم أن يكتب .. ولكن من أدراه أنها هى .. وكيف يكتب لإنسان مجهول .. ثم من أدراه أى يد سيصل إليها خطابه ، وقد تكون يد إنسان يفضحه ويشهر به ..

ولم يكتب ردا على الخطاب ..

وفى صباح اليوم التالى وهو خارج من بيته ، هرع إليه البواب متسائلا من خلال ابتسامته :

- هل كتبت ردا على الخطاب ..

وقال :

- أنا لا أعرف من كتبه حتى أرد عليه ..

وقال البواب :

- أنا أعرفها ، سلمنى الرد وأحمله إليها ..

قال :

- لا يكفى أن تعرفها أنت ..

ثم أسرع الخطى بعيدا .. وعندما عاد من عمله ، وجاء الموعد المحدد وأطل من تحت ستائر الحصير ، رآها واقفة .. ولكن لا يبدو عليها شىء جديد .. ولا تشير إليه تسأله شيئا .. ربما لم تكن هى صاحبة الخطاب ..

وبعد يومين جاء البواب يحمل خطابا ثانيا .. ولم يرد .. وخطابا ثالثا .. ولم يرد .. وفى كل مرة يقول للبواب إنه لن يرد على إنسانة لا يعرفها ، ولا يعرف حتى اسمها ، والبواب لا يزوده بأى معلومات تعينه على حيرته ..

ثم رن جرس الباب بعد الغروب .. ودخلت إليه بلا عباءة .. هى ومعها إحدى صديقاتها .. إنها هى ..

وتغيرت حياته كلها منذ التقى بها .. سهيلة .. طالبة الداخلية فى معهد البنات ..

إنه حب ينمو ويتكامل بسرعة .. ولقاءات بعد الغروب مستمرة ، ولكن هذه اللقاءات لم تعد تكفى .. بل لم تعد فى مستوى كل هذا الحب .. إن الحب أكبر من أن يظل يعتمد على التستر ، وعلى الهروب من المعهد فى الليل ، وعلى الهدايا التى يغرق بها البواب ، وعلى الخوف المستمر من الفضيحة .. الحب أكبر وأنظف من كل هذا ..

وقرر أن يطلبها للزواج ..

وهى حائرة مترددة .. إن أهلها لن يوافقوا على زواجها به .. إنها تعرفهم .. سيعتبرون مجرد تقدمه إليهم فضيحة .. جريمة .. إنهم لا يعرفون شيئا اسمه الحب .. ثم إنه مفروض عليها أن تتزوج ابن عمها .. وكل نصيبها من الحب هو أن تبقى هكذا تهرب ، وتتستر ..

وهو لا يريد أن يستسلم .. إنه يستطيع أن يقنع عائلتها .. إنها ليست عائلة من العائلات الكبيرة القديمة ، ولا عائلة من العائلات التى تحكم .. إنها عائلة عادية . وهو بالنسبة لهم شاب يشرفهم أن يتزوج من ابنتهم ، ولا يعقل أن يعارضوا .. لا يمكن أن يرفضوا الارتفاع بالحرام إلى الحلال ..

وسهيلة تحاول أن تثنيه عن رأيه ، وعن مجازفته ، ولكنها سعيدة بإصراره .. سعيدة بكل هذا الحب .. وعائلتها فى بلدة أخرى قريبة من المدينة ، ولهذا وضعوها فى القسم الداخلى ، وهو يعرف هذه البلدة فأحد أقربائه من مصر يعمل فيها .. وسافر إلى هناك وعرض الموضوع على قريبه ليساعده فى تقديمه إلى عائلة سهيلة .. وصرخ قريبه :

– أنت مجنون .. عد حالا من حيث أتيت .. إنهم لا يمكن أن يزوجوا

ابنتهم من أجنبى .. وأنت أجنبى .. ومجرد التقدم يعنى أنك انتهكت عرضهم .. وقد يقتلونك ..

وهو يجادل قريبه .. لماذا لا يزوجون بناتهم لعربى حتى لو كان العرب فى هذا البلد أجانب .. إن رجالهم يتزوجون من كل البلاد العربية .. من مصر .. من لبنان .. من سوريا .. بل إن بنات بلدهم ثائرات لأن الرجال يفضلون عليهن بنات المجتمعات العربية الأخرى .. وربما كان كل هذا نتيجة عقلية هذا المجتمع الذى يعتبر المرأة مجرد متعة ، ويعطى لنفسه الحق فى التمتع ببنات المجتمعات الأخرى ، ويحرم على المجتمعات الأخرى التمتع ببناته .. إن الزواج هنا ليس بناء عائليا ، ولا تعاونا على تحقيق مستقبل .. كل هذا الكلام فاضى .. الزواج هنا هو مجرد رجل وامرأة على فراش ..

وأجبره قريبه على أن يعود من حيث أتى ..

وعاد ليلتقى بسهيلة ويبلغها فشله .. واستراحت سهيلة .. حمدت الله لأنه لم يتقدم إلى عائلتها .. وأعطته فى هذا المساء أكثر مما تعودت أن تعطيه .. حققت له الزواج كما يتصور أهلها الزواج .. رجل وامرأة فى فراش ..

ومرت بضعة أيام ..

وجلس يطل عليها من تحت ستار الحصير ، فلم يرها .. انتظر طويلا ، ولم تظهر وأسرع إلى البواب يسأله أين هى .. وأجابه البواب بأن أهلها جاءوا فى الصباح وأخذوها وعادوا بها إلى بلدتهم .. وبدأ فكره وأعصابه يقودانه إلى الجنون ، وقبل أن يجن إذا برنين جرس الباب فى منتصف الليل ينطلق صارخا .. وفتح الباب .. إنه قريبه الذى يعمل فى بلدة سهيلة جاء إليه وهو يندفع نحوه صارخا :

– اجمع حقائبك حالا .. ستترك البيت الآن وقد حجزت لك مقعدا فى طائرة متجهة إلى روما فى الصباح .. لقد عرف أهلها القصة كلها .. إنك مجنون .. البلدة كلها تتربص بك ..

ولم يكثر المجادلة ..

وجمع حقائبه ، وترك مفتاح السيارة لقريبه .. السيارة التى كانت كل ما امتلكه من هذا البلد .. وقضى الليل مع قريبه ، فى بيت صديق ، وسافر فى الصباح التالى ..

وسهيلة ترسل له الخطابات فى القاهرة .. وأعطته عنوانا بعيدا عن بلدتها ، وأصبح يرد عليها ..

وتزوجت سهيلة ..

وأصبحت تتاح لها أيام متباعدة تسافر خلالها إلى القاهرة بصحبة عائلتها الجديدة أو تسافر إلى أوروبا ..

وتلتقى هنا وهناك بصلاح ..

هكذا أراد لهما المجتمع العربى المتباعد والمتعارض بعضه مع بعض .

كلمـــة

المظاهر الاجتماعية – سواء المظهر الشعبى أو المظهر الرسمى – تصل مع الزمن إلى أن تصبح أقرب إلى التقاليد الراسخة التى يقوم عليها البناء الاجتماعى كله ..

وأصعب ما يواجه الفكر المتطور هو التغلب على هذه المظاهر .

وأذكر أنه فى الأيام الأولى من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تقرر إلغاء حق الوزير فى أن تخصص له الدولة سيارة ، وعلى كل وزير أن ينتقل بسيارته الخاصة ، فإن لم يكن يملك سيارة فإنه ينتقل بالترام أو الأوتوبيس كباقى أفراد الشعب .. وكان الشيخ أحمد حسن الباقورى ، وزيرا للأوقاف .. ويقيم فى مدينة حلوان ، وكان يبقى فى القاهرة لمواصلة الاجتماعات حتى ساعة متأخرة من الليل ، ثم يذهب إلى محطة باب اللوق ليستقل القطار إلى حلوان فيجد أن مواعيد القطارات قد انتهت ، ولم يكن يملك سيارة خاصة ، فيضطر إلى أن يتوجه إلى أى مسجد قريب وينام فيه بدلا من أن ينام فى بيته ..

ولا شك أن هذا القرار قد اتخذ نتيجة اندفاع وتطرف الأحاسيس الطبقية التى قامت الثورة ضدها ، وكان من بينها أن الذى يتولى الوزارة يصبح ممثلا لطبقة من حقها أن تستولى على سيارة يدفع ثمنها الشعب ، والثورة تريد أن تقضى على هذه الطبقة ، وتريد أن يكون الوزير مجرد واحد من أفراد الشعب يتساوى مع الجميع فى الحقوق والواجبات .. ولكن .. لم تمض أسابيع على استقرار الثورة حتى تبين أن عمل الوزير ومسئوليته ومظهره ، يختلف عن مسئولية ومظهر الفرد العادى من أفراد الشعب ، وأنه يجب أن تخصص له الدولة سيارة رسمية تسهل له انتقالاته وتوفر له المظهر اللائق .. وأصبح لكل وزير سيارة .. بل تطورت الحقوق بعد الثورة إلى أن أصبح لكل وزير ثلاث سيارات .. واحدة مخصصة له ، وواحدة للعائلة ، وواحدة احتياطى .. ومع عودة السيارات إلى الوزراء عادت كل مظاهر وتقاليد الحكم التى كانت قائمة قبل الثورة ..

ونفس التجربة حدثت بالنسبة لكل المناصب والمراكز الرئيسية .. كمناصب السفراء ، أو رؤساء مجالس الإدارة .. فقد قفزت الثورة بمجموعات من صغار الضباط أو صغار الموظفين إلى المناصب الرئيسية ، ووجد كل منهم نفسه فجأة سفيرا ، أو رئيسا لمجلس إدارة ، ووجد نفسه مسئولا عن الاتصال والتعامل مع المجتمعات الخارجية الراقية .. واحتار كيف يشكل حياته من جديد ، وكيف يحيط نفسه بمظهر اجتماعى يتناسب مع ضخامة المنصب الفخم الذى وصل إليه ، ولم يجد إلا أن ينتقل ويقلد كل ما كان يجرى فى المجتمع الأرستقراطى الذى كان قائما قبل الثورة .. وقد وصل بعضهم فى التقليد ، مع الجهل ، إلى

حد يثير الشفقة ويثير الضحك ، وهو ما أثار فى خيالى كثيرا من القصص التى كتبتها ونشرتها .

وأذكر أنى كنت مكلفا ضمن الوفد المرافق للزعيم جمال عبد الناصر فى أول زيارة خارجية يقوم بها بعد الثورة ، وكانت زيارة ليوغوسلافيا .. وقبل موعد الزيارة بأسابيع اتصل بنا مكتب كبير الأمناء برياسة الجمهورية ، وحدد لنا الملابس التى يجب أن يحملها كل منا معه ، ليحضر بها الحفلات والاستقبالات الرسمية .. وكانت نفس الملابس التى ترسمها التقاليد أيام الملكية مع تغير طفيف ، كأن تكون بدلة ، الفراك ، المخصصة لحضور حفلات السهرة ، بلا ذيل بعد أن كانت بذيل .. بل إن كبير الأمناء حدد لنا الترزى الذى كان متخصصا فى صناعة ثياب الطبقة الأرستقراطية القديمة ، واسمه ، دليا ، . وذهبت إلى ، دليا ، ودفعت سبعين جنيها ثمنا للملابس الرسمية التى حددها كبير الأمناء .. وحملت حقائبى وسافرت مع الوفد ..

وكان المفروض أن الزعيم عبد الناصر سيرتدى نفس الملابس التى كلفنا بها فى أول حفلة ساهرة أقيمت فى الليلة الأولى من وصوله ..

لبست البدلة الرسمية .. ، فراك ، بلا ذيل .. وكنت ألعن ساخطا ، فأنا أضيق بالقمصان المنشاة ، وأضيق بأربطة العنق ، وأضيق بالرسميات .. وذهبت إلى حفل ، وإذا بى أفاجأ ، ويفاجأ كل من معى ، بأن جمال عبد الناصر لا يرتدى البدلة الرسمية ، بل يرتدى بدلة ضابط عادية .. وعرفنا فيما بعد أنه قبل الحفل وقف فعلا ليرتدى بدلة السهرة الفراك بلا ذيل ، ولكنه لم يتم محاولة ارتدائها ، وألقى بها بعيدا فى قرف ، وارتدى بدلا منها البدلة العسكرية ..

ومن يومها تقرر إلغاء كل الأزياء الرسمية القديمة .. الردنجوت ، والفراك ، والأسموكن .. و .. و .. وتحريمها على كل العاملين بالسلك الدبلوماسى وعلى كل الرسميين ، والاكتفاء بالأزياء العادية الغامقة اللون .. والبدل التى صنعتها أنا لا تزال من يومها فى الدولاب ، وضاعت علىّ السبعون جنيها التى دفعتها للترزى ..

ومن المظاهر التى تمكنت تمكن التقاليد الثابتة .. الألقاب .. باشا ، وبك وأفندى .. وقد ألغت الثورة هذه الألقاب ، ولكنها لا تزال حتى اليوم تعيش على ألسنة الناس ، ولا تزال عنصرا من عناصر التكريم والاحترام .. وقد أرادت الثورة أن تختار لقبا يحل محل هذه الألقاب ، واختارت لقب ، سيد ، ولكن هذا اللقب لا يزال يفتقد الأصالة ، ويفتقد الشعبية ، بل أصبح يتجاهل حتى فى المخاطبات الرسمية ، وفى الصحف .. واللقب الذى لا يزال أكثر استعمالا وأكثر شعبية هو لقب ، بيه ، أى ، بك ، وهو يستعمل حتى فى مخاطبة كبار

الموظفين بعضهم لبعض .. لقب ، افندى ، بدأ يذوب ويختفى . وإن كان لا يزال يستعمل .. أما لقب ، باشا ، فهو يستعمل اليوم للتدليل والدلع .. يا باشا .. وإن كان كل من كان يحمل لقب ، باشا ، لا يزال يحمله فى المجتمع الذى يعيش فيه كما ينشر اللقب كاملا حتى اليوم . فى صفحة الوفيات .. أما اللقب الذى اصبح أكثر شعبية بعد الثورة فهو لقب ، أستاذ ، ولقب ، دكتور ، بصرف النظر عن القيمة العلمية لهذا الأستاذ أو هذا الدكتور ..

والحركة النسائية ..

إن الحركة النسائية فى مصر بدأت ، ومرت ، ولا تزال تمر وسط صراع عنيف بين الفكر المتطور .. والإحساس للرجل المرتبط بكل التقاليد القديمة .. إن الذى يعانى من هذا الصراع الرجل ، اكثر مما تعانى منه المرأة .. فالرجل المثقف لا يستطيع إلا أن يستسلم لفكره الذى يدعو الى انطلاق المرأة فى الحياة العامة ، وحقها فى تحمل المسئولية الاجتماعية بجانبه .. ولكنه هو نفسه لايستطيع أن يتخلص من تأثير مجتمع المرأة الذى عاشت فيه أمه ، وخاصة أن الرجل العادى من طبيعته أن يعتبر أمه المثل الأعلى للمرأة .. ولذلك فكثير من المفكرين تتعارض اراؤهم فى الحركة النسائية مع موقفهم من المرأة داخل بيوتهم ، فقد يدعو الواحد منهم الى حرية المرأة ، ودعوته تشمل كل النساء ، إلا زوجته ، وابنته ، وأخته ..

وعندما بدأت الحركة النسائية منذ أكثر من خمسين عاما ، كانت التقاليد أقوى من التطور الفكرى ، حتى إن هدى شعراوى عندما نزعت الحجاب عن وجهها قامت ضدها حملة عنيفة تتهمها فى عرضها . وقاسم أمين عندما بدأ يدعو إلى حرية المرأة اتهم هو الآخر فى عرضه ..

ومع التطور بدأ الفكر الحر يجد طريقا ينفذ منه خلال التقاليد القديمة ، ثم كان من أقوى الدوافع إلى تحرير المرأة ، هو تطور الوضع الاقتصادى خصوصا بعد الثورة ، فقد أصبحت الحالة الاقتصادية تدعو الفتاة إلى أن تعمل ، ولم تعد تستطيع أن تلقى كل ثقلها على الرجل .. فإن الرجل - زمان - عندما يتقدم للزواج من فتاة يسأل : ابنة من هى ؟ حتى يقيس مدى إعانة ابيها لها فى حياتها .. أى كانت الفتاة تقاس بقيمة ثروة أبيها .. أما اليوم وبعد أن تفتتت الثروات ، أصبح الرجل عندما يتزوج يسأل : هل تخرجت هذه الفتاة فى الجامعة وماذا تعمل وكم مرتبها .. ليس هذا عيبا ولا ضعفا ، إنه بناء صحيح للمجتمع العائلى .. أى أن المرأة فى الطبقة العليا ، والطبقة المتوسطة ، بدأت تعيش حياة المرأة الفلاحة .. فالمرأة الفلاحة طول عمر التاريخ تعيش مكشوفة الوجه ، وتعمل ، وتشارك فى المسئولية العائلية ، لأن الحياة الاقتصادية كانت تفرض على الرجل أن يتركها تعمل .. وعندما تعمل المرأة فقد حصلت على حريتها ..

وليس معنى هذا أن الصراع انتهى بين الفكر الحر المؤمن بالتطور ، والتقاليد القديمة التى لا تزال متمكنة حتى من أحاسيس أصحاب الفكر الحر .. وهو ما انتهى إلى أننا أصبحنا نعيش بعد الثورة ، وكل عائلة أو كل بيت له مستوى خاص فى التوفيق بين مدى حرية المرأة ، ومدى الارتباط بالتقاليد القديمة .. وجمال عبد الناصر نفسه كان يحس بهذا الصراع .. وأذكر أنه فى أحد مؤتمرات الاتحاد الاشتراكى ، قام أحد الأعضاء ، وكان شيخا لأحد جوامع الاسكندرية ، وأثار حملة عنيفة ضد الحريات الممنوحة للمرأة ، فأجابه جمال عبد الناصر بأن حرية كل امرأة هى من اختصاص عائلتها ، أى أنه لا يستطيع أن يصدر قانونا ينص على أن تخرج المرأة من البيت فى الساعة كذا وتعود فى الساعة كذا ، أو تعمل كذا ، ولا تعمل كذا ، أو ترتدى هذا الثوب ولا ترتدى هذا .. إنما كل هذا من اختصاص العائلة ..

ولا شك أن جمال عبد الناصر كمفكر حر متطور كان يؤيد الحركة النسائية ، وفى أيامه منحت المرأة الحق فى أن تكون نائبة ، ووزيرة .. ولكن لا شك أنه كان أيضا متأثرا بالتقاليد القديمة فى بيته ، فهو وإن كان قد سمح لابنتيه بأن تكملا دراستهما فى الجامعة ، ثم تعملان بعد التخرج فى وظائف عامة .. إلا أنه كان يحدد مجالات مساهمة السيدة حرمه فى تحمل المسئوليات العامة ، ومساهمتها فى النشاط النسائى .. ولأن عبد الناصر كان الزعيم ، فقد كان يتبعه كل رجل مسئول فى حياته العامة ، ويتخذ من حياته العائلية مثلا له ، فأصبحت كل عائلات الطبقة المؤثرة تحد أيضا من نشاط الزوجات فى الحياة العامة وتحد من مساهمتهن فى تطور الحركة النسائية ، ومن تحملهن المسئولية الوطنية والاجتماعية .. ولا شك أن هذا أضعف من الحركة النسائية أيام عبد الناصر رغم كل ما أداه لهذه الحركة .. ولا شك أيضا أن مساهمة حرم الرئيس أنور السادات فى الحياة العامة وفى تحمل المسئولية الاجتماعية ، قد دفع كل زوجات الطبقة المؤثرة إلى السير معها والنهوض بالحركة النسائية ..

ثم ..

هناك ناحية أخرى أوسع وأهم لا تزال متأثرة بالتقاليد والأوضاع القديمة ، ولم تتطور إلى حد الخروج من هذه التقاليد ، رغم كل ما وصل إليه الفكر الحر ، ورغم كل ما حققته الثورة ..

وقد كان أحد الأهداف والمبادىء الأساسية للثورة هو التقريب بين الطبقات بعد أن قضت على الطبقة الإقطاعية الرأسمالية ، دون أن تقضى على واقع قيام الطبقات الثلاث .. الطبقة الغنية .. والطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة ، أو ما تسمى رسميا الطبقة المعدمة .. والتقريب بين الطبقات الذى كانت تسعى إليه الثورة - على قدر فهمى - هو أن يصبح العمل

هو العنصر الذى يجمع بين الطبقات الثلاث ، دون حساب قيمة الدخل الذى يحققه هذا العمل .. أى أن العامل الذى يكسب عشرة أو عشرين جنيها فى الشهر ، له نفس الاحترام الاجتماعى . ونفس الحقوق الاجتماعية ، التى يصل إليها موظف يكسب مائة أو مائتى جنيه فى الشهر .

وهذا لم يتحقق حتى اليوم ..

لا لأن الطبقة الغنية لا تريد أن تنزل بمستوى احترامها لنفسها إلى مستوى الطبقة الفقيرة فحسب ، ولكن لأن الطبقة الفقيرة أيضا لا تريد أن ترتفع بمستوى احترامها لنفسها إلى مستوى الطبقة الغنية ..

أى أن الرجل الذى يكسب مائة جنيه لا يريد أن ينسى أن الآخر يكسب عشرين ..

والرجل الذى يكسب عشرين لا يستطيع أن ينسى أن الآخر يكسب مائة ..

رغم أن كلا منهما يعمل عملا شريفا ..

والعمل الشريف هو وحده الذى يساوى بين الناس ..

وكانت هذه هى قصتى ، أو مشكلتى ، مع صديقى إبراهيم .. إن كان لا يزال معترفا بصداقتى ..

□

أنا لا أكذب.. ولكنى أتجمل

عرفت خيرية قبل أن أعرف إبراهيم .. إنها ابنة صديق من أساتذة الجامعة ، ورغم أنها الابنة الوحيدة المدللة ، ورغم أنها جميلة ، ولها ذوق رائع فى اختيار ثيابها يوفره لها ثراء عائلتها إلا أنها أيضا فتاة جادة ، ورثت عن أبيها حب العلم ، متفوقة دائما فى دراستها الجامعية ، ومصممة على أن تتخرج بنسبة نجاح عالية ، حتى تبدأ حياتها العامة كمعيدة فى الجامعة ، ثم أستاذة كأبيها ..

وخيرية هى التى قدمت إلىّ إبراهيم عندما كنت يوما فى زيارة والدها ، وهو زميلها فى الجامعة .. شاب أسمر وسيم ، يهتم بمظهره دون مبالغة ، وربما كان كل ما لفت نظرى فى مظهره هو أن حذاءه كان نظيفا جدا إلى حد أنه يلمع كأنه يبرق ، وقدرت أنه هو الذى يقوم بتنظيف حذائه بنفسه ، لأن كل هذا اللمعان يحتاج إلى تعمد أو إلى هواية ليست من طبيعة أجير أو شغال يمسح الحذاء .

وأعجبت بإبراهيم منذ اللقاء الأول ، إنه كخيرية جاد فى كل فكره ، وهو لا يتكلم كثيرا وعندما يتكلم تحس أنه يتكلم لا لمجرد شهوة الكلام ، ولكن لأن هناك موضوعا يستطيع أن يتكلم فيه ، ورأيا يريد أن يقوله .. ومعلوماته أوسع من دراسته فى الجامعة .. يدرس فى كلية علمية ، ولكن معلوماته تتسع لتشمل السياسة والأدب ، وتحس من كلماته أنه يهوى القراءة وأنه قرأ كثيرا ..

وتوطدت الصداقة بينى وبين إبراهيم .. كان كل منا يجرى مع الآخر حوارا يجمع بين جيلين .. الجيل الجديد .. والجيل القديم ، أى أنا .. حوارا

هادئا ليس فيه تعالى من الجيل القديم على الجديد ، ولا سخرية من الجيل الجديد بالقديم .. وكان إبراهيم يزورنى أحيانا مع خيرية ، وأحيانا وحده ، وكان واضحا أن الزمالة بين خيرية وإبراهيم قد تطورت إلى صداقة ، وأن الصداقة تطورت إلى حب ، وأن الحب قد ينتهى بزواج .. وأنا أفرح وأبارك هذه الصداقة التى تتطور إلى حب ثم إلى زواج .. إن الحب كما كتبت كثيرا ، يبدأ كأنه طفل يولد وليس فيه من مظاهر الحياة إلا صرخات حلوة وتنهدات كأنها مقدمة موسيقية للحن الحياة .. ويكبر .. ويكبر .. إلى أن يصبح آدمية كاملة .. فالحب كالطفل محتاج إلى وقت طويل حتى يكتمل ويصل إلى سن الزواج ، والذى يضمن له هذا الوقت هو الزمالة والصداقة المتطورة إلى حب ثم إلى زواج .. وهو غالبا زواج ناجح سعيد ، أنجح من الزواج الذى يتم نتيجة ميزان أشبه بميزان فى دكان بقال ، كل من الفتى والفتاة يشترى الآخر ويدفع ثمنه .. وكانت عائلة خيرية تعترف وتبارك هذا الحب ، وأقوى ما يصون الحب ، ويحتفظ به نظيفا طاهرا ، هو أن يعيش فى حماية العائلة ، لا عائلة الشاب وحدها ولكن عائلة الفتاة أولا ..

ولم أكن أعرف شيئا عن عائلة إبراهيم ..

ولم يكن إبراهيم يتحدث أبدا عن عائلته ..

وفى كلمات عابرة متباعدة كنت أسمع أن والد إبراهيم مزارع يقيم دائما فى القرية لأنه مريض ، وأن إبراهيم يقيم فى القاهرة فى بيت خاله بحى جاردن سيتى ، وأن خاله منعزل ويفرض على العائلة كلها الانعزال ، فلا يسمح بدعوة أحد إلى البيت ..

ولم أكن أهتم كثيرا بالتعرف على عائلة إبراهيم ، كان يكفينى ما أعرفه عن تفوقه الدراسى ، وما نتناقش فيه من قراءاته .. ولم تكن عائلة خيرية أيضا تهتم بالتعرف على عائلة إبراهيم .. لم يحن الوقت بعد للاتصال بين

العائلتين ، ويكفى ثقتهم به ، واطمئنانهم إلى خلقه .. وخيرية نفسها لم تكن قد زارت أبدا إبراهيم فى بيت خاله ، ولا دعاها يوما إلى القرية للتعرف على أمه وأبيه .. لم يحن الوقت بعد .

ومضى أكثر من عام على صداقتى وإعجابى بإبراهيم ..

ثم .. حدث أنى ذهبت إلى المقابر لأؤدى واجبا عائليا فى الذكرى السنوية لوفاة أحد انسباء العائلة .. وما كدت أهم بدخول مبنى المدفن ، حتى رأيت إبراهيم خارجا من الغرفة المقامة عند المدخل وهو مرتد بيجامة وفى يده كتاب ..

تقابلنا وجها لوجه ..

ومددت له يدى قائلا وأنا غارق فى الدهشة :

- إبراهيم .. كيف حالك ..

ورأيت إبراهيم كأنه يرتعش .. ووجهه تمتص الرعشة لونه ، ويده التى امتدت إلى يدى باردة كالثلج .. وقال فى صوت مخنوق :

- أهلا يا فندم ..

وقلت وأنا أقاوم المفاجأة وأحاول أن أبتسم :

- ماذا أتى بك إلى هنا ..

وشد إبراهيم يده من يدى بسرعة وقال كأنه يهم بالبكاء :

- عن إذنك يا فندم ..

ثم تركنى دون أن يرد على سؤالى ، وخرج إلى الشارع وهو بالبيجامة ، واختفى بعيدا عنى .. وجاء نسيبى صاحب المدفن يسألنى بعد كلمات العزاء :

- هل تعرف إبراهيم ..

قلت :

- أعرفه .. ولكن ماذا جاء به إلى هنا .. هل تعرفونه ..

- إنه يقيم هنا .. إنه ابن عم مدبولى بواب المدفن .. إبراهيم نفسه ولد فى هذه الغرفة ، وهو الآن طالب فى الجامعة .. وهو متفوق .. كان من أوائل التوجيهية .. و .. و ..

وتركت صاحب المدفن يتكلم عن إبراهيم وعن تفوقه كطالب وعن المستقبل الذى يحلم به ، ويتحدث عن أبيه الذى مر عليه فى خدمة المدفن أكثر من ثلاثين عاما ، ويقيم فيه داخل هذه الغرفة المخصصة للبواب .. وكان عم مدبولى يضع كل عمره فى تربية ابنه الوحيد إبراهيم ، أدخله المدارس ثم الجامعة ، واحتفظ له بالمظهر اللائق فى المدرسة وفى الجامعة .. وكان يعمل بنفسه دون أن يطلب من إبراهيم أن يعمل هو الآخر ليساعده على تكاليف الحياة أو على تكاليف دراسته ومظهره .. إنه لا يتقاضى مرتبا أكثر من خمسة جنيهات فى الشهر ، بجانب الغرفة المخصصة له ولعائلته ، ولكنه يعمل أيضا مساعدا فى المدافن الأخرى ليحصل على بضعة جنيهات ، وزوجته - أم إبراهيم - كانت تعمل أيضا .. تعمل بالغسيل .. غسالة .. تتردد على بيوت العائلات لتغسل ، ولكنها منذ مدة تعبت ، لم تعد قادرة على الغسيل ، ربما تعمل فى عمل آخر .

وكنت أستمع إلى كل هذه التفاصيل عن حياة إبراهيم وعائلته ، بسؤال يلح ويضرب فوق رأسى كأنه المطرقة :

- هل تعرف عائلة خيرية كل هذا ؟

- لا تهم العائلة .. ولكن خيرية نفسها هل تعلم ؟

وعشت أياما طويلة وأنا حائر .. ربما كانت خيرية تعلم وتتستر على إبراهيم بالكتمان ، وربما لم تكن تعلم شيئا وتعيش ملفوفة داخل كذبة إبراهيم .. لا أدرى .

ومضى أكثر من شهر ، وإبراهيم لا يتصل بى ليفسر لى حقيقته ، وأنا

أتعمد ألا أزور خيرية ووالدها حتى لا أكلف نفسى معاناة كتمان الحقيقة عنهما ..

وأخيرا جاء إبراهيم ..

ونظرت إليه بكل عينى كأنى كنت أتوقع أن يكون شكله قد تغير .. ولكن لا شىء فيه تغير .. وسامته واهتمامه بمظهره .. وحذاؤه الذى يلمع إلى حد البريق ..

ولم أبدأ بسؤاله ، بل انتظرت صامتا إلى أن بدأ يتكلم .. وصوته ليس محشرجا كما كنت أتوقع .. ولكنه ليس صوتا متفاخرا بعلمه كما عودنى أن أسمعه .. وقال وعيناه مركزتان فوق حذائه اللامع :

– ترددت كثيرا قبل أن ألقاك ، ولكن كان يجب أن ألقاك ، أنت الآن تعلم كل شىء ..

وقاطعته بسرعة :

– وهل خيرية تعلم كل شىء ؟

ورفع عينيه إلـىّ كأنه فوجىء بمقاطعته ، واستطردت قائلا :

– إنها ابنة صديقى وأحس بها كأنها ابنتى .. هل تعلم خيرية كل شىء ؟

ونكس رأسه ، وقال فى صوت خافت :

– لا .. لا تعلم شيئا ..

قلت فى حدة :

– لمـاذا ؟

قال فى أسى :

– لأنى لا أستطيع أن أنزل بها إلى مستوى عائلتى ..

قلت :

– ولكن تستطيع أن تكذب لترتفع إلى مستوى عائلتها ..

قال محتدا وهو يرفع إلـىّ وجها غاضبا :

أنا لا أكذب .. ليس هذا كذبا .. إن كل ما يهم خيرية هو أنا .. شخصيتى .. وأنا أقدم لها شخصية صادقة فى كل أفكارها ، وفى كل طبائعها ، وفى كل آمالها .. أما أبى فماذا يهمها من أبى ، وماذا يعمل أبى ، وأين يسكن أبى .. ؟

قلت فى هدوء :

– لو لم يكن يهمها أبوك لما تعمدت أن تكذب عليها ..

قال :

– لا تسمه كذبا .. إنه مجرد ستر عورة ، أو هو عملية تجميل اجتماعى لنفسى ، وعمليات التجميل لا تعتبر كذبا ، ولكنها محاولة إلى الوصول إلى الأحسن والأجمل .. إن المرأة التى تقص أنفها الكبير ليصبح صغيرا لا تكذب .. والفتاة التى تضع فوق رأسها باروكة لا تكذب .. انظر .. إن هذا القميص الذى أرتديه لا يمثل مجتمع أبى .. أبى يرتدى الجلباب .. والبيجامة التى رأيتنى أرتديها لم تدخل عائلتنا إلا أخيرا .. وكل هذا ليس كذبا ، إنه نوع من الوصول إلى الأرقى .. وأكثر من ذلك .. إنى أعرف أن كثيرا من الوزراء لا يصلون الجمعة إلا إذا دعوا دعوة رسمية ليصلوا مع الرئيس أو مع ضيف كبير ، وغير هذا فهم لا يصلون لا الجمعة ولا السبت ولا الأحد .. ومع هذا لا أحد يتهمهم بالكذب ، لأنه مجرد استكمال لمظهر اجتماعى دون أن يطالبهم أحد بأن يقف كل منهم ويقول للمصلين .. حضرات السادة أنا لا أصلى ، ولكنى جئت للصلاة فقط بناء على أوامر رسمية .. والله نفسه لا يرفض صلاتهم المفتعلة ، لأنها لا تهدف إلى شر .. ثم ما تراه فى التليفزيون وما نسمعه فى الإذاعة هل هو يعبر عن الفلاح والعامل .. هل الفلاح يلبس هذا الجلباب النظيف ، ويقيم

فى هذا البيت المرتب .. وهل العامل يتكلم بنفس المنطق والأسلوب الذى تسمعه به فى الإذاعة .. وهل هى أكاذيب .. هل كل ما تراه فى التليفزيون وتسمعه فى الإذاعة أكاذيب لا .. لا أحب أن أسميه أكاذيب .. إنها مجرد عملية تجميل للمجتمع ، أو هى دعوة خيرية كأننا نقول للفقراء : « روح ربنا يفتحها عليك ، وتصبح فى هذه الصورة التى نتمناها لك » .. وأنا .. ماذا يهم إذا قلت إن أبى مزارع يقيم فى القرية وهو بواب يقيم على باب مدفن .. إنها مجرد صورة أتجمل بها ، ما دام أحد لن يتعامل مع أبى كمزارع ولا كبواب ، فأنا لا أغش .. ولا أكذب .. فقط أتجمل ..

قلت محتفظا بهدوئى :

– إنك تعتبر وضعك الاجتماعى عورة ..

قال صارخا :

– لست أنا ، ولكن المجتمع الذى يحيط بى هو الذى يعتبر وضعى عورة .. إن مشكلتى ليست بينى وبين خيرية ، إنها مشكلة بينى وبين المجتمع كله .. وأنت تعيش داخل خيالك فلا تعرف كيف يتعامل الناس بعضهم مع بعض .. إن الناس يحكم بعضهم على بعض بالمكان الذى يقف فيه كل منهم .. بواب .. حانوتى .. حلاق .. رئيس مجلس إدارة .. عامل .. وكيل وزارة .. فلاح .. الصفة الرسمية هى التى تحدد وضع الإنسان فى المجتمع وليست حقيقة ولا أخلاق هذا الإنسان .. إن الناس تقول عن رئيس مجلس إدارة أو وكيل وزارة إنه حرامى ، مختلس ، منافق ، وصولى ، ولكنهم يقفون له فى احترام ، ويتمنى كل واحد أن يكسب صداقته ، أو أن يتشرف بدعوته إلى بيته لتقديمه إلى ابنته وزوجته .. والناس تقول عن بواب أو عن فلاح إنه نظيف ، أمين ، متفان فى عمله ، صادق ، شريف ، ورغم ذلك لا يمد أحد يده ليصافحه ، ولا يفكر أحد فى دعوته ، وإذا اضطر هذا الفلاح أو بواب المدفن أن يذهب إلى بيت من بيوت المجتمع الأرقى ، أدخلوه من باب خاص .. الباب الخلفى ، باب

الفقراء .. إن أبى لو ذهب إلى بيت خيرية اليوم لأدخلوه من باب الفقراء .. من سلم الخدم ..

قلت :

– إنك تنظر إلى الحياة من جانب واحد .. ولكن هناك الجانب الآخر .. جانب الاعتزاز بالنفس .. والإنسان القوى هو الإنسان الذى يعترف بذاته .. يعترف بفقره إذا كان فقيرا .. ويعترف بأنه ابن بواب لو كان أبوه بوابا . لأنه يحس بأنه من القوة بحيث يستطيع أن يتغلب على فقره ويستطيع أن يفاخر بأصله .. والفقراء وأنصاف الفقراء هم الذين حققوا تطور الإنسانية كلها إلى الأرقى والأعلى .. وكل أبطال التاريخ الإنسانى يتفاخرون بأنهم أولاد فقراء ، وبأنهم صعدوا من أسفل إلى أعلى .. وأنت .. إنك لا تعترف بأنك تكذب ، ولكن على الأقل اعترف أنك ضعيف ، لا تستطيع أن تحتمل الواقع الذى تعيش فيه ..

قال وكأنه على وشك الانهيار ويقاوم انهياره بابتسامة ساخرة :

– إنك لا تدرى كم أحتمل .. ولا تدرى الألم الذى أحس به وأنا أقوم بعملية التجميل الاجتماعى لنفسى .. إنى أخرج من الجامعة مع أصدقائى وأركب سيارة معهم وأنزل منها فى حى جاردن سيتى ، ثم أسير على قدمى أكثر من ساعة حتى أصل إلى قرافة المجاورين حيث نقيم .. وأسير فى حوار ضيقة حتى لا يصادفنى واحد من زملائى .. وأذهب لأذاكر فى بيوت أصدقائى وأنا أتعذب لأنى لا أستطيع أن أدعوهم إلى بيتى ، وأجلس على موائدهم لأتناول الطعام وبين يدى أطباق غالية ، وشوك وسكاكين ، وليس فى بيتى أطباق ولا شوك وسكاكين ، وقد ضغطت على أمى حتى تعلمت إعداد « الفطير المشلتت » الذى تشتهر به العائلات الغنية فى الريف ، لأحمله هدية إلى صديق من الأصدقاء ردا على ترددى عليه ، وكأن الفطير جاء إلى من قريتى الوهمية .. وخيرية .. أنت لا تدرى ما أعانيه وأنا

أحبها كل هذا الحب .. إنى أحيانا كثيرة أهرب منها ، ودائما أركز كل فكرى فى المواد التى أتعلمها فى الكلية ، أو فى الكتب التى أقرؤها ، حتى أشغلها دائما بحديث عن الدراسة والعلم ، هربا من الأحاديث الحلوة الخفيفة التى تجمع بين اثنين ، خوفا من أن تصل هذه الأحاديث إلى ذكر عائلتى ..

قلت :

- هل تحب خيرية ..

قال :

- إنها كل شىء بالنسبة لى .. إنها الفرار من الواقع الذى أعيش فيه إلى المستقبل الذى أتمناه ..

قلت :

- ولكنها لا تحبك ..

قال ساخرا فى مرارة :

- أنت لا تدرى شيئا .. إن ما بيننا لا يعرفه إلا أنا وهى ..

قلت :

- صدقنى .. إنها لا تحبك .. إنها تحب شابا آخر له نفس اسمك .. إبراهيم ولكنه ابن مزارع يملك أرضا فى قرية لا ابن بواب مدفن فى قرافة المجاورين ..

قال :

- لا تعايرنى ..

قلت :

- أنا لا أعايرك .. ولكن الحب هو لقاء الكل بالكل .. أى لقاء كلك بكلها .. والكل يشمل الماضى والحاضر والمستقبل .. ويشمل الأصل والواقع .. الكل هو الحقيقة وخيرية لا تعرف الحقيقة حتى تحبها ..

قال :

- ماذا تريدنى أن أفعل ؟

قلت :

أن تقول لخيرية الحقيقة ..

قال وهو يتنهد :

- سأقولها ولكن بعد أن أتخرج فى الجامعة .. إنى أريد أن أقف أمامها قويا وأنا أصارحها .. أريد أن أحقق لها أعز أحلامها وأعطيه لها عوضا عن الحقيقة التى ستفاجأ بها .. وأعز أحلامها هو أن يكون حبيبها أستاذا فى الجامعة كأبيها ، وأنا واثق أنى سأتخرج أول الدفعة ، وسأعين معيدا ، ثم أسافر فى بعثة ، وأعود أستاذا ، وكل هذا وخيرية معى .. لن يهم أن يكون أبى بواب مدفن ما دمت أنا قد أصبحت أستاذا ..

قلت :

- ليس هذا هو الحب .. إنه تجارة الزواج .. الحب هو أن تحبك وهى تعرف من أنت اليوم ، ويبقى حبها إلى أن تصبح أستاذا .. لو رفضتك اليوم لأنك ابن بواب فلن تحبك وأنت أستاذ .. حتى لو قبلت أن تتزوجك .. صدقنى .. قل لها الحقيقة ..

قال وهو ينتفض واقفا فى ضيق :

- سأحاول ..

وانصرف ..

ومضت أيام طويلة ..

وبدأت أتعمد زيارة صديقى أستاذ الجامعة ، لأجتمع بخيرية ، لعلى أعرف ما حدث .. ولكن لا شىء .. وكنت أسألها :

- ما أخبار إبراهيم ..

وترد ضاحكة :

- إنه مصمم أن يكون أول الدفعة .. مشغول .. مشغول دائما .. هل تدرى لقد بدأ يتلقى دروسا فى اللغة الروسية .. إنه يعتقد أن آلات المصانع لكل منها لغة يتفاهم بها معها .. اللغة التى صنعت وولدت بها .. وما دمنا نستورد الآلات من روسيا فيجب أن يتعلم لغة روسيا حتى يخاطب بها الآلة ..

وأقول وأنا أحاول أن أضحك معها :

- وأين هو الآن ..

وأجابتنى :

- سافر إلى البلد منذ عشرة أيام ومعه مائة كتاب .. أبوه مريض ..

ومرت أيام أخرى ، وإبراهيم لا يتصل بى ، وأحس أنه يتهرب من خيرية ، ويستطيع دائما أن يجد الأعذار التى يتهرب بها منها .. وقدرت أنه يجتاز أزمة نفسية عنيفة ، ربما كان سرها أنه لا يستطيع أن يواجه خيرية بحقيقته ، بعد أن عاش عامين يخفيها عنها ، كما أنه فى خوف دائم من أن أقول أنا الحقيقة لخيرية ، وينتظر أن يتلقى النتيجة ..

وقدرت أن الحل الوحيد لعلاجه هو أن أحقق ما ينتظره .. أن أقول أنا الحقيقة .. أقولها لخيرية لا لأبيها .. إن البنت هى دائما التى تقرر لا الأب .. وربما كان الدافع الأقوى هو أن لا أترك خيرية تعيش حبها فى كذبة ، حتى لو كانت كذبة بيضاء ، يفرضها مجتمع منافق كذاب ..

ودعوت خيرية إلىّ ، وقلت لها وأنا أضع على شفتى ابتسامة كبيرة كأنى لن أقول لها شيئا هاما :

- كيف حال إبراهيم ..

قالت فى مرح :

- لم يعد من القرية بعد .. حدثنى بالتليفون منذ يومين ..

قلت :

- أرجو أن تزوريه لتطمئنى عليه وعلى والده ..

قالت :

- فى القرية ..

قلت :

- لا .. فى بيته .. فى قرافة المجاورين ..

قالت كأنها أصيبت بالهبل :

- ماذا تقول .. إن بيته فى جاردن سيتى ..

قلت وأنا محتفظ بابتسامتى :

- لا .. إنه يقيم فى قرافة المجاورين فى مدفن .. إن والده هو بواب المدفن ..

ونظرت خيرية إلىّ بكل عينيها ، محتفظة بهدوئها ، وكأنها تحاول أن ترى ما يدور فى داخل عقلى ، ثم قالت فى هدوء :

- أرجوك يا عمى .. كلمنى بصراحة .. ماذا تريد أن تقول ..

ورويت لها القصة كلها ، وأكدت ثقتى بإبراهيم ، وتقديرى للظروف التى تحيط به واعتزازى بأبيه وأمه اللذين كافحا طول العمر من أجله ..

وخيرية تستمع ، ويتقلص وجهها أحيانا كأنها تحس بألم فى صدرها ، وتسرح بنظراتها بعيدا أحيانا كأنها تحاول أن ترى المستقبل ، وعيناها تلمع أحيانا كأنها تهم بأن تستسلم لدموعها .

وقالت ، وهى ترفع أصبعها لتمسح دمعة بللت جفونها :

- ولكن لماذا أخفى علىّ كل هذا ..

قلت :

– لأنه يحبك ، وكان يخاف على حبه من نفسه ..

قالت :

– لأنه يحبنى كان يجب أن يقول لى ..

قلت :

– لم يكن حبكما قد اكتمل .. وهو الآن يشعر باكتماله .. وكان يود لو أنه هو الذى قال لك الحقيقة ولكنه لم يستطع ، فقلتها أنا ..

وتركتنى خيرية وخصلات شعرها تنزلق فوق خديها كأنها تعوضها عن دموعها ..

وبعد يومين ذهبت خيرية إلى إبراهيم ..

ذهبت إليه فى المدفن ..

ولم يكن إبراهيم هناك واستقبلها أبوه وأمه بفرحة وترحاب بعد أن قالت لهما إنها زميلة له فى الجامعة ، وجلست خيرية معهما فى انتظاره وانتظرت طويلا ، وقبلت تناول طعام الغداء مع الأب والأم فى فناء المدفن بين المقابر ..

وجاء إبراهيم ..

ولم يبد عليه أنه فوجىء بخيرية .. وقف جامدا ، وقال فى هدوء :

– كنت أنتظرك .. هنا ..

قالت :

– كنت أتمنى أن تدعونى إلى هنا ..

قال :

– ماذا قررت بعد أن عرفت ..

قالت بعد أن صمتت برهة ، كأنها تقدر وقع القرار عليه :

– قررت أن نبدأ كأننا نبدأ من جديد .. إنى أعرفك الآن كما لم أعرفك من قبل ..

قال :

– ماذا تغير فىّ ..

قالت :

– الذى تغير ليس فيك ولا فىّ .. الذى تغير مجتمع جديد يفرق بين عائلتك وعائلتى يجب أن نجرب الحياة فيه قبل أن نقررها ..

* *

وإلى اليوم لم يأت إبراهيم لزيارتى كما تعود .. ولا ألومه .. إنه لا يزال يعانى من ضربات المظاهر والتقاليد الاجتماعية القديمة التى لم تتغير كثيرا .. رغم الثورة .. ورغم الاشتراكية .. ورغم كل ما حدث .. ولكنى أعرف من خيرية أنها تتردد على بيت إبراهيم فى بوابة المدفن ، وتضحك فى مرح وهى تحدثنى عن ثورة أمه على الفطير المشلتت الذى يكلفها إبراهيم بإعداده لأصدقائه ..

ولكنى بدأت ألاحظ أن خيرية عندما تتحدث عن عائلة إبراهيم تتحدث كأنها سائحة عادت من زيارة منطقة أثرية قديمة .. تتحدث كأنها غريبة عن هذا العالم الذى يعيش فيه إبراهيم .. عالم يثير فيها الشفقة على الناس .. وقد يثير فيها نفس الأحاسيس التى تتحرك فى صدر سيدة من أعضاء إحدى الجمعيات الخيرية تفكر فى مساعدة الفقراء ..

إنها لا تزال محتفظة بنفسها بعيدا عن هذا العالم ..

إنها مجرد متفرجة ..

وإبراهيم واحد من هذا العالم الذى تتفرج عليه ولا تعيش فيه .

ثم إنها لم تبلغ عائلتها بحقيقة وضع إبراهيم الاجتماعى ، كأنها تخجل من أن تواجههم بالحقيقة ، أو كأنها قررت أن تهرب من هذه الحقيقة وتبقى معهم - مع عائلتها - فى العالم الأعلى .. أقصد الطبقة الأعلى ..

ومع الأيام بدأ حديث خيرية عن إبراهيم يخفت ، وتكاد لا تتحدث عنه إلا إذا سألتها .. ولا شك أن زياراتها لعائلة المدفن بدأت أيضا تتباعد ، أو أصبحت مجرد زيارة تقوم بها إحدى عضوات جمعية خيرية ..

ولا أرى إبراهيم ..

لعلى أخطأت ..

وخطئى لا يزعجنى ولكن الذى يزعجنى أننا لم نتغير كثيرا بعد عشرين سنة من الثورة ..

كلمـــة

أزمة المساكن ليست أزمة محلية ، إنها أزمة عالمية .. فى كل بلد أزمة .. وبناء المساكن لا يتوقف أبدا ، والأزمة لا تنتهى أبدا ..

وقد أدت أزمة المساكن إلى تغيير فى الوضع الاقتصادى بارتفاع أسعار أراضى ومواد البناء ارتفاعا جنونيا ، وتحولت رؤوس الأموال إلى استغلال الأزمة ، بحيث أصبح كل من يملك مالا يفضل أن يشترى به أرض بناء ، أو شقة فاضية ، وهو ضامن مضاعفة أمواله فى شهور قليلة ، وتحقيق أرباح تصل إلى أكثر من مائة فى المائة ، بدلا من أن يضع هذه الأموال فى البنوك أو فى مشروعات صناعية .. وأذكر أن ثريا عربيا اشترى شققا فى مدينة جنيف بسويسرا علاوة على « الفيلا » التى يملكها هناك .. ودهشت ، وأعتقدت أنه غبى يحاول التظاهر بثرائه أمام من يعرفونه من العرب ، وأنه أشترى هذه الشقق ليتباهى بدعوتهم إليها كلما جاءوه زائرين ، ولكنى ما لبثت أن اكتشفت أنه اقتصادى داهية .. فبعد شهور قليلة استطاع أن يبيع شقة واحدة بالثمن الذى كان قد دفعه لشراء الشقق الثلاث .. أى أن الأسعار ارتفعت خلال شهور أكثر من ثلاثة أضعاف .. وهذا ما يفعله اليوم كل أصحاب رؤوس الأموال .. بل إنى أعرف أن أثرياء عربا اشتروا أراضى بناء فى جزر مجهولة من جزر البحر المتوسط ، ومن جزر المحيط الأطلنطى وهم واثقون أنهم سيستردون أموالهم مضاعفة ..

كما أدت أزمة المساكن إلى تغيير جذرى فى الهندسة المعمارية ، فضاعت الخطوط الزخرفية القديمة ، وبدأت هندسة العمارات الشاهقة تتغلب على هندسة البيوت الصغيرة ، وبدأ الفن الهندسى يسعى إلى إقامة السقوف المنخفضة التى تكاد تلامس رأس الساكن ، وإلى الشقق الضيقة التى تضم غرفة أو غرفتين .. كما تغلب بناء المساكن الجاهزة على المساكن التفصيل .. فكما أصبح الناس يشترون الملابس الجاهزة ، والأحذية الجاهزة ، ويتركون التفصيل عند الترزى وعند الجزمجى ، وهى النتيجة الحتمية لزيادة الطلب على العرض ، فكذلك حدث فى بناء العمارات .. حوائط تستورد جاهزة وكل الأدوات جاهزة ، ولا يكلفك بناء العمارة سوى التركيب الذى لا يتطلب أكثر من واحد على خمسين من الوقت الذى كان يستغرقه البناء على الطريقة القديمة .. أى البناء بالتفصيل .. وهذا التطور الهندسى يقضى على كل جمال الأحياء السكنية القديمة ، وكل ما فيها من فن ، وذكريات تاريخية ، وكل ما فيها من هدوء .. وقد كنت فى باريس .. فى الصيف الماضى ، وذهبت إلى حى مونبارناس القديم ربما لأسترد ذكريات شبابى .. وفوجئت إلى حد الذهول .. أنى لست فى باريس .. أنا فى نيويورك .. فأمامى عشرات من ناطحات السحاب وضجيج وأنوار .. لقد ضاعت شخصية باريس .. العاصمة العريقة التى كان الناس يعيشون فى تاريخها أكثر

مما يعيشون فى حاضرها .. وضاعت شخصية حى مونبارناس ، الحى الشعبى المجنون .. وأمامى ناطحة سحاب لم يتم بناؤها بعد وهى تبنى على الطريقة الحديثة .. طريقة تركيب الجاهز .. وأدهشنى قلة عدد العمال الذين يقومون بالبناء ، إن عددهم لا يزيد على عدد ركاب سيارة أتوبيس فى القاهرة .. والذى يقوم بالعمل هو الآلة .. آلة تحمل الحوائط الجاهزة ، وآلة ترفعها ، وآلة تضعها مكانها وتركبها .. و .. إن بناء العمارة الضخمة قد لا يستغرق إلا بضعة شهور .. ورحم الله مونبارناس ..

والذى أدت إليه أزمة المساكن ولا يزال فى حاجة إلى دراسة جادة تثير الاهتمام خصوصا فى مصر ، هو تأثيرها الاجتماعى .. إن المجتمع كله يتغير نتيجة أزمة المساكن مثلا .. إن سن الزواج ترتفع إلى أعلى مما يحدده القانون ، لأن الزواج يحتاج إلى مسكن ، والمسكن يحتاج إلى انتظار طويل حتى تجد شقة خالية ، وقد تعلن الخطوبة بين فتى وفتاة ويظلان سنوات بلا زواج إلى أن يجدا الشقة .. ونفس التأثير حدث بالنسبة للطلاق ، فإن الطلاق يتطلب أن يبحث أحد الطرفين عن شقة أخرى منفصلة يستقر فيها ، ولأنه لا توجد شقة فاضية فهو مضطر إلى تأجيل الطلاق .. ثم الرباط العائلى تغير أيضا .. فإن الأزمة أصبحت تفرض على من يتعرضون لها فى حالة الزواج ، أن تقبل العروس أن تقيم مع عائلة العريس فى مسكن واحد – ولو بصفة مؤقتة – أو يقبل العريس أن يقيم مع عائلة العروس . وبالتالى أصبحت الأزمة عاملا من عوامل تحديد النسل ، أقوى من كل ما تبذله جمعيات تنظيم الأسرة ، لأن كل أب وأم أصبحا يحسبان حساب ما يسعه هذا المكان الضيق من أولاد وبنات .. كما أثرت الأزمة أيضا فى المظهر الاجتماعى للأسرة خصوصا بين الطبقة المتوسطة الغنية .. فالأسرة كانت تصر – احتفاظا بالمظهر الاجتماعى – على أن تكون الشقة مكونة من ست غرف .. مدخل .. وصالة .. وصالون .. وغرفة استقبال .. وغرفة مكتب .. وثلاث غرف نوم .. وقد تتساهل فى مظهرها وتقبل خمس غرف .. وإذا وقعت فى مصيبة فإنها ترضى بأربع غرف .. وكل هذا بدأ يتغير .. أصبحت المصيبة – أى الأربع غرف – هى أعز ما تتمناه الأسرة الجديدة .. وأصحاب رؤوس الأموال الذين يبنون العمارات أصبحوا يفضلون بناء الشقق الصغيرة ، لضمان ربح أكبر ، وهروبا من قوانين تحديد الإيجارات ..

والأزمة تشتد ، والتطور الاجتماعى مستمر ، إلى أن يصل يوما ما فى مصر ، كما وصل فى كثير من دول العالم ، إلى أن تشترك أكثر من أسرة فى شقة واحدة من العمارات التى سبق بناؤها ، أو أن تصبح لكل أسرة حجرة واحدة مع حمام فى العمارات الجديدة .. وهو ما يجعل عائلات الطبقة الواسعة الثراء ، تهرب تحت ضغط الزحام السكانى إلى خارج القاهرة ، كما هربت من قبل من حى شبرا ، إلى حى العباسية ، ومن العباسية الغربية إلى العباسية الشرقية ، ومن جاردن سيتى إلى المعادى أو الزمالك ، ومن الزمالك إلى .. وهو نفس ما حدث من قبل فى مناطق قضاء الصيف فى الاسكندرية نتيجة الزحف الشعبى

على الطبقات الغنية ، فقد كان الشاطىء الذى يضم أفراد هذه الطبقة هو شاطىء ستانلى وزحف عليهم الشعب ، فانتقلوا إلى شاطىء جليم ، ثم إلى شاطىء سيدى بشر ، ثم إلى ميامى ، ثم إلى المنتزه .. والطبقة الراقية بدأت تهاجر من المنتزه ، تحت الضغط الشعبى أيضا ، إلى العجمى ، وفى العجمى بدأت حركة الهجرة أيضا .

وكل ذلك – وأكثر منه – هو نتيجة أزمة المساكن .. أو أزمة ضيق الأرض بسكانها .. ولذلك فإنى أستسلم لخيالى وهو يستقبل أى قصة تثيرها الأزمة دون أن أناقشه .. أى دون أن أرفض خيالى ..

□

انتحار صاحب الشقة

كانت الضجة التى أعقبت المأساة قد بدأت تهدأ داخل البيت .. وفريدة وجهها جامد جاد ، وعيناها مفتوحتان كأنها تنظر بهما إلى بعيد ، وجبينها معقد بخطوط عميقة كأنه ينوء من ثقل الأفكار التى تتزاحم فى عقلها .. وقد بدأت تتحرك فى استرخاء بعد القفزات السريعة والصراخ المستمر الذى ملأت به الساعات القليلة التى مضت منذ وقوع الحادثة .. إنها لم تستطع خلال هذه الساعات أن تبكى ، رغم أنها كانت فى حاجة إلى البكاء ، ولكن دموعها العنيدة المستعصية دائما خذلتها ، فاضطرت إلى الصراخ المستمر حتى تعوض به دموعها .. إن الذين يصرخون هم الذين لا يبكون ..

واتجهت فريدة إلى غرفتها ، وتوقفت عند آلة التليفون ، وفكرت قليلا ، ثم رفعت السماعة وأدارت رقم صديقتها زينب ، وقالت لها فى هدوء :

– هل بلغك الخبر ..

وقالت زينب :

– خــير ..

وقالت فريدة فى برود :

– مات عبد العزيز .. انتحر ..

وصاحت زينب كأنها تزغرد :

– صحيح والنبى ؟ متى ؟ كيف ؟ احكى لى ..

وقالت فريدة فى هدوء :

– ليس هذا وقت الحكايات .. عن إذنك ..

وأعادت سماعة التليفون ودخلت غرفتها وفتحت دولاب ملابسها .. إن عندها ما يكفى من الملابس السوداء ، لن تحتاج إلى شراء المزيد .. إن ما عندها يكفيها أكثر من أربعين يوما .. ولكن ، هل ستخلع السواد بعد الأربعين .. ؟ لا يصح .. إنه زوجها ، ويجب أن تتمسك بمظاهر الحداد على الأقل عاما كاملا .. ولوت شفتيها كأنها تلوم نفسها لمجرد أن يخطر على بالها هذا الخاطر .. وخلعت ثوبها الملون بسرعة وارتدت الثوب الأسود ..

ومضى كل شىء فى حدود الإجراءات العادية .. أقر الطبيب الشرعى واقعة الانتحار ، وأذن بالدفن وأعلن النعى فى الصحف ، وتحركت الجنازة ، واستقبلت فريدة عزاء السيدات ، ولم تستطع خلال هذه الأيام كلها أن تبكى ، وكانت تتذكر فجأة أنه قد مضى عليها فترة طويلة لم تصرخ ولا صرخة واحدة ، فتصرخ ، ثم تميل على جارتها وتقول فى أسى :

– لقد تركنى وحدى ..

ولم تكد تنتهى أيام العزاء ، حتى نادت سعدية الخادمة وصرخت فى وجهها :

– اسمعى يا بنت يا سعدية .. لا أريد أن أرى وجهك فى هذا البيت أبدا .. ابحثى لنفسك عن مصيبة أو داهية تأخذك من هنا .. واسمعى .. ولا مليم .. كفاك ما نهبته من الله يرحمه ..

ونظرت إليها سعدية نظرة ساخرة ، وقالت فى هدوء :

– كنت أعرف ما أنتظره .. الله لا يسامحك يا ستى .

ثم جرت من أمامها خارجة من البيت ..

وأصبحت فريدة وحدها فى الشقة الواسعة .. ولم تحاول أن تبحث عن

خادمة أخرى بعد سعدية ، ولا أن تستدعى أحدا من أفراد عائلتها فى بنها ليقيم معها . إنها تريد أن تكون وحدها .. لأول مرة يصبح من حقها أن تعيش وحدها فى شقة كاملة .. وفى شقة تملكها .. إنها هى اليوم صاحبة هذه الشقة ..

وفى وحدتها تعيش كل عمرها بخيالها .. وتبتسم .. تبتسم للعذاب ، والألم ، والضياع ، والمذلة .. إن الإنسان على قدر ما يعانى من العذاب يبتسم له عندما ينتصر عليه .. كالمقاتل المجروح عندما يبتسم للعدو المستسلم .. ابتسامة النصر .. وهى قد انتصرت ، استسلم لها العذاب بعد أن أثخنها بالجراح ..

وربما لم يبدأ عمرها إلا بعد أن تركت عائلتها فى بنها .. كانت قد حصلت هناك على شهادة الثانوية العامة ، وبمجموع ٧٣ فى المائة وأصرت على أن تلتحق بالجامعة .. لم يكن بين بنات العائلة من وصلت إلى الجامعة من قبل ، وأبوها رغم تفاخره بنجاحها إلا أنه ليس مقتنعا بدخولها الجامعة .. إنه عبء أن يستمر فى الإنفاق عليها ، وهو موظف بسيط محدود الدخل ، ومصاريف حياة ابنته فى القاهرة لا شك ستكلفه أكثر مما يطيق .. ثم إنها تستطيع أن تجد عملا هنا فى بنها بعد أن حصلت على الثانوية العامة أو أن تجد زوجا يريحه من ثقلها .. وأمها لا تفكر فى شىء إلا فى أن تبحث لها عن عريس .. إن ابنتها حلوة ، وحصلت على الثانوية .. أى مثقفة .. وكل من يبحث عن زوجة فى كل أنحاء المديرية لا شك يتمناها لنفسه .. وقد تحدث عنها ابن الحاج إبراهيم عوض الله ، عمدة كفر شبين .. وتحدث عنها محمد أفندى السكرتير بالمحافظة .. كله إلا الجامعة .. ماذا ستخرج به من الجامعة .. إنها نهاية واحدة دائما .. بيت وزوج وأولاد .. وأخوها الأصغر لا يطيق مجرد تصوره أن يترك أخته بين طلبة الجامعة .. وحدها .. وأختها الكبرى تغار منها .. ورغم ذلك أصرت على الالتحاق بالجامعة ، واستطاعت بذكائها وبدموعها ، وبتهديدها بالانتحار ، أن تقنع والدها ..

والتحقت بكلية التجارة جامعة القاهرة ، وجاءت لتعيش فى بيت الطالبات بالمدينة الجامعية ..

ولا تدرى ما الذى دفعها إلى اختيار كلية التجارة ، رغم أن مجموع درجاتها يتيح لها أن تختار أى كلية أخرى .. ربما لأنها عاشت فى رعاية أب مكافح تقتر عليه الدنيا ، فأرادت أن تدرس الوسائل الأسرع فى التخلص من تقتير الدنيا .. تدرس المال ، والاقتصاد ، والإدارة التى تكفل تحقيق الأرباح .. وربما ندمت على هذا الاختيار ، ولكن لم يكن ندمها يسبب لها أى صراع نفسى .. إنما الصراع داخل نفسها بدأ عندما وجدت نفسها تعيش فى بيت واحد وفى غرفة واحدة مع بنات غريبات عنها .. وقد اكتشفت بسرعة أن اكتساب صديقة تعيش معك فى غرفة واحدة أصعب من اكتساب صديقة تعيش بعيدة عنك .. إن الصديقة التى تعيش معك تعيش فى داخلك .. إنها ترى ثيابك الداخلية وترى ما فى دولابك وما فى حقيبة يدك .. وتصبح الصداقة نوعا من المقارنة المستمرة .. ثوبك وثوبها .. حذاؤك وحذاؤها .. ثيابك الداخلية وثيابها الداخلية .. وقد تستطيع أمام صديقة بعيدة عنها أن توفر ثمن قميص نوم لائق ، أو تشترى ثوبا لائقا ، ولكنها أمام الصديقة التى تعيش معها مضطرة أن تكشف لها أيضا عن قميص نومها .. والقروش المحدودة التى يرسلها لها والدها دائما خاسرة فى أى مقارنة من هذه المقارنات التى تفرضها الصداقة داخل بيت واحد ..

وبدأت تعود نفسها على أن تعيش غريبة بين زميلاتها فى بيت الطالبات .. إنها غريبة إلى حد أنها متباعدة ، لا تشترك فى الرحلات الجامعية ، ولا تشترك فى السهرات والنزهات مع الصديقات والأصدقاء .. إنها لم ترقص أبدا مع أحد من الطلبة كما تفعل زميلاتها .. لا تعرف ما هو الرقص .. ولم تذهب إلى السينما إلا مرة أو مرتين .. وترفض الدعوات ، لأنها لا تستطيع أن تردها ولا تريد أن تبدو أفقر من أن تردها ..

وتحملت كل هذا طوال سنوات الدراسة ، وكان كل ما يخفف عنها هو صداقتها لحمدى .. وقد عرفته وهى فى السنة الثانية من الجامعة ، وهو فى الثالثة ، وقد ربطتها به البساطة التى كان يعامل بها كل منهما الآخر .. إنها تشعر معه أنها ليست فى حاجة إلى إدعاء شىء أو إخفاء شىء .. إنه لا يثير فيها الإحساس بأنه ينقصها شىء .. وهو أيضا - مثلها - ليس من عائلة غنية ، وإن كانت عائلته فى مستوى أعلى قليلا من عائلتها .. هل أحبته ..؟ لا تدرى .. ربما كان حبا ، وربما كان مجرد شخص ترتاح إليه ، وتجمعها به هذه البساطة ، وهذا التفاهم الذى يجعله يكتفى بما تعطيه ، وتكتفى بما يعطيها ..

وتخرجت فى الجامعة ..

والتقدير .. جيد جدا ..

ولم يكن فى « جيد جدا » ما يحل مشاكلها ، فهى من قبل أن تتخرج فى الجامعة وهى مصرة على ألا تعود إلى الحياة فى بنها مع عائلتها ، وحائرة أين تعيش إذا لم تعش فى بنها .. إنها لا تستطيع أن تفرض على والدها أن يتحمل مسئوليتها بعد أن تتخرج ويسهم فى نفقات حياتها فى القاهرة .. وهى مهما كان تقدير درجاتها بعد التخرج فلن تعين فى وظيفة بأكثر من عشرين جنيها فى الشهر ، لا تكفى للحياة مع دفع إيجار شقة .. ثم أين الشقة ..؟ هل من حقها أن تستمر فى الإقامة فى بيت الطالبات ، أو تبحث عن عائلة تقيم معها ..

كل هذا كان يزدحم فى رأسها قبل الامتحان .. وربما لو كانت مطمئنة إلى مكان تعيش فيه بعد التخرج ، لحصلت على تقدير « ممتاز » بدلا من « جيد جدا » .

ولم يكن أمامها إلا حمدى .. إنه سبقها فى التخرج ، وظل حريصا على صداقته بها ، وقد عرض عليها الزواج .. ولكن حمدى لا يملك شقة ،

ويقيم مع عائلته ، ولا يملك ما يعينه على دفع « خلو الرجل » أو « تأمين » أو أى مبلغ مما يطلبه الملاك لتأجير شقة .. وربما عرض عليها الزواج كمجرد وعد إلى أن يستطيعا أن يجدا شقة . وقد يعيش هذا الوعد سنوات قبل أن يتحقق .. وهى لا تستطيع أن تنتظر .. إنها تبحث عن مكان تعيش فيه .. عن حائط تنام فى حمايته ..

وعينت بعد تخرجها فى مؤسسة الاستيراد ..

وتزوجت حمدى لتقيم معه ومع عائلته فى نفس الشقة .. كان هذا الحل الوحيد الذى وجدته واضطرت إليه .. وعائلتها سعيدة بهذا الزواج ، فعائلة حمدى عائلة محترمة ، وحمدى نفسه شاب مهذب ، خريج جامعة ، وموظف يضمن مرتبه ..

وعائلة حمدى مكونة من سبعة أفراد يعيشون فى شقة من أربع حجرات .. وفوجئت أن الحجرة التى ستعيش فيها هى وحمدى ، سيبقى فيها سرير ثان مخصص لأخته الصغرى أمينة ، كان هذا السرير مخصصا لشقيق حمدى ولكنهم نقلوه إلى الغرفة الأخرى ، ووضعوا مكانه أمينة مراعاة للظروف .. وبذلت كل ما فى طاقة أعصابها حتى تخفف المفاجأة .. إن أمينة لا تزال فى العاشرة من عمرها .. صغيرة .. إنها يمكن أن تتخذها كابنتها ..

وقد حرصت العائلة فى الأسبوع الأول من الزواج على أن تنام أمينة مع أخوتها فى الغرفة الأخرى بعد أن أعدوا لها مرتبة على الأرض .. احتفالا بالزواج .. ولكن أمينة كان يجب أن تعود إلى سريرها ، وهى نفسها - فريدة - التى ألحت فى أن تعود حتى تكسب رضاء العائلة ..

وبدأت تحاول أن تعوّد نفسها على هذه الحياة .. ولكنها تتعذب .. إنها لا تستطيع أن تنام مع رجل على فراش واحد حتى لو كان زوجها ، وبجانبها إنسان آخر حتى لو كان فتاة فى العاشرة .. وفتاة فى العاشرة

تستطيع أن تفهم كل شيء .. إن حمدى يقول لأخته أحيانا :

– اذهبى يا أمينة والعبى مع أخوتك ..

فتضحك أمينة وتجرى خارجة ، وفريدة تحس أنها تجرى لتحكى لكل العائلة أن أخاها فى حالة اختلاء مع زوجته ..

وبعد مدة أصبحت أمينة تجادل كلما طلب أخوها أن تخرج من الغرفة :

– أمينة .. إن ماما تريدك ..

فترد أمينة :

– ألا تستطيع الانتظار قليلا أنت وهى ..

ثم أصبح يخيل لفريدة أن أمينة تغار على أخيها .. تغار منها .. إنها تتعمد كثيرا أن تنام بجانبه كأنها تدلله .. وتتعمد أن تقبله أمامها ، كأنها تحاول أن تغنيه عنها .. وتحاول .. وتحاول ..

ولكن العذاب لم يكن من أمينة وحدها .. إن فريدة تحس بالغربة وسط هذه العائلة أكثر مما كانت تحس بها وهى فى المدينة الجامعية .. وتحتار ما هى حقوقها فى هذا البيت ، وما هى واجباتها .. إن كل ما تملكه فى هذا البيت ، هو هذا الفراش الذى يجمعها مع زوجها .. الفراش لا الغرفة ، لأن الغرفة ليست لها وحدها .. بل وحتى الفراش .. إنها أحيانا تساويه وتعده ، ثم تدخل إليها حماتها ، وتنظر مدققة ، ثم تقول :

– تسلم ايدك يا فريدة .. إعدادك للفراش رائع .. ولكن ، جربى أن تضعى الوسادة هكذا ، والملاءة هكذا .. و ..

وتمد الحماة يديها وتقلب كل ما أعدته فريدة وتعيد تسوية الفراش من جديد ..

وتسكت فريدة .. تسكت وهى تكتم الغيظ ، والمذلة ، والعذاب .

وهى لا تمارس أى حق آخر فى البيت .. إنها لا تدرى هل من حقها أن تدخل المطبخ بغير إذن حماتها .. هل من حقها أن تطلب نوعا معينا من الطعام .. هل من حقها أن تفتح زجاجة الزيت بلا إذن .. هل من حقها أن تدعو صديقتها زينب .. وفى الوقت نفسه لا تدرى هل من حقها أن ترفض .. إن حماتها تطلب منها أن تعاونها فى كى ملابس العائلة .. حاضر .. تطلب منها أن تقشر البطاطس .. حاضر .. تطلب منها أن تشترى لها من السوق وهى عائدة من المؤسسة .. حاضر ..

إن هذه العائلة – لأنها صاحبة الشقة التى تقيم فيها – تستغلها أكثر من استغلال أى صاحب عمارة .. إن صاحب العمارة يطلب مالا .. خلوا .. أو تأمينا .. أو إيجارا مضاعفا .. ولكن هذه العائلة تطالب بكيانها كله .. تطالب بمحو شخصيتها .. وجودها .

وصحيح أن حمدى لم يطلب منها أبدا أن تسهم بشيء من مرتبها فى نفقات البيت .. حتى ولا الإسهام فى تكاليف نزهاتهما الخاصة .. إنما فقط كان يتركها تكسو نفسها من مرتبها ، وتدفع منه مصاريف الانتقال .. ولكن ماذا يجديها مرتبها ، وحتى لو أخذت فوقه مرتب زوجها ، إذا كانت لا تستطيع أن تجد به بيتا تقيم فيه ، وتبنى فى داخله عائلة جديدة ، وأولادا وبنات ملكا لها ..

وقد حاولت أن تتغلب على عذابها بأن تعد نفسها لشهادة الماجستير .. ولكن لا أمل .. إنها هنا لا تستطيع أن تكون شيئا ولا حتى طالبة ماجستير .. لا تستطيع أن تعيش إلا إذا تحولت إلى جماد ..

إلى أن بدأ فكرها يتغير بالنسبة لعبد العزيز ..

بدأت ترسم لنفسها مستقبلا جديدا ..

إن عبد العزيز معها فى المؤسسة .. موظف كبير .. وكيل قسم .. وقد سمعت عنه منذ اليوم الأول الذى بدأت فيه العمل ، وكلام الناس يرسم

له صورة بشعة .. إنه سكير .. بصباص ، منحل .. وعندما رأته ، وجدته رجلا لا يقل عمره عن الخمسين .. وشفتاه ساقطتان كأنهما شفاه سكرى ، ويهتز فى مشيته كأنه يكاد يقع فى كل خطوة .. ومع النظرة الأولى أحست كأنه يحاول أن يعريها من ثيابها .. ثم بدأ يحاول دائما .. إنه يمر على المكاتب وتحس أنه يطيل الوقوف أمامها ، ويسألها عن أعمال لا تدخل فى اختصاصها .. ثم بدأ سكرتيره يكلفها بمراجعة أوراق ، وتحس أنه اختارها هى بالذات ، لأنها أوراق تتطلب إعادة عرضها على وكيل القسم ، ويجب أن تعرضها بنفسها .. وقد بدأت محاولاته تتخذ أسلوبا أصرح .. إنه يغازلها بكلمات مفضوحة كلما دخلت لتعرض عليه الأوراق ، ويحاول بصراحة أن يأخذ منها ما يريد .. وقال لها يوما :

– إن أوقات العمل لا تكفى كل هذه الأوراق .. لنلتقى اليوم عندى فى البيت ..

وترد بجدية ووجه حازم :

– أعدك بأن تنتهى كل الأوراق غدا صباحا ..

ووصل إلى حد أن نقلها إلى مكتب فى حجرة تلاصق حجرة مكتبه ، وعهد إليها بأعمال تتطلب أن تكون دائما على اتصال به .. كأنها سكرتيرة خاصة ، رغم أنها لا تزال منسوبة إلى قسم المراجعة .. وكل ذلك لم يكن يثير اهتمامها ، ربما لأنها منذ كانت طالبة فى الجامعة ، وهى تعلم أن هذا هو أسلوب كل الرجال ، وأن على كل امرأة أن تحدد أسلوبها الذى تواجه به أسلوب الرجل .. إن الرجل لا يصل أبدا إلا إذا سمحت له المرأة بأن يصل .. ثم إن عذابها مع زوجها حمدى وهى تقيم معه فى بيت عائلته ، كان يدمر كيانها كله إلى حد لم تعد تحس ولا تهتم بمثل هذه المحاولات التى يسلطها عليها عبد العزيز .. بل ربما كانت أحيانا تجد فى مغازلته لها نوعا من الترفيه والتخفيف عن مصائبها ، كأنها تستمع إلى مونولوج مضحك من شكوكو ..

ولكن ..

مع اشتداد عذابها فوق الفراش الذى ترقد عليه هى وزوجها ، وبجانبهما شقيقته ، وفى هذه الغرفة الضيقة ، بدأت تجد فى عبد العزيز شيئا يغريها ويجذبها ..

إنه غنى ، يملك أرضا زراعية واسعة ورثها عن أبيه ..

ويملك شقة ..

شقة واسعة من خمس غرف فى عمارة كبيرة تطل على النيل بحى المنيل ..

وهو يقيم فيها وحيدا .. وقد كان متزوجا ، وطلق زوجته منذ أكثر من خمس سنوات ، وله منها ولد يعيش مع أمه ..

وبدأت تتخيل كأن عبد العزيز يملك الدنيا كلها .. وعندما بدأت تبحث عن مستقبل جديد ، بعيدا عن زوجها وعائلته ، كان هذا المستقبل مرتبطا بعبد العزيز .. مستقبل يدعوها إلى أن تنتقل إلى دنيا عبد العزيز .. دنيا الشقة الواسعة المطلة على النيل ..

وبدأت تغير أسلوبها معه .. ابتسامتها تتسع ، ومشيتها أمامه تزداد إغراء ، وكلماتها تحضه وتشجعه ، ومظاهر الكلفة بينها وبينه تخف يوما بعد يوم .. وهو يزداد إلحاحا لإتمام عرض الأوراق عليه فى بيته .. ويغريها بكل ما يخيل إليه أنه يغريها ..

وهى ترفض .. وتسوق الدلال .. إلى أن قالت له يوما :

– يا عبد العزيز لا تنس أنى زوجة .. صحيح أنى تعيسة مع زوجى ، ولكنى لا أطلب الطلاق ، ولن أطلبه إلا إذا وجدت الرجل الآخر الذى أنتقل إليه كزوجة .. أرجوك .. لا تعتبرنى واحدة من النساء اللاتى تقضى معهن الليالى ..

وبدأ عبد العزيز يقتنع .

وهى صابرة ، تتحمل العذاب مع عائلة زوجها ، وتتحمل الانتظار إلى أن يتخذ عبد العزيز قراره ..

وقرر عبد العزيز أن يتزوجها ..

وداخلها شك كبير فى أن ينفذ قراره ، ولكن كان عليها أن تقبل المجازفة .. إن الانتقال من فوق فراش غرفة ضيقة ، إلى شقة واسعة من خمس غرف تكون بها وحدها ، يستحق المجازفة .. إن كريستوف كولمبس عندما اكتشف الدنيا الجديدة كان يجازف ويغامر ، وهى تريد دنيا جديدة .. دنيا عبد العزيز .. وعليها أن تغامر وتجازف ..

ولم يجادلها حمدى طويلا وهى تطلب الطلاق .. إنه من الرقة بحيث يعترف بفشله فى إسعادها ، ويعترف بعجزه عن أن يقيم لها بيتا ، ويعترف بالعذاب الذى تعانيه وهى وسط عائلته .. وعائلته كانت أقرب إلى الترحيب والفرح بالطلاق .. إن شقيق حمدى يستطيع أن يعود الآن ويشاركه نفس الغرفة ..

وانتقلت فريدة بعد الطلاق ، وأقامت مع عائلة صديقتها زينب ، إلى أن تنتهى شهور العدة وتستطيع أن تتزوج عبد العزيز ..

وعبد العزيز يلح عليها أن تأتى إلى بيته ..

وذهبت إليه .. ولم تذهب وحدها .. صحبت معها صديقتها زينب ، وهى تحاول أن تجعلها أشبه بزيارة رسمية .. وكان يهمها أكثر أن ترى الشقة من الداخل .. ودخلت كل حجرة .. حجرات واسعة .. غنية بالهواء والشمس والهدوء .. ليس فيها ضيق ولا ضجيج الزحام .. وشرفة واسعة مطلة على النيل .. إنها ستجعل من هذه الشرفة جنتها .. ستضع فيها مقاعد واسعة مريحة .. والراديو والتليفزيون والبيك آب .. ستعيش فيها مع شمس

الشتاء وليالى الصيف .. وتسمع الموسيقى .. وتغنى .. وابتسمت لهذه الخواطر .. إنها قد تصل من السعادة إلى حد أن تغنى ..

وانتهت شهور العدة ، وعبد العزيز يؤجل فى تحديد موعد عقد القران .. لعله عدل عن قراره .. أو لعله كان يخدعها إلى أن يصل إلى ما يريده ثم ينتهى منها .. وذهبت إليه ليلة فى بيته بعد أن تكرر إلحاحه .. ذهبت أيضا مع صديقتها زينب .. وكان عبد العزيز يشرب ، وكان قد وصل إلى حد أن بدأت الخمر تتراقص برأسه .. وقال لها :

- الليلة لن تتركى البيت .. إنه بيتك .. وأنت لى .. ملكى ..

وقالت فريدة وهى تتنهد فى لوم :

- إننا لم نتزوج بعد ..

وقال وكلماته تتعثر بين شفتين مترنحتين :

- نتزوج ..

وقالت صديقتها زينب :

- تزوجا الآن .. الليلة ..

وقال السكران :

- نتزوج حالا ..

وقامت زينب بسرعة قائلة :

- سآتى بالمأذون ..

وخرجت زينب وعادت بالمأذون .. وتزوجت فريدة رجلا سكرانا ، وكان شاهدا العقد بواب العمارة وصديقا له .

وبعد الزواج بأيام حصلت فريدة على إجازة بدون مرتب من المؤسسة ، حتى تبتعد عن نظرات الزميلات والزملاء ، وحتى تتفرغ للدنيا

الجديدة .. دنيا الشقة الواسعة ذات الغرف الخمس والشرفة الواسعة .. وقد بدأت تكتشف فى عبد العزيز صورا أبشع مما كانت تتخيل .. إنه يذهب إلى المؤسسة فى الصباح ، ويعود ويجلس معها إلى مائدة الغداء ، وينام ثم يقوم من النوم ، ليضع أمامه زجاجة الخمر .. ويشرب ويشرب .. والخمر تخرج منه كلمات بشعة ، وتحركات أبشع ، وصورا قذرة .. وإذا خرج فى المساء يعود سكرانا وفى نفس الصورة البشعة .. وهى تحتمل .. وتعوّد نفسها على الاحتمال مستعينة بفرحتها بالدنيا الجديدة .. وقد بدأت تحب كل غرفة من الغرف الخمس كأنها بنتها بيديها ، وتعيد ترتيب الأثاث ، وتنحنى بنفسها لتنظف كل قطعة ، وكل ما تحصل عليه من زوجها تشترى به ما ينقص الغرف الخمس ، وتتم به تأثيث الشرفة الواسعة المطلة على النيل .. إنها تعيش كأنها تعيش قصة حبها الأول ، فلم يكن لها من قبل بيت تملكه .. أو على الأقل بيت هى سيدته ..

وكانت معها فى الشقة نبوية .. وقد كانت نبوية فلاحة تعمل خادمة لعبد العزيز من قبل .. وقد لاحظت منذ اليوم الأول أنها تستقبلها كأنها تستقبل مصيبة وقعت على رأسها .. وحاولت فريدة كثيرا أن تتفاهم مع نبوية وتضعها فى مكانها ، ولكن نبوية دائما نافرة ، حاقدة ، رغم أنها لا تتكلم .. وطلبت فريدة من عبد العزيز أن تستغنى عن خدمة نبوية ، وقال عبد العزيز :

– حرام عليك .. إنها من قريتنا .. وأبوها يعمل فى الحقل .. لا أستطيع أن أعيدها إلى البلد وإلا غضب علينا الفلاحون ..

واستسلمت فريدة ، وكل ما استطاعته أن استأجرت خادما يعمل فى البيت بجانب نبوية ..

وهى تقاوم كل بشاعة عبد العزيز ، وحاولت أن تخفف عن نفسها بشاعته ، فدعت أمها وأباها للإقامة معها بضعة أيام .. إن الشقة واسعة

وتتسع للضيوف .. ولكن عبد العزيز ثار ، وصرخ وهو مختل بها بعيدا :

– لقد تزوجتك أنت .. لم أتزوج معك أمك وأباك ..

وأخفت البشاعة عن والديها ، ولم تدعهما للإقامة بعد ذلك .. وبدأت تحاول محاولة أخرى للتخفيف عن نفسها ، فأخذت فى الإعداد لنيل شهادة الماجستير .. كان زوجها ينصرف إلى عمله فى الصباح ، وتنتهى من الإشراف على الغرف الخمس ، ثم تحمل كتبها وتجلس فى الشرفة الواسعة وتذاكر مواد الماجستير .. وهى سعيدة .. هادئة .. مليئة بحب الدنيا الجديدة .. ثم لا يكاد يعود عبد العزيز حتى تنتقل بنفسها إلى تحمل كل أنواع بشاعته .. وتجلس معه الليل وهو يلقى بنفسه فى الخمر .. وتحتمل .. وأحيانا تدعو صديقتها زينب لتقضى المساء معها ومعه .. ولكن زينب كانت تقرر دائما أن تنصرف بعد الكأس الثانية التى تسقط فى جوف عبد العزيز ، وتتركها وحدها لباقى الكؤوس ..

لقد ضربها مرة وهو سكران .. سلط كفيه الثقيلتين على كل جسدها ، وصرخت :

– أنت سكران .. سكران ..

وقال وضحكات الخمر تنطلق فى وجهها :

– لقد تزوجتك وأنا سكران ، فاحتملى كل ما يريده السكران ..

ثم كانت ليلة ..

وتنبهت من نومها ومدت ذراعيها فلم تجد عبد العزيز بجانبها .. وقامت تبحث عنه .. ربما كانت الخمر التى شربها قبل أن ينام قد أتعبته فقام إلى الحمام ، وتريد أن تطمئن عليه .. ربما عاد إلى الكأس وربما استطاعت أن تنقذه منها .. وطافت بكل غرف البيت ولم تجده .. ثم دخلت الغرفة الصغيرة بجوار المطبخ المخصصة لنوم نبوية .. وصرخت .. إنه فوق جسد نبوية ..

وجرت إلى فراشها تبكى وتصرخ .. لا تستطيع أن تتحمل كل هذه المهانة .. لا تستطيع .. وجاء عبد العزيز وراءها وكانت حدة الخمر قد خفت عنه ، وأخذ يعتذر لها ، ويؤكد أنه لم يكن يدرى ما يفعله ، ثم وعدها أن يتخلص من نبوية ويعيدها إلى القرية ..

وفى اليوم التالى ، وبعد أن تأكدت من أن عبد العزيز أخذ معه نبوية فى الصباح وأعادها إلى القرية ، انتظرته إلى أن عاد ، وقالت ، وهى مطمئنة إلى أنه لم يبدأ الخمر بعد :

عبد العزيز .. هل تريد حقا أن أبقى معك ..

قال :

– صدقينى يا فريدة .. إنى أحبك .. وأنا أعلم أنى أتعبك معى .. ولكنى أحبك ..

قالت :

– ولكنى لست مطمئنة إلى هذا الحب .. فى كل مساء أنام وأنا أخشى أن أستيقظ لأجدك قد تخلصت منى ..

قال فى حب :

– كيف أطمئنك ..

قالت :

– اكتب الشقة باسمى .. على الأقل أبقى مطمئنة إلى وجودى فيها .. وأنا أحبك بل إنى فى حاجة إليك أكثر من حاجتك إلىّ ، ولن يخطر على بالى أبدا أن أستغنى عنك .. لا أستطيع .. اكتب الشقة باسمى ..

ونظر إليها عبد العزيز طويلا كأنه يحاول أن يكتشف سرها ، ثم قال :

– هل هذا كلام .. ليكن .. ولكن دعينى أفكر ..

ولم ينته تفكير عبد العزيز .. ولم ينقل عقد إيجار الشقة إلى اسمها ..

ولكنها بعد أسابيع فوجئت بفلاحة أخرى تدخل الشقة ، وتقول إنهم أرسلوها من قرية عبد العزيز بناء على طلبه لتخدم فى البيت .. وأصر عبد العزيز على أن تبقى لتخدم فى البيت ..

ومرت أسابيع والعذاب لا ينتهى .. وهى لا تزال تخفف من عذابها بدراسة مواد الماجستير .. إلى أن كان صباح .. وكان عبد العزيز قد دخل الحمام .. ونادت فريدة على زهرة فلم ترد .. وبحثت عنها إلى أن اكتشفت أين زهرة ..

إنها فى الحمام مع عبد العزيز ..

وهو لا يمكن أن يكون سكرانا فى الصباح ..

وبدأت تخبط على الحمام بكلتا يديها وهى تصرخ بكل ما فى صوتها من صراخ ، وفتح عبد العزيز باب الحمام صارخا :

– ماذا بك .. إنها تدلك لى ظهرى .. هل هذه غريبة .. ألم تسمعى عن رجال العائلات عندما يدخلون الحمام ..

ولكنها لم تسمع شيئا من صراخه ، وانهالت عليه ضربا بكفيها ، ثم التقطت زجاجة وألقت بها على رأس الخادمة زهرة فشقته ..

وعبد العزيز يحاول أن يقيد ذراعى فريدة ، ثم رفع كفه الغليظة وصفعها صفعة ، أسقطتها على الأرض وهو يصيح :

– أنت طالق .. طالق .. طالق ..

ثم جذب زهرة خارج الحمام .. وارتدى ثيابه بسرعة ، وخرج وهو يصحب زهرة معه ليعيدها إلى القرية .. وفريدة هائمة .. كأن كل ما فيها قد توقف عن الحركة .. وبعد ساعات دق جرس الباب ، وفتحت لتجد رجلا يسلمها ورقة الطلاق ..

وأخذت الورقة ، ووقعت على استلامها .. وعادت إلى غرفتها

واستلقت على فراشها .. إنها لن تترك الشقة .. لن تخرج من الجنة .. إن عبد العزيز ليس الله حتى يطردها من الجنة ..

* *

وعاد عبد العزيز إلى البيت .. وجدها أمامه .. إنها لم تجمع حقائبها .. بل إنها أيضا هادئة .. وقال لها فى سخط :

– أنت طالق ..

قالت فى استسلام :

– أعرف ..

قال :

– لم يعد لك مكان هنا ..

قالت :

– أعرف .. لكن لى رجاء .. إنه توسل .. اتركنى أقيم هنا إلى أن أجد شقة أنتقل إليها .. إنى لا أستطيع أن أقيم مع أهلى فى بنها .. ولا أريد أن أفرض نفسى على صديقتى زينب .. وأنت أرحم بى من أن تمرمطنى بين الفنادق أو الغرف المؤجرة .. أرجوك .. لن أتدخل فى حياتك الخاصة .. سأكون هنا كما تريدنى ..

ونظر إليها عبد العزيز طويلا .. وهى ترتعش أمامه من خوف الفشل ، ثم قال :

– موافق ..

وقالت :

– ربنا يخليك ..

ثم قامت وجمعت بعض ملابسها وهمت أن تخرج من الغرفة .. وقال عبد العزيز :

– إلى أين ؟

قالت :

– سأقيم فى الغرفة الأخرى ..

وسكت عبد العزيز .. وقذف بسلسلة مفاتيحه على المائدة التى تجاور فراشه بعنف كأنه يلعن الدنيا ، ومن فيها ، ويلعن فريدة ، ويلعن نفسه ..

وبدأت فريدة من يومها تضع وتدرس الخطة الجديدة ..

لقد سألت أحد الأطباء النفسانيين عن سر تعلق عبد العزيز جنسيا بالفلاحات ، فقال لها إنه مصاب بعقدة السيادة .. إنه يريد أن يحس عندما يعاشر أى امرأة بأنه السيد ، وهى الجارية .. وهى عقدة يصاب بها كثيرون من أصحاب الأرض وأثرياء الريف ، لأنهم بدأوا حياتهم وهم يمارسون الجنس مع النساء الفلاحات العاملات تحت حماية وسلطة عائلاتهم .. وعندما يتزوج أى منهم لا يستطيع أن يتخلص من هذه العقدة ، ولا أن يشبعها مع زوجته ، لأنها عادة زوجة من مستوى اجتماعى يوازى مستواه فلا يستطيع أن يحس معها بلذة السيادة ..

وقررت فريدة ضمن خطتها أن تستغل هذه العقدة فى عبد العزيز ، فعرضت عليه أن تستدعى خادمة من قريتها فى بنها ، بعد أن كان قد أعاد زهرة ولم يأت بغيرها ..

ووافق عبد العزيز ضاحكا ..

وسعت فريدة حتى جاءت بعزيزة ، واتفقت معها على كل شىء ..

وتركت عبد العزيز يشبع عقدته مع عزيزة ، وكأنها لا ترى شيئا ، ولا تعلم شيئا .. ولكن الغريب أن عبد العزيز لم يكن مقبلا على عزيزة .. كان مقبلا عليها هى .. على مطلقته .. وكان يلح عليها فى ليال كثيرة .. وكانت ترفض ، وعندما يطول الرفض كانت تخشى عليه من اليأس ،

فترضى مرة ، كأنها خضعت لقوة إغرائه وسيادته ، ثم تعود إلى الرفض .. إنه يريدها أكثر مما كان يريدها وهى زوجته .. ربما لأن الرجال من عادتهم أن يسعوا وراء ما لا يملكونه أكثر من اكتفائهم بما يملكون .. وهو الآن لا يملكها .. إنها غريبة فى بيته .. مطلقة ..

والشهور تمر .. والحياة فى الجنة المكونة من خمس غرف وشرفة تطل على النيل ، تمر سعيدة ، هادئة ، حتى إن فريدة تظاهرت مرة أنها ستنتقل لتقيم مع صديقتها زينب ، فتمسك بها عبد العزيز .. لماذا .. ماذا ينقصك .. وحتى لو كنا مطلقين فإنه لا أحد يعلم أننا مطلقان ، وكل الناس تعاملنا كأزواج ، وهذا أشرف وأكرم لك من المرمطة بين البيوت ..

وكان يجب أن يتزوجها ..

وكما حدث ليلة أن تزوجها أول مرة .. وفى نفس الجلسة ، وهو سكران وزينب معهما ، قامت زينب لتعود بالمأذون ويكتب عقد الزواج من جديد .

لقد عادت سيدة الشقة ..

ولو مات عبد العزيز فإنها سترث الشقة ، ولن يستطيع ابنه من الزوجة الأولى أن يدعى ملكيتها .. إن القانون معها ..

ولم تمر أيام على الزواج ، حتى طرد عبد العزيز الخادمة عزيزة ، وجاء من قريتهم بالخادمة سعدية .. لا يهم ، كل شىء محسوب له حساب ..

ومرض عبد العزيز .. أنفلونزا حادة جعلته يخرف .. ولم تستدع له فريدة طبيبا عاديا ، ولكنها استدعت طبيبا نفسانيا ، وبعد أن جلست مع الطبيب وذكرت له كل ما يعانيه عبد العزيز من عقد ، وما يصيبه من

حالات عجيبة ، تركته يكشف عليه ثم يكتب له أنواعا من الحبوب المهدئة والمنومة ، ويعدها بأن يعود إليه بعد أن يشفى من الأنفلونزا ..

وتمت الخطة كما تصورتها فريدة ..

وفى هذه الليلة الأخيرة ، كان عبد العزيز وفريدة فى الشرفة ، وكان عبد العزيز قد تناول كل ما يتسع له جوفه من خمر .. وقام وهو واقف مستندا على سور الشرفة يحاول أن يمسك بفريدة وهو يضحك ، وهى تهرب منه .. ويضربها ، ويحتضنها .. إلى أن سقط ..

سقط من الشرفة ..

مات ..

انتحـر ..

وأسباب الانتحار كثيرة ، إن كل أصدقائه وزملائه يعرفون عنه أنه سكير مفرط فى الخمر .. وعزيزة الفلاحة تشهد بجنونه عندما اعتدى عليها .. والطبيب النفسى كشف عليه وكتب له الدواء المهدىء .. وقد طلق زوجته بلا سبب ، ثم ردها بلا سبب .. وفريدة جسمها صغير بالنسبة لجسم عبد العزيز الضخم بحيث لا يمكن أن تكون أقوى منه ..

لا شك أنه انتحر ..

ليس هناك أى احتمال يمكن أن يثير أى شبهة ..

* *

وقالت زينب وهى جالسة بجانب صديقتها فريدة :

- احكى لى .. احكى كل ما حدث .. وكل التفاصيل ..

وضحكت فريدة ضحكة منطلقة كأنها زغرودة ، وقالت :

- لا تطلبى المستحيل .. لن أحكى لك .. وأنت أدرى بما لا يحكى ..

في حب قطعة من الحديد

لقد كنت بالأمس عند « بنترومولى » سأغير أثاث كل الشقة .. ستكون جنة ..

وقالت زينب ضاحكة :

– لم يعد ينقصك إلا عريس ..

وقالت فريدة :

– والماجستير .. والدكتوراه ..

فوجئت به وهو يدخل إلـىّ على غير عادته .. لا يبدى هذا الاحترام الذى عودنى عليه .. وجلس قبل أن يمد يده ليصافحنى ، وقال وأنفاسه تلهث ، كأنه جاء يجرى إلـىّ :

– إنى أعرف مدى تقديرك لوالدى .. وأحب أن أقول لك إنى قررت أن أتركه وحده .. لن أعمل معه بعد الآن ، ولست مسئولا عنه .. والمشكلة ليست مشكلتى ولكنها مشكلته هو ، فإنى أعرف ومتأكد أنه لن يستطيع أن يستمر وحده ، ولذلك فقد جئت إليك لأحملك مسئوليته ..

وهدأ إحساسى بالمفاجأة . فإنى أعرف أن المشكلة بين إبراهيم ووالده الحاج عبد الله عبد الهادى ، لن تحل أبدا .. ولكنى أعرف أيضا أنها ليست مجرد المشكلة المعروفة بين الجيل القديم والجيل الجديد .. بين الآباء والأبناء .. ولكنها أساسا مشكلة أن إبراهيم لا يستطيع أن يفهم ويقدر كيف بنى والده حياته .. كيف استطاع أن يبدأ من عامل صغير فى دار المطابع الحديثة إلى أن أصبح صاحب ومؤسس دار « مطابع عبد الهادى » . ولو فهم إبراهيم وقدر ، لوضع والده داخل مقاييس أخرى غير التى يحكم بها عليه .

وقد عرفت الحاج عبد الهادى منذ بدأت أعمل فى الصحافة ، وكنت قد اخترت أعمال سكرتير التحرير .. وكنت فى قرارة نفسى أكره لقب « سكرتير تحرير » فأنا لا أحب أن أكون سكرتيرا أبدا حتى ولا سكرتير تحرير ، وكنت أتمنى – بينى وبين نفسى – أن أحمل لقب « مهندس تحرير » فإن عملى واختصاصى ، وهوايتى لا تختلف عن عمل المهندس .. فالمهندس يرسم خطوطا تجعل من الحجر ، والأسمنت ،

والحديد ، عمارة يسكنها الناس . وأنا أيضا أرسم خطوطا تجعل من الكلمات – وبعضها أثقل من الحجر – ومن الرصاص والحبر ، والورق ، جريدة يعيش فيها القراء .. ولم أستطع أن أحصل – وحتى اليوم – على لقب « مهندس تحرير » ولكنى مع الأيام حصلت على لقب « المشرف الفنى » وهو بالنسبة لى أخف وأرحم من لقب سكرتير تحرير ..

وكنت لا أكاد انتهى من رسم خطوط الصفحات وإعداد « الماكيت » حتى أنزل إلى المطابع ، وأعيش بين الأسطوات والعمال ، وعيناى مركزتان على أصابع كل منهم وهى تحيل الخطوط التى رسمتها إلى حديد تطعم به الآلة ، وكأنهم يغرونها بأن تتحرك لتخلق صفحات الجريدة .. وكنت أقضى داخل المطبعة أغلب أيامى ، وأغلب وقتى ، وعشت بين الأسطوات والعمال أكثر مما عشت بين المحررين والكتاب ، وأصبحت أهم شخصية اعتمد عليها أكثر مما اعتمد على صاحب الجريدة أو على رئيس التحرير هى شخصية الأسطى راشد ، المسئول عن المطابع .. وفى المطبعة عرفت عبد الله ..

وكان عبد الله هو المسئول عن آلة طباعة مسطحة « والتيبو بشراعة » تعتبر اليوم فى منتهى التأخر ولا تساوى شيئا ، ولكن أيامها ، أى منذ أكثر من أربعين سنة ، كانت تعتبر أعجوبة فى التقدم العلمى لفن الطباعة .. وقد بدأ عبد الله يعمل فى الطباعة مع دخول هذه الآلة .. وكان أيامها لا يزال فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان يقف ليراقب الأسطى راشد وهو يشرف على تركيب « التيبو بشراعة » عندما اشترتها الدار ، وكل مهمته أن يطيع الأوامر ويحمل قطع الحديد .. ليناولها للأسطوات ، أو يغسل قطع الحديد ، أو يربط-أو يفك قطع الحديد .. وكان الأسطى راشد معروفا بين العمال بقسوته وعنفه ، فكان يضرب أى عامل يخطىء أقل خطأ ، ويضرب بقسوة ، ويصحب ضرباته بلعنات وكلمات جارحة ، فإذا لم يجد كل ذلك فى تربية العامل ، يفصله من العمل بكلمة واحدة .. يطرده .. ثم يذهب فى

المساء ويقابل والد العامل الصغير ويواسيه :

- ابنك لا يصلح مطبعجيا .. لنبحث له عن عمل آخر ..

وكان فعلا يبحث مع الوالد عن عمل آخر لابنه ..

وأكثر من عانى من قسوة الأسطى راشد هو عبد الله فى سنواته الأولى .. ولكنى لم ألمح عبد الله يبكى أبدا أو يجرى هاربا من المطبعة كما كان يفعل كثير من صغار العمال الذين تنصب عليهم لعنات الأسطى .. ولم يكن أيامها لنقابات العمال أو للقوانين ، ما يمكن أن يحمى صغار العمال سواء من قسوة أصحاب العمل أو من قسوة الأسطوات .. كانت هذه هى وسيلة تربية العامل .. تسليمه لأسطى يضرب فيه إلى أن يتعلم .. وصغار العمال يخافون الأسطى ، ويرهبونه ، وأحيانا يكرهونه ويحاربونه ، دون أن يكون لديهم أى إحساس بصاحب العمل .. والحاج عبد الله ، وهو الآن قد جاوز الستين من عمره ، لا يزال يؤمن بأن هذه هى الوسيلة المثلى الوحيدة لتربية العامل .. وأن النقابات والقوانين والسياسة أفسدت قيمة العامل الفنية ، حتى وإن كانت قد رفعت قيمته الاجتماعية والمادية ، ورحم الله أيام زمان ..

ومنذ أن دارت آلة الطباعة الجديدة وعبد الله يقف بجانبها .. ويعيش فيها كلها .. بل إنه حتى بعد أن كبر ، لم يكتف بأن يعتبر نفسه عاملا ميكانيكيا ، بل كان يعتبر نفسه أيضا عاملا يدويا ، يقف فوق الآلة ويلقى أفرخ الورق فى داخلها .. وحتى عندما كانت الآلة تغسل بعد انتهاء الطباعة ، لم يكن يترك العمال الصغار يغسلونها وحدهم ، بل يتولى بنفسه غسيلها معهم . والأسطى راشد يزداد اعتمادا وثقة بعبد الله ، وهو نفسه - أى عبد الله - أصبح صورة من الأسطى راشد فى قسوته ، وإن كانت صفعاته على أقفية صغار العمال ، أقل وأرحم ..

وهو دائما بجانب الآلة التيبو بشراعة .. إنه يرفض الإجازة إلا إذا

كانت إجازة لكل المطبعة ، خوفا من أن يترك آلته تمسها يد غريبة .. بل إنه فى ليال كثيرة يبيت داخل المطبعة وينام على الأرض فوق أفرخ من الورق الكرتون يفرشها بجانب الآلة .. بل إنه وبعد أن أصبح فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، ووصل فى عمله إلى أن أصبح المساعد المباشر للأسطى راشد ، كان يرفض الزواج حتى لا تأخذه الحياة العائلية بعيدا عن آلته .. كنت أحس أن العلاقة بين عبد الله وهذه الآلة لم تعد مجرد علاقة عمل .. إنها أقرب إلى علاقة حب .. حب يجعله يعيش كل إحساسه مع كل مسمار ، وكل قطعة حديد .. حب يجعله يحمل كل قطرة حبر أو زيت أو كل فرخ ورق ، كأنه يحمل الطعام لحبيبته .. وربما كان هذا الحب هو الذى جعلنا - دون قصد ودون تعمد - نطلق اسمه على الآلة التيبو ذات الشراعة .. كنت أقول لمدير المطابع :

- عبد الهادى عامل إيه ..

ويرد المدير ببساطة :

- ماشى كويس ..

وأنا والمدير نقصد الآلة ..

وكان هذا الحب هو الذى يشغل عبد الله عن التفكير فى الزواج ، ولم يتزوج إلا بناء على أوامر الأسطى راشد .. وهو لا يستطيع أبدا أن يخالف أوامر الأسطى .. بل إن الأسطى راشد هو الذى اختار له عروسه ، وذهب مع أبيه ليخطبها له ..

وقد توفى الأسطى راشد - رحمه الله - وأصبح عبد الله هو أسطى دار الطباعة الحديثة .. أصبح مسئولا عن آلات الدار ، ورغم ذلك ظل واقفا بجانب الآلة التيبو بشراعة ، وكان قد درب عليها عاملا جديدا ، يتركه بجانبها وهو يطوف ببقية الآلات ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى التيبو بشراعة ليقف بجانبها ، بل كان عندما يجد فى وقته فراغا يعتلى الآلة ويعود

يلقى بأفرخ الورق بيديه رغم أنه عمل لا يحتاج إلى أسطى ..

وبعد أن تزوج عبد الله أصبحت أدهش من الوقت الطويل الذى يقضيه فى المطبعة بعيدا عن بيته ، وكنت أجادله كثيرا محاولا إقناعه بأن يعطى لبيته نسبة متساوية مع ما يعطيه لعمله ، ولكن كان حبه لآلته يتغلب دائما عليه ، ويقول مبتسما :

– البيت بخير والحمد لله ..

ثم حدث فى ليلة أن آلة التيبو بشراعة تعطلت .. والأسطى عبد الله كان تحتها يحاول إصلاحها .. ودق جرس التليفون ليبلغنا أن زوجته تضع مولودها الأول .. وجذبته من تحت الآلة وطلبت منه أن يذهب إلى بيته ليقف بجانب زوجته .. ونظر إلىّ دهشا ، وقال فى هدوء :

– أمها وأمى بجانبها ..

وعاد إلى مكانه تحت الآلة .. واضطررت أنا أن أذهب بنفسى إلى بيته – ودون أن أستأذنه – خوفا من أن تكون العائلة فى حاجة إلى طبيب ، وقد ذهبت دون أن ألوم عبد الله .. فقد كنت قد عرفته ، وعرفت أن حب عبد الله للآلة التيبو بشراعة لا يمكن أن يقاوم ..

وفى هذه الليلة ولد إبراهيم الذى جاءنى ليثير هذه الذكريات .

وقد كنت أعتقد أن الفرق بينى وبين عبد الله ، هو أنى أحرص على قراءة المواد التى تنشر قبل أن أرسم لها الخطوط التى سأقدمها بها للناس ، ولا شك أنه كان لرأيى الخاص فيما أقرأه تأثير كبير فى رسم خطوطى .. كنت فى أحيان كثيرة أتعمد إبراز إحدى المواد لأنى اقتنعت بها ، وأحيانا أتعمد طويها بين الخطوط حتى لا تثير انتباه القارىء لأنى لست مقتنعا بها .. وكان هذا يثير كثيرا من المشاكل بينى وبين رؤساء التحرير الذين عملت معهم ، بل إنى أحيانا كنت أتدخل إلى حد ما فى محاولة إقناع رئيس

التحرير بعدم النشر إطلاقا .. وكل ذلك وأنا متصور أن عبد الله لا يمكن أن يخطر على باله أن يقرأ أى مادة من المواد التى يطبعها .. إن أى مادة لا يمكن أن تؤثر فى آلته .. الآلة تطبع ما يستحق وما لا يستحق .. إن ميزة الآلة أنها بلا عقل .. والآلة هى كل ما يهم عبد الله .. إلى أن فوجئت به مرة ، يقول لى فى لهجة جادة وفى إصرار عنيف ، وهو يشير إلى حروف مقال مصفوفة أمامه :

– قل للأستاذ رئيس التحرير إن هذا الكلام لا يمكن أن ينشر ..

وحاولت أن أضاحكه وألهيه عن إصراره ، ولكنه مصر ، وعندما ذهبت إلى رئيس التحرير ضحك أولا ، ثم ثار عندما علم بإصرار الأسطى عبد الله ، وصرخ :

قل له أن لا دخل له بما ينشر وما لا ينشر ..

وأوقف الأسطى عبد الله الطباعة ، كأنه علق مصيره بمصير هذا المقال .. إذا أصررتم على طبعه فابحثوا عن أسطى آخر يطبعه .. وثارت ضجة فى الدار كلها ، وبدأ كل من فيها يراجع المقال ويبدى رأيه .. وكلهم يؤيدون الأسطى عبد الله .. ورئيس التحرير نفسه يعلم قيمة الأسطى عبد الله بالنسبة للدار .. فاستسلم لعدم نشر المقال ، وخاصة أنه مقال لم يكن هو كاتبه ..

وكانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى يعترض فيها الأسطى عبد الله على طباعة مقال ، ربما لأننا أيامها كنا فى مرحلة وطنية حساسة لم يستطع أمامها أن يحتفظ برأيه لنفسه ..

وحدث ما هو أعجب ..

أراد صاحب دار الطباعة أن يجدد فى الآلة التيبو بشراعة ، بأن يضيف إليها موتورا جديدا متصلا بشفاط يشفط أفرخ الورق ويدخلها فى

الآلة ، بدلا من أن يقوم العامل بإدخالها بيديه ، وأقنعه مهندس ألمانى مقيم فى مصر بأن هذا يمكن تحقيقه .. وعرض المشروع على الأسطى .. الأسطى عبد الله ، فرفضه .. ورفضه بعنف وإصرار .. وتدخلت أنا واتهمت عبد الله بأنه رجعى متأخر لا يريد لآلته أن يتقدم بها ..

وقال عبد الله فى عناد :

– لكل آلة طبيعتها يا أستاذ ..

قلت :

– إن الطبيعة تخضع للتقدم ..

قال :

– إن التقدم بالآلة يتطلب بناء جديدا .. إن عندنا هنا آلات بشفاط ، وهذه هى الآلة الوحيدة بشراعة ، لماذا لا تشترون آلة أخرى بشفاط إذا أردتم ..

قلت :

– إننا نريد أن نرتفع بالقديم إلى مستوى الجديد ..

قال :

– يا أستاذ .. القديم أصبح قديما .. إنى لا أستطيع أن أفرض على أمى أن ترتدى برنيطة لأن هذا هو الجديد .. إنها لا يمكن أن تتعامل إلا مع البرقع .. البرنيطة لابنتى .. لا لأمى ..

وربت على الآلة بيده كأنها أمه فعلا ..

وعجز المهندس الألمانى عن الوصول إلى آلة عبد الله .. إلى حبه .. كان عبد الله يستطيع التفاهم مع آلته بحيث ترفض أى محاولة للمهندس الغريب .. واستسلم المهندس الألمانى .. واستسلم صاحب المطبعة ..

وعادت آلة التيبو بشراعة تعمل فى نشاط وهدوء فى حماية الحب .. حب عبد الله ..

إلى أن حدث التأميم .

أممت دار الطباعة الحديثة وطبقت عليها النظم والقوانين واللوائح الاشتراكية .. ومع الأيام والشهور بدأت أرى شخصية الأسطى عبد الله تتغير .. خيل إلىّ أن شخصيته بدأت تضعف .. إنه يطوف بين آلات المطبعة وهو صامت ورأسه منكس .. ثم يقف بجانب حبيبته التيبو بشراعة ، وهو يطلق نظرات يغلب عليها الاستسلام .. وعندما بدأت الانتخابات النقابية بين العمال ثم انتخابات عضوية مجلس الإدارة ، لم يرشح الأسطى عبد الله نفسه ، ولم يحاول أبناؤه العمال إغراؤه بالترشيح ..

وكنت أبذل جهدا كبيرا لم أتعوده مع الأسطى عبد الله حتى أشده إلى حديث أفهم منه سر التغير الذى حدث فى شخصيته .. وكل ما استطعت أن أصل إليه منه هو أنه حائر .. حائر أمام كل ما يحدث بعد تطبيق النظم التى تبدو اشتراكية .. وحيرته تدفعه إلى التأييد والفرح لأن أجور العمال قد ارتفعت بما فيها أجره ، وأصبحت لهم شخصية قوية أقوى من شخصية رجال الإدارة الذين كانوا يتحكمون فى أرزاقهم ، بل أصبح لهم حق السيطرة على الدار كلها .. ولكنه فى الوقت نفسه ساخط قرفان لأن هذه الاشتراكية لم تحرر العمال من سيطرة أصحاب رؤوس الأموال فحسب ، بل حررتهم من مسئوليتهم عن الآلة .. المسئولية التى كانت تصل إلى حد سيطرة الآلة على العامل ، لا سيطرة العامل على الآلة .. وقد عاش عمره وآلته التيبو بشراعة تسيطر عليه ، تأمره أن يقضى الليل بجانبها لأن مسمارا منها يتدلل ، ولا يريد أن يعمل ، وتأمره أن يغسلها بيديه ، وتأمره أن يمد أصابعه ليدلكها .. كأنها غانية تتحكم فيه .. أما الآن فقد حدث أن ضبط أحد العمال وقد أدار ظهره للآلة الروتاتيف ووقف يتضاحك مع زميله ، بينما بوبينة الورق قد تمزقت واختلت وبدأت تعذب الآلة ، وهجم

على العامل ، ورفع يده لينهال عليه بالصفعات كما تعود ، ولكنه تذكر بسرعة أن كل شيء قد تغير ، فخفض يده وقال للعامل كأنه يبكى أمامه :

- يا ابنى لا ترفع عينك عن الماكينة ..

ثم ترك العامل يقول كلاما ليس له معنى ليبرر خطأه ، وتقدم بنفسه يمد أصابعه داخل الآلة ..

والعلاوات المالية توزع على العمال ، وهو فرح بها ، ولكن هذه العلاوات توازى بين من يستحق ومن لا يستحق ، إنها ليست مكافأة على عمل .. إنها رشوة .. إنها بقشيش .. حتى بالنسبة لنفسه ، إنه يحس وهم يعطونه العلاوة أو المكافأة أنهم هم أنفسهم لا يعتبرونها تقديرا لفنه ، ولعمله ، ولكنهم يحسنون عليه بها .. وهو لا يستطيع شيئا .. لا يستطيع أن يحرم عاملا لاهيا ، مقصرا ، غبيا ، من أن يأخذ مكافأة على غبائه وتقصيره ، ولا يستطيع أيضا أن يطالب بتمييز عامل مجد ، يعطى من نفسه للآلة أكثر مما يعطى كل زملائه .. إلا إذا كان هذا العامل عضوا فى مجلس الإدارة أو مجالس النقابة ، وهو ما لا يحدث أبدا ، لأن المشغولين بالمجالس وبالانتخابات مشغولون دائما عن الآلة .. عن العمل .. عن الفن .. والنظم الاشتراكية إذا كانت قد قضت على نفوذ أصحاب العمل ، فقد قضت أيضا على نفوذ الأسطوات ..

ورغم ذلك فقد كنت أعلم أن كل عمال الدار - آسف ، أقصد المؤسسة - يقدرون الأسطى عبد الله ، ويحترمونه ، ويحفظون له التاريخ القديم الذى قضاه بجانب الآلة ، وكان له الفضل فى تدريبهم عليها ، ورفعهم إلى مستواها ، وكنت أعذرهم وهم يضعونه فى مكان بعيد عن كل تنظيماتهم الجديدة .. إن عقليته لا يمكن أن تتسع لما تتطلبه هذه التنظيمات ..

إلى أن طلب الأسطى عبد الله إجازة من العمل ، لأول مرة فى حياته ، ليؤدى فريضة الحج .. وقبل أن يترك المطبعة غطى آلته القديمة ..

[illegible] .. حتى لا يقربها أحد فى غيبته .. ولم يعارضه أحد ، فالآلة لا تزال تعمل اسمه .. عبد الهادى .. وهى تعتبر فى المؤسسة مجرد تحفة أثرية رغم أنها لا تزال تعمل وتنتج ..

وعاد الحاج عبد الله عبد الهادى من الحج .. ولم يجد آلته ..

لقد أمر رئيس مجلس الإدارة بفك أجزائها ، وتخزينها ، حتى توضع مكانها آلة جديدة حديثة ..

وحين الأسطى عبد الله .. إن آلته مضى عليها أربعون عاما وهى تعمل ، وتحقق أرباحا .. إن ما حققته من أرباح حتى اليوم يوازى ثمنها آلاف المرات .. وهى لا تزال تعمل ، ولا تزال تدر ربحا مهما صغرت قيمته فهو ربح .. ولا يمكن أن تدفنوها فى المخزن وهى لا تزال حية .. حرام .. جريمة .. إنها حبيبتى ..

ولم يستطع الأسطى عبد الله أن يعيد حبيبته إلى المطبعة ، لتعيش أما لبقية الآلات .. وسكت .. أصبح أكثر صمتا وأكثر تباعدا ..

ثم اكتشف اختفاء قطع من هذه الآلة بالذات من داخل المخازن .. أكثر من نصف قطعها اختفى .. واستدعى الحارس أمام الإدارة المختصة لاستجوابه .. ولم يقل الحارس شيئا .. إنه لا يعرف كيف اختفت هذه القطع ، ولا متى .. واستمر وطال التحقيق .. وبدأت الهمسات تنتقل فى داخل المؤسسة وخاصة بين العمال ، ولكن لا أحد يتكلم .. إلى أن فاجأ الأسطى عبد الله الجميع .. دخل على لجنة التحقيق ، وقال فى بساطة :

- أنا الذى أخذت هذه القطع ، وأرجو أن تسمحوا لى بأن آخذ باقى القطع ..

وامتلأت المؤسسة بالضجيج ..

الأسطى عبد الله هو الذى سرق ..

وجريت إليه صارخا :

– لماذا فعلت هذا ..

قال فى هدوء :

قبل أن يسرقها غيرى .. وأنت تعلم ماذا يجرى فى المخازن ..

قلت :

– كنت تستطيع أن تتقدم بطلب شرائها ..

قال :

– إنها ملكى أنا .. وكنت سأبلغ المسئولين بعد أن أستكملها .. وخفت أن أطلب شراءها فأدخل فى إجراءات معقدة تستغرق مدة طويلة قد يضيع خلالها من الآلة مسمار أو صامولة ..

وتركت الأسطى عبد الله بسرعة ، ودخلت على رئيس مجلس الإدارة أروى له قصة الأسطى عبد الله كلها مع الآلة التيبو بشراعة ، واقترح عليه أن تهبها المؤسسة هدية له ، أو على الأقل تبيعها له ما دامت لا تريد أن تعيدها إلى مكانها فى المطبعة ..

– وتردد رئيس مجلس الإدارة ..

إنه لا يستطيع أن يعيد الآلة إلى مكانها لأن العمل ليس فى حاجة إليها ، ولأنه لا يستطيع أن يستسلم للأسطى عبد الله إلى هذا الحد حتى لا يفسد بقية العمال ، ثم إنه يجب أن يوقع العقاب على الأسطى عبد الله لأنه سرق ، وإلا اتهم بأنه يبيح السرقة ، وأصبح من حق كل عامل أن يسرق الآلة التى يعمل عليها ..

واشتدت الضجة فى المؤسسة كلها .. لم أكن أتصور أن العمال يفهمون الأسطى عبد الله إلى هذا الحد .. ويقدرونه ، ويحبونه .. إن هذه الآلة أصبحت قطعة من عمره .. إنها كل حياته .. وهى من حقه .. واللجنة

النقابية ، ولجنة الاتحاد الاشتراكى ، والأعضاء المنتخبون فى مجلس الإدارة .. كلهم مصرون على أن الآلة التيبو بشراعة هى عبد الهادى ..

ووضع الحاج عبد الهادى الحل بنفسه .. قدم استقالته ، على أن يخصم ثمن الآلة القديمة من معاشه ومن مكافأته .. وهى لا تساوى كثيرا .. إنها لو بيعت فى « وكالة البلح » كحديد خردة فلن تساوى قيمة وزنها .. والعمال من ناحية أخرى قرروا أن يخصم ثمن الآلة من مرتباتهم ، إذا تقرر أن يكون لها ثمن .. إنها ليست مجرد آلة .. إنها عبد الهادى ..

وخضع مجلس الإدارة ..

ونقل الأسطى عبد الله الآلة إلى مكان واسع كان أصلا خرابة فى أسفل تلال الدراسة .. وقضى النهار والليل يعيد تركيبها .. وعمال المؤسسة يذهبون إليه فى أوقات فراغهم ، ويعملون معه ..

ولم يشعر الأسطى عبد الله أنه استقال أو ترك العمل فى المؤسسة .. إنه لا يزال كما كان مادام بجانب الآلة التيبو بشراعة ..

وعاد أيضا كما كان .. أسطى .. يستعمل كل حقوقه وكل سيطرته كأسطى .. ويتلقى الأطفال الصغار ليصنع منهم رجالا يسيطرون على الآلة .

وفى سنوات استطاع أن يشترى من أرباح الآلة التيبو بشراعة ، آلة قديمة أخرى بشفاط ، ثم آلة ثانية وثالثة .. كلها آلات قديمة سبق استعمالها حتى يئس منها أصحابها .. إنه يستطيع دائما أن يعيد للقديم شبابه ، ويحتفظ له بقدرته على العمل ، وعلى الحركة ، وعلى تحقيق الربح .. إنه هو نفسه قديم ..

وهو الآن صاحب « مطابع عبد الهادى » ! ..

وابنه إبراهيم معه يتولى المسئوليات الإدارية والتجارية والمالية ..

وعندما كان إبراهيم صغيرا ، وقبل أن يحصل على شهادة الإعدادية ، صمم أبوه على أن يجعل منه عاملا مطبعجيا ، رغم معارضة كل أفراد العائلة التى كانت تعانى من العقدة الطبقية التى يعانى منها الكثيرون .. العقدة بين طبقة العمال وطبقة الموظفين ، والتى تجعل ابن العامل يتطلع إلى أن يكون خريج جامعة ، وموظفا ، متوهما أنه يرتقى بنفسه إلى طبقة أعلى حتى لو اكتشف أن العامل يستطيع أن يرتفع بمرتبه أو أجره إلى أضعاف مرتب خريج الجامعة ..

وأخذ الأسطى عبد الله ابنه إبراهيم إلى المطبعة ، ومنذ اليوم الأول تبين أنه لا أمل فيه .. ربما لأن إبراهيم دخل المطبعة وهو يعتبر نفسه ابن الأسطى ، من حقه أن يتدلل ، وأن يميز نفسه عن بقية العمال ، بينما الأسطى يعتبره ابن الآلة ، ويحاول أن يربيه بين أحضان الآلة كما تربى هو بصفعات الأسطى راشد ..

ولم يحتمل إبراهيم ، حتى اضطر الأسطى عبد الله أن يتركه يعود إلى المدرسة ، ويستمر فى دراسته إلى أن حصل على بكالوريوس كلية التجارة .. وأصبح موظفا ، يقرز والده ويعتبره فاشلا لأنه ليس عاملا .. مطبعجيا ..

ثم بعد أن أقام الأسطى عبد الله « مطابع عبد الهادى » أخذ ابنه معه فقط ليمسك ويراجع الدفاتر .. ولكن إبراهيم استطاع أن يقيم فى « مطابع عبد الهادى » إدارة واعية ذكية .. واستطاع أن يتغلب على اندفاعات أبيه وتهوره ، وأحيانا سذاجته فى المعاملات التجارية ، ويحقق أرباحا مستمرة ، ويتسع بالمطابع ، ويشترى الآلات القديمة ليستغل موهبة أبيه فى إعادة الشباب والحركة إليها ..

ولولا إبراهيم وإدارته ، لما استطاع الأسطى عبد الله – فى تقديرى – أن يستمر بمطابع عبد الهادى ..

ووقع الخلاف بين الأب وابنه ..

نفس الخلاف الذى سبق أن وقع بين الأب ورئيس مجلس الإدارة ..

الآلة التيبو المسطحة بشراعة ..

إن الأسطى عبد الله وضعها فى منتصف أرض المطبعة ، وأحاطها بمساحة واسعة مخصصة لها . ولا شك أنها آلة لا تزال تعمل ، وتحقق ربحا ، ولكن لو وضعت مكانها وفى هذه المساحة الواسعة ، آلة أكبر وأحدث فإنها تحقق أرباحا مضاعفة .. ثم إن منظر هذه الآلة البدائية داخل المطبعة ، لم يعد مشرفا .. إنها تثير النكات والضحكات ، وأحيانا الدهشة بين عمال وزبائن مطابع عبد الهادى .. ولكن الأسطى عبد الله لا يريد أن يرفع الآلة من مكانها .. وكل آلة أخرى يشترونها يضعها فى مكان جانبى آخر .. وعندما يحتد النقاش بينه وبين ابنه إبراهيم ، يصرخ فى وجهه :

– إنها أمى وأمك .. دمى ودمك من خيرها .. من خمسين سنة وهى تعمل من أجلى ومن أجلك ..

إلى أن جاءنى إبراهيم غاضبا يائسا ، وهو يهدد بأن يترك أباه وحده ..

ولم يكن صعبا بعد هذا الحديث الطويل أن أقنع إبراهيم بالعودة إلى أبيه .. وقلت له :

– إن أباك فى حالة حب .. وهو حبه الأول وسيبقى مخلصا له إلى آخر أيامه .. إن أباك عبقرى .. العبقرية لا تظهر فى الاختراع فحسب ، ولكنها تظهر أيضا فى التحريك .. تحريك الآلة .. وكل عبقرى قد يبدو أمام الناس شاذا ، أو قد تكون له نقطة ضعف .. وأبوك يضعف أمام حبه للآلة التيبو بشراعة ..

وتنهد إبراهيم كأنه يستسلم لقدره الذى فرضه عليه أباه ، ثم صحبته وذهبت معه إلى المطبعة ..

وقال الأسطى عبد الله وهو يستقبلنا :

– والله لا أدرى ماذا يمكن أن يحدث فى الدنيا بعد أن نتركها لهؤلاء الأولاد ..

* *

و ..

هذه قصة كلها من رسم خيالى ، ولكن من وحى واقع عشت فيه منذ كنت فى السابعة من عمرى ألعب بين آلات الطباعة اليدوية ، إلى أن كبرت وكبرت الآلة ، وأصبحت أعيش بقلمى فى رعاية آلات « الروتاتيف » و « اللتربرس » و « الأوفست » و « الروتغرافور » و « اللينوتيب » و « الأنترتيب » .. و .. وقطع من الحديد ، يصبح قلمى بغيرها وكأنى أحادث به نفسى .. قلما صامتا ..

كلمة

هذه قصة .. وكاتب القصة غير المؤرخ ، وغير ناشر التحقيق .. إنه يملك حرية خلط الواقع بالخيال .. وكل القصص التى تعرضت للمعارك الحربية كقصة « الحرب والسلام » وقصة « معركة ووترلو » وبقية مثل هذه القصص ، هى – كما سبق أن كتبت – تعتمد على استيحاء الواقع لإطلاق الخيال ، أى هى خيال من وحى الواقع .

وهذه قصة مستوحاه من معركة مضى عليها أكثر من ثمانية عشر عاما أى أصبحت أسرارها ملكا للتاريخ ، ولم يعد فى إذاعتها ما يمس الصالح العسكرى ..

وأقول هذا الكلام حتى لا يحاسبنى أحد كمؤرخ أو كمحرر عسكرى .. إنى فقط كاتب قصة يسعى لنعيش كلنا معاركنا العسكرية .

□

أضيئوا الأنوار.. حتى نخدع السمك

إنه يقول دائما لكل من يناقشه عن الحرب وفنون الحرب :

- إنك لن تعرف الحرب أبدا إلا إذا حاربت فعلا ..

وحتى بعد أن تحمل مسئوليات عسكرية أكبر ووصل فى دراسته العسكرية إلى أقصى ما يستطيع أن يصل إليه ، لا يزال يكرر فى كل حديث لـه :

- إنك لن تعرف الحرب أبدا إلا إذا حاربت فعلا ..

وربما كان يعبر بهذه الكلمة عن نفسه وعن حياته الشخصية ، أكثر مما يقصد التعبير عن مجرد رأى ..

وقد عرفته وهو لا يزال طالبا فى المدارس الثانوية .. وكان يبدو كصبى مدلل ، فهو الابن الوحيد بين ثلاث أخوات بنات ، وأبوه وأمه يلاحقانه بتدليلهما له ، والخوف والحرص عليه ، كأنهما يعتبرانه حلية غالية تتزين بها الأسرة ، وليس من حق أحد أن يلمسها ، وليس من حقها - حق الحلية الغالية - أن تتصرف بنفسها .. وقد كان من نتيجة هذا الحرص المغالى فيه الذى يفرضه عليه أبوه وأمه أن تكونت فيه منذ صغره نزعة التحدى .. التحدى لأبيه وأمه حتى يحس بشخصيته حرة كاملة .. ثم تطورت نزعة التحدى إلى نزعة المغامرة .. كان يغامر وهو يلعب فى الشارع ، ويغامر وهو يركب الدراجة ، ويغامر وهو يتسلل فى الخفاء ويستولى على سيارة والده وينطلق بها وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من عمره ، ويغامر عندما يسمع كلمة أو يلمح نظرة موجهة إلى إحدى أخواته البنات عندما يصادف أن يصاحبهن فى الطريق ، فيقذف نفسه فى معركة أكبر منه ، يخرج منها جريحا ..

وأمه تتلقى كل مغامرة كأنها صدمة ، وتصرخ ، وقد تجرى إلى الشارع بحثا عنه ، وأبوه حائر معه لا ينتهى من مشكلة من مشكلاته حتى يواجه مشكلة أخرى .. وعرف فى المدرسة بأنه طالب متعب .. مغامر .. لا يهدأ .. وبرغم ذلك فقد استطاع أن يحتفظ دائما برضاء أبيه وأمه ، ويحب مدرسيه وزملائه فى المدرسة ، ربما لأنه ولد ذكى ، وكان ذكاؤه يلهمه الحدود التى تتوقف عندها مغامراته ، بحيث لا يخسر أحدا ولا يجرح أو يؤذى أحدا ، وذكاؤه هو الذى كان يحقق له النجاح فى كل امتحاناته الدراسية ، ويكفل له أن يدبر أموره ليصل إلى ما يريده ..

إلى أن نال شهادة التوجيهية فى أواخر الأربعينات ، وقرر أن يلتحق بسلاح الطيران ..

ولم يكن من هواة الحرب .. ولم يكن من المؤمنين بأن يساهم فى القضية الوطنية بإعداد نفسه للقتال .. الحرب لم تخطر على باله أبدا .. كل ما هنالك أن نزعته المغامرة تدفعه إلى أن يقود طائرة .. وأخطر أنواع الطائرات ..

وأبلغ والديه أنه سيقدم نفسه لسلاح الطيران ..

وصرخت أمه ..

وذهل أبوه ..

وبكت أخواته البنات ..

لا يمكن أن يعرضوا الحلية الغالية التى تتزين بها الأسرة للضياع .. لا يمكن أن يتركوا الابن الوحيد يعيش الخطر كل يوم وكل ساعة ويعيشونه معه ..

ولكنه مصمم .. إن شخصيته التى اكتملت ، ونزعته المغامرة التى تأصلت فيه ، وروح التحدى ، كل ذلك أصبح أقوى من الرجاء وأقوى من

الدموع التى تسكب أمامه ، حتى لو كانت دموع أمه ..

وقدم نفسه لسلاح الطيران ، واجتاز كل الإجراءات ، ولم يبق إلا الكشف الطبى ، ولم يبق من الكشف الطبى إلا الكشف على قوة نظره ..

وجلس أمام اللوحة التى تحمل علامات قياس النظر ، وما كاد الطبيب المختص يشير إلى أول علامة ليختبر نظره ، حتى اكتفى ، وانحنى يؤشر على أوراقه ..

إنه مرفوض لضعف نظره ..

وجن ..

إنه لم يكن أبدا ضعيفا فى نظره .. دائما ٦ على ٦ ..

وانتظر الطبيب خارج حجرة الكشف ، وقذف نفسه عليه يريد أن يحاسبه ، وصده الطبيب فى حنان ، وهو يقول له :

- بصراحة يا ابنى هناك توصية من الجهات العليا بعدم إلحاقك بالسلاح ..

وأعانه ذكاؤه على أن يفهم بسرعة .. إن والده لم يجد طريقا لحرمانه من الطيران حرصا على راحة أمه ، إلا بأن يتوسط لدى المسئولين حتى يرفضوه .. وكان هذا يمكن أن يحدث أيامها .. وحدث ..

ودله ذكاؤه أيضا على ألا يقاوم ، إنه لا يريد ولا يستطيع أن يقف ضد والده أمام الجهات المسئولة ، وهو أرحم بوالدته من أن يصل إلى هذا الحد من التحدى ..

وفى صمت عاد إلى أبيه ، وجمع بعض ثيابه فى حقيبة ، وسافر إلى الاسكندرية ، وهناك قدم نفسه للسلاح البحرى ، دون أن تعلم أسرته شيئا ..

ولم يكن أيضا يفكر فى الحرب ولا فى القتال .. كل ما هنالك أنه

استطاع أن ينقل غريزة المغامرة التى تسيطر عليه ، من السلاح الجوى ، إلى السلاح البحرى ..

ولم يكن السلاح البحرى يعنى أيامها أكثر من اليخت المحروسة المخصص للملك ، وعدة قطع بحرية أخرى .. ولكنه كان بالنسبة له عالما جديدا .. عالم البحر ، بدلا من عالم الجو .. عالم يمكن أن يجربه ويعيش فيه حياة جديدة ، بروح جديدة وعقلية جديدة ..

وقبل فى السلاح البحرى ..

وعرفت أسرته واستسلمت .. فالبحر أضمن وأكثر أمانا من أن تترك ابنها يحلق فى السماء ..

وبدأت الحياة العسكرية داخل السلاح البحرى تبنى له شخصية جديدة .. وبدأت غريزة التحدى التى كانت تسيطر عليه تتجه إلى نوع جديد من التحدى .. تحدى شيئا آخر .. تحدى الأمواج .. وتحدى الأعاصير .. وتحدى آلات القطعة العائمة التى يقف فوقها ، حتى يستطيع السيطرة عليها .. واكتشف أن البحرية العسكرية لا تحتاج إلى مجرد الشجاعة والجرأة واستعمال السلاح .. ولكنها تحتاج إلى علم .. علم واسع لا تتسع كل أيامه لاستيعابه .. علم تحتاج إليه لتتعامل مع المجهول .. مع البحر .. ومع الهواء .. ومع الصخر .. ومع البرق .. ومع المطر .. وربما لهذا رفعت سنوات الدراسة فى الكلية البحرية إلى أربع سنوات ، لأن ثلاث سنوات لم تكن تكفى لمجرد الاشتراك فى حمل المسئولية .. وهو يدرس .. ويدرس .. ويزاول التدريبات كأنه يطعم روح المغامرة المتأصلة فيه .. ورؤساؤه فرحون به .. فرحون حتى بمغامراته الشخصية التى لم يكف عنها .. هذه المغامرات التى كانت تثير دموع أمه وشهقات أبيه ، تثير هنا الضحكات والنكات ..

وتخرج ..

أصبح ضابطا بحريا ..

وبرغم ذلك فهو لا يستطيع أن يستكمل حياة جديدة .. إن مشكلته التي عاش فيها عمرا طويلا ، لا يزال يعيش فيها ، دون أن يجد لها حلا ..

مشكلته مع « مالينا » ..

ومالينا فتاة من بنات الجيران .. والدها أرمنى ولد فى مصر ، وأمها فرنسية جاءت من فرنسا .. وجمعتها صداقة الجيران مع أخواته البنات ، وتوطدت هذه الصداقة حتى جمعت بين الأسرتين .. ومنذ كانا فى عمر الصبا و « مالينا » عندهم دائما فى البيت ، وهو يدخل بيتها وحده أو مع أخواته كأنه يدخل بيته .. ومنذ صباه وشىء يجمع بينه وبين « مالينا » .. لا يدرى ما هو ولكنه كان دائم الشجار معها ، أحيانا كان يضربها .. وأحيانا كانت تثيره إلى أن يضربها .. وقد تراه فتجرى كأنها لا تطيقه .. ويراها فيقلب شفتيه كأنه قرفان .. والعمر يمر بهما لا يكفان عن هذا الشجار وهذا التناحر .. ثم بدأ مع العمر يكتشف كل منهما لماذا يناحر الآخر .. اكتشفا أن كلا منهما يقاوم حبه للآخر .. وكل منهما يعلم أن لا أمل فى هذا الحب ..

إنها أجنبية مسيحية ..

وهو مصرى مسلم ..

والدها كاثوليكى متطرف فى تدينه ، والقسس لا تكف عن زيارته فى بيته ، بل إنه كان يتمنى دائما أن يهب ابنته « مالينا » للدير ، وكان حديث الدير يتردد كثيرا بين « مالينا » وأخواته البنات ، وكثيرا ما كانت ترتدى أمامهن زى الراهبات وتقف أمام المرآة ، ويتضاحكن .. إنها لا ترفض أن تكون راهبة ، ولكنها ليست مصممة على الترهب تصميم أبيها ..

وهو .. إن أسرته لا يمكن أن ترضى له « بمالينا » . ولكن أسرته

لا تهم .. لقد عودها التحدى ، ويستطيع فى النهاية أن يصل إلى إقناعها .. ولكن الأهم أنه يعد نفسه ليكون ضابطا فى القوات المسلحة .. ضابط بحرى .. والقوانين تحرمه أن يتزوج من أجنبية .. فهل يستطيع أن يغامر بتحدى القوانين ..

وكل منهما يقاوم حبه .. ولا يستطيع .. إنه وهو طالب فى السلاح البحرى ينتظر أيام إجازته كل أسبوع ليعود إلي القاهرة ويرى « مالينا » .. وهى دائما فى انتظاره .. ليثير كل منهما الآخر ويتشاجرا .. وقد خف شجارهما .. اتخذ كلمات أرق .. ولكن لا أحد منهما يريد أن يستسلم للآخر .. ولا أحد منهما يريد أن يقول للآخر كلمة حب .. بل لم يكن بينهما لمسة يد ..

إلى أن تخرج ، ومشكلته لم تخرج من كيانه ..

وكان فى البيت ، وكانت « مالينا » مع إحدى أخواته ، وقال لهما إنه يريد أن يذهب إلى السينما ، وأمرهما أن يتحركا – بالأمر – ليذهبا معه .. واعتذرت أخته لأنها تحس بالتعب ، وحاولت « مالينا » أن تعتذر أيضا ، ولكن أخته صرخت فيها لأنها تعلم أنها ليست متعبة مثلها .. واضطرت « مالينا » أن تستسلم لأخته ..

وخرجت معه ..

لأول مرة بعد هذا العمر الطويل .. معا وحدهما .. ولأول مرة يجلس ملتصقا بها على مقعدى السينما ملتفين بضوء الليل .. ولم يستطع أن يقاوم أكثر .. ترك يده تمتد إلى يدها ، وتركت يدها ترقد فى يده .. واليدان ملتصقتان فى صمت يعيشان على لحن حلو من دقات قلبيهما .. إلى أن خرجا من السينما ، وقال لها ويده تحتضن يدها :

– تكلمى ..

قالت فى خفر كأنها فى طريقها إلى الدير :

- تكلم أنت ..

قال :

- إنى أحبك ..

قالت :

- وأنا ..

قال :

- منذ متى ..

قالت :

- منذ وعيتك ..

قال :

- وماذا نفعل ..

قالت :

- كل ما تريد ..

قال :

- نتزوج ..

قالت :

- إنى لك ..

وصرخت أمه عندما أبلغها أنه قرر الزواج من « مالينا » ، لقد مضت سنوات وهى تستقبل بين الأسر الكبيرة بترحاب كبير ، وكل أسرة تطمع فى أن تأخذ ابنها لابنتها .. سيحرمها ابنها من هذه الاستقبالات .. إن « مالينا » لا تصلح حتى لإقامة حفل زفاف يشرفها .. كيف تزف « العوالم » فتاة أجنبية .. وأبوه عاش عمره وهو يحلم أن يأخذ لابنه إحدى بنات الطبقة

الراقية ، كما تعود أن يعطى بناته لأبناء هذه الطبقة .. و « مالينا » ليست سوى ابنة تاجر غير معروف وليس له طبقة فى مصر .. ولكن أخواته البنات فرحن .. إنهن يحببن « مالينا » ، وقد عشن العمر كله فى هذا الحب ، إن أخاهن يأتى « بمالينا » كهدية لهن .. وقامت فى البيت مناقشات حادة حول هذا الزواج ، والأم والأب يخافان أن يقدم على مغامرة من مغامراته المجنونة ، فوافقاه بشرط وهو أن تعلن « مالينا » إسلامها .. ولكن لماذا ..

إن القانون لا يفرض على المسلم أن يتزوج مسلمة .. والعائلة تصر وإلا قطعت عنه إعانتها له ، وكان إصرارها على أمل أن ترفض « مالينا » الإسلام لأن والدها معروف بتعصبه ، ولأنها عاشت تعد نفسها لدخول الدير ..

وقال لمالينا :

- هل تقبلين الإسلام .. ؟

قالت :

- كل ما تريد ..

واعتقد أن المشكلة قد انتهت وأنه سيتزوج « مالينا » وسافر إلى مركزه فى الإسكندرية وترك أخواته البنات وأمه يسعين لدى أسرة « مالينا » .

ورفضت أسرة « مالينا » أن توافق ، وكانت أمها الفرنسية أشد إصرار فى رفضها من أبيها الأرمنى .. إنها ترفض فى عناد وتعال كأنها لا تقبل أن تنزل بابنتها إلى هذا المستوى .. وبدأت العلاقات بين الأسرتين تتوتر .. ولكن والد « مالينا » بدأ يخفف من حدته ، وبدأ يحاول ألا يخسر صداقة الأسرة .. ربما لأن الثورة كانت قد قامت قبل ذلك بمدة ، وقد قام بها رجال الجيش ، والذى يتقدم لخطبة ابنته من رجال الجيش .. وانتهى إلى أنه وافق على أن يستقبله ، ولكن مضت مدة طويلة وهو لا يحدد موعد استقباله ..

إنه يأتى إلى البيت ولكن الوالد ليس فى البيت . ويعود إلى الإسكندرية ، ثم يعود إلى القاهرة .. والوالد ليس فى البيت .. واستطاع أن يحصل على إجازة أسبوع كامل ، وفى كل مرة يذهب ليلتقى بأب « مالينا » .. إنه غير موجود .. وكلما سأل مالينا تبكى .. وعرف أن أباها يتهرب منه ، وأنه أعطاه وعدا بلقاء إلى حين يستطيع أن يدبر خروج « مالينا » من مصر كلها .. وتغلبت عليه روح التحدى .. وخرج من بيته فى الخامسة صباحا ، وفى جيبه مسدسه ، وطرق باب بيت « مالينا » .. وفتحت له .. وخاطبها فى هدوء :

– أين أبوك .. ؟

قالت وخوفها مختلط بفرحتها بكل هذا الحب :

– نائم ..

ولم يتكلم .. دخل فى هدوء وفتح غرفة النوم وقد أخرج مسدسه من جيبه وأمسك به فى يده .. وقام الأب مذعورا وبجانبه زوجته الفرنسية .. وصرخ الأب :

– ماذا تريد ؟

قـال :

– أريد أن أعرف هل أتزوج « مالينا » بموافقتك ، أم أهرب بها ..

قال وهو ينظر إلى المسدس فى هلع :

– مالى أنا .. اسأل « مالينا » ..

قـال :

– اسألها أنت ..

وصرخ الأب يستنجد « بمالينا » :

– « مالينا .. مالينا » ..

وجاءت « مالينا » إلى الغرفة وهى تتعثر فى دموعها .. وعاد الأب يصرخ فيها :

– هل تريدينه ..؟

قالت وهى تشهق :

– نعم أريده ..

قال كأنه يوجه كلامه إلى المسدس :

– وأنا موافق .. وأمك موافقة .. والعالم كله موافق .. ولكن .. لماذا جئت تخطبها بهذا المسدس ..

قال وهو يبتسم :

– لأنى كنت سأخطفها ، وخفت أن تقف فى طريقى ..

إلى هذا الحد كان مجنونا فى مغامراته ، وفى فرض إرادته ، برغم أن الإنسان الطيب يعيش دائما فى داخله .. وقد أعلنت خطبته رسميا إلى مالينا قبل أن تنتهى إجازته .. أعلنت فى لقاء عائلى ضيق ، فلا أسرته ولا أسرتها كانتا مرحبتين بهذا الزواج ..

وأحس كأنه تغير إلى شخص آخر بعد أن أطمأن إلى أن « مالينا » أصبحت له .. أحس كأنه لم يعد فى حاجة بعد اليوم إلى التحدى أو إلى المغامرة على الأرض .. كل تحدياته ومغامراته ستكون فى البحر ، ومع البحر ، كضابط بحرى ..

وفوجىء بعد أسابيع بقائده يستدعيه ليقول له :

– هناك معلومات تقول إنك على وشك الزواج بأجنبية ..

قال فى هدوء :

– هذا صحيح ..

وقال القائد :

– ولكنك تعلم أن هذا محرم على الضباط ..

قال :

– أعلم .. وإذا لم يكن هناك طريق استثنائى فإنى سأطلب إعفائى قبل الزواج ..

وقال القائد مبتسما :

– حتى طلب الإعفاء محرم عليك .. إننا نعتز بك كضابط وكبحار .. وواجبك يحتم عليك أن تخلص لمسئولياتك ..

قال :

– إنى مخلص دائما .. إنى أعيش كل حياتى للسلاح وللبحر ، ولكنى لا أستطيع أن أستريح فى البحر إلا إذا اطمأننت إلى راحتى على الأرض ..

وقال قائده وهو يحبه فعلا :

– اتركنى أبحث لك عن حل .. ولكن هناك مهمة عاجلة .. إن الفرقاطة ستبحر إلى مالطة لإجراء إصلاح كبير فيها هناك .. وأريدك أن تنضم إلى طاقمها ، فأنت تستطيع أن تسهم بالكثير .. وقد أصدرت أمرا بذلك ..

ورفع يده بالتحية العسكرية لقائده وانصرف .

إنه يعرف إن الفرقاطة تتطلب وقتا طويلا لترميمها وتعميرها .. وقتا سيقضيه بعيدا عن « مالينا » فى مالطة ..

فهل هو قرار مقصود من قائده لإبعاده عنها .. هل تدخل والده لإبعاده عن « مالينا » كما سبق أن تدخل لإبعاده عن سلاح الطيران .. لا يظن .. ثم إن اختياره فيه تقدير له يفخر ويعتز به .. ثم إنه ضابط يجب أن يطيع الأوامر ..

وسافر مع الفرقاطة إلى مالطة ..

وبقى معها هناك عاما كاملا .. فى مالطة .. بعيدا عن « مالينا » .. ولكنه لم يكن بعيدا عنها .. إنه فى كل ليلة قبل أن ينام يكتب لها خطابا حتى تعيش معه كل يوم .. وفى كل يوم يتلقى منها خطابا يعيش به معها .. وقد أصبح معروفا بين طاقم المركب بأنه أكثرهم هدوءا ، وأكثرهم رزانة ، وأكثرهم ابتعادا عن حياة البحارة فى ليالى الموانى الأجنبية ..

ومر عام ..

إننا فى عام ١٩٥٦ ..

وقد أممت قناة السويس .. وبدأ الهجوم الإسرائيلى ، وأعلن الإنذار البريطانى – الفرنسى الذى يؤيد هذا الهجوم .. إنها الحرب .. وبريطانيا تشارك فى إعلان هذه الحرب على مصر .. ومالطة مستعمرة بريطانية ، وميناء ومركز للأسطول البريطانى .. والفرقاطة المصرية لا تزال هناك .. لقد تم إصلاحها ، ولكنها لا تزال فى حاجة إلى إجراء تجارب تستغرق بضعة أسابيع .. وقرر القائد أن يهرب بها قبل أن يستولى عليها الأسطول البريطانى الذى أصبح قوة معادية محاربة تحارب مصر ..

واستطاعت الفرقاطة المصرية أن تهرب ..

استطاعت أن تتسلل من تحت سيطرة الأسطول البريطانى ، حتى أصبحت فى عرض البحر .. وتلقت الأوامر من مركز القيادة فى مصر بأن تتجه إلى بورسعيد .. ووصلت إلى هناك فى سلام .. سلام احتاج لكل عبقرية قائدها ، ولكل مواهب طاقمها ، واحتاج أيضا إلى الاعتماد على الله ، وعلى القدر ، وعلى الحظ فقد كانت هذه الفرقاطة لا تحمل ذخيرة واحدة .. ومدافعها الستة لا تساوى شيئا بلا ذخيرة وكل أسلحتها حتى الخفيفة ليس لها ذخيرة ، فقد كانت تحت الإصلاح ، وأى مركب حربى تفرغ من ذخيرتها وهى تحت الإصلاح .. ولو حدث وتعرضت لها أية

قطعة محاربة معادية وهى فى طريقها إلى مصر ، لما كانت تملك
إلا الاستسلام .. ولكنها وصلت إلى بورسعيد بسلام ..

ولم يكن قد مضى أكثر من ساعات على وصولهم إلى بور سعيد ..
ولم يكن قد استطاع أن يحصل بعد على إذن بإجازة يقضيها فى القاهرة
ليلتقى « بمالينا » .. خطيبته « مالينا » .. زوجة المستقبل .. شريكة ما بقى
له من عمر .. وكان يقضى هذه الساعات بين احتفالات الترحيب بعودتهم ،
وكان أمتع ما فى هذه الاحتفالات هو أنهم يتمتعون بأكل مصر الذى حرموا
منه العمر الطويل .. الفراخ والحمام والطعمية والباذنجان المقلى ،
والمصقعة .. ويتضاحكون فى صخب .. وفى نفس ليلة عودتهم إلى
بورسعيد وخلال تناولهم العشاء ، استدعى قائدهم ليتلقى أمرا عاجلا .. إنهم
مكلفون بالقيام بعملية حربية هامة تبدأ فى الليلة ذاتها .

وأبلغهم القائد بالقرار دون أن يبلغهم بالتفاصيل ..

وكانت مفاجأة .. إنه لم يمض سوى ساعات على وصولهم ، ثم إن
الفرقاطة ليس بها ذخيرة .. ومخازن الذخيرة ليست هنا .. إنها فى
الإسكندرية .. وكل شىء كان محسوبا حسابه ، فقد صدرت الأوامر بنقل
الذخيرة إليهم من بين ذخيرة مدمرة أخرى ترابط معهم فى بورسعيد ..
وقضوا الساعات ينقلون هذه الذخيرة .. وهى معجزة .. فليس من السهل
أن تنقل ذخيرة من مركب إلى مركب آخر ، بلا معدات نقل ، وبدون
الأجهزة المعتادة التى تستعمل عندما تنقل الذخيرة من مخازنها الطبيعية ..
ولكن هذه المعجزة تمت أيضا ، برغم أنهم لم يستكملوا كل أنواع الذخيرة ..
قاذفات الأعماق التى توجه ضد الدبابات – مثلا – لم يحصلوا عليها وذخيرة
المدافع المضادة للطائرات .. و .. و ..

لا يهم ..

وتحركت الفرقاطة .. وإسرائيل كانت قد بدأت الهجوم فعلا ،
وبريطانيا وفرنسا لا تزالان ترفعان الإنذار ..

وجمع القائد ضباطه وأبلغهم الأوامر بعد أن أصبحوا فى عرض
البحر ..

إنهم مكلفون بالهجوم على ميناء حيفا وضرب مستودعات البترول
بها ، وضرب القطع البحرية الإسرائيلية المرابطة هناك ، وضرب التكنات
والتجمعات العسكرية المحيطة بها ..

ولكن ..

هل يقومون وحدهم بكل هذه العملية .. إن الفرقاطة سلاح محدود ..
إنها مدمرة صغيرة .. نصف مدمرة تقريبا ..

ثم أين الخرائط التى تبين ميناء حيفا من الداخل ..؟ ليس لديهم ما يبين
مراكز مستودعات البترول ، ولا أرصفة الميناء التى ترابط عليها القطع
البحرية ، ولا الثكنات التى تحيط بها ، ولا مواقع مدافعها المضادة .. إن
الخرائط التى لديهم تبين لهم فقط موقع حيفا .. كل الخرائط تبينه .. ولكن
ليس لديهم خرائط تفصيلية عن الميناء نفسه ..

وجاءهم الرد ..

إنهم لن يكونوا وحدهم .. سلاح الطيران سيشترك معهم .. سيسبقهم
بغارات شاملة على الميناء ، وسيكونون دائما فى حماية مظلة جوية ،
بمجرد وصولهم إلى هناك .. أما الباقى .. فالله معكم ..

ولم يكن فى استطاعتهم أن يستمروا فى النقاش .. يجب إطاعة
الأوامر ..

والفرقاطة فى طريقها إلى حيفا .. وكل طاقمها فى صمت .. صمت
لا يمكن أن يفهم معناه .. هل هو ترقب .. هل هو خوف .. هل هو

استسلام للقدر .. هل هو انشغال فكر .. هل هو ابتهال إلى الله .. إنها المرة الأولى التى يشترك فيها أى منهم فى معركة .. ربما كانت المرة الأولى التى يقوم فيها الأسطول المصرى كله بمعركة منذ أيام محمد على .. والصمت لا يمكن تفسيره ..

وهو فى صمته يسترجع كل ما تعلمه فى دراسته عن المعارك البحرية .. إن أول ما تعلمه من فنون المعارك هو أن الذى يبدأ بالهجوم يحتاج إلى قوة توازى ثلاثة أضعاف القوة التى يحتاج إليها الجيش الذى يقف موقف الدفاع .. وهم الآن فى طريقهم إلى عملية هجومية ، فهل توازى هذه الفرقاطة الصغيرة التى يهاجمون بها ثلاثة أضعاف قوة الدفاع الإسرائيلى فى حيفا .. ربما كان الاعتماد على عنصر المفاجأة ، ولكن عنصر المفاجأة لا يمكن أن يساوى أكثر من ٣٠٪ لأى تقدير ، لأن الحرب معلنة فعلا ، والجيوش الإسرائيلية والبريطانية والفرنسية تتحرك فعلا ، والمفاجأة لا تصل إلى قمة قوتها إلا إذا كانت مفاجأة البدء بالحرب ، لا مجرد مفاجأة خلال الحرب .. ولكن ربما كان مجرد الهجوم على حيفا بقطعة بحرية صغيرة هو فى ذاته مفاجأة لا يمكن أن يتوقعها أحد ، لأنها عملية لا يمكن أن تدخل فى حساب أى عاقل .. وربما كان الاعتماد الأكبر فى كل هذه العملية هو اعتماد على سلاح الطيران الذى سيسبق بغارة على الميناء ، وسيحمى الفرقاطة بمظلة جوية .. ربما .

والفرقاطة قد أطفأت كل أنوارها وتتحرك فى البحر نحو حيفا ، والساعة حوالى الثانية صباحا ..

وتحركت علامات لوحة الرادار تشير إلى أن هناك قطعتين بحريتين قريبتين منهم .. لا شك أنهما من قطع السلاح الإسرائيلى .. ولا شك أن الرادار عندهم قد نقل إليهم أيضا علامة الفرقاطة المصرية .. والرادار يصدر علاماته بنقاط متحركة دون أن يبين نوع السفينة التى تتحرك ، ولكن من المؤكد أنهما من القطع الحربية ، لأن مجال تحركهما ليس داخل الخط

الملاحى التجارى .. والفرقاطة المصرية لا تريد أن تتعرض لأى صدام قبل الوصول إلى حيفا ، ولا تريد أن تكشف عن شخصيتها لأى مراقب .. وبسرعة حولت الفرقاطة طريقها إلى داخل الخط الملاحى المدنى ، حتى يضلل العدو ، ويعتقد أنها مجرد مركب تجارى ينقل البضائع أو المدنيين المهاجرين إلى بيروت أو إلى قبرص ..

ونجحت الخدعة ..

اختفت العلامات من فوق لوحة الرادار .. لقد ابتعدت القطعتان المعاديتان عن الفرقاطة المصرية ..

وعاد الصمت الذى لا يمكن تفسيره يخيم على الجميع .. وكان فى لحظات خاطفة يطلق عينيه إلى أمواج البحر ، فيرى فى داخلها بيته فى القاهرة .. يرى أمه وأباه وأخواته البنات .. ويرى « مالينا » .. لقد مضى عام لم ير « مالينا » .. ربما لن يراها أبدا ، ولن تراه ..

وهم يقتربون ..

إنهم الآن فى موقع المعركة ..

وكل ميناء حيفا يبدو أمامهم .. ويبدو مضيئا .. كله مضىء .. الأنوار تكشفه كله .. لم تسبقهم إليه غارات جوية ، ولا يبدو أنهم يتوقعون أى غارة جوية .. ومراكب الصيد التى تضىء فى الليل لاجتذاب السمك ، منتشرة حول الميناء .. وهم يعلمون إن إسرائيل تزود كل مركب صيد بجهاز لاسلكى ، وتضع بين أفراده جنديا مكلفا بالمراقبة البحرية .. ولكن .. لا يهم .. المهم هو الغارة الجوية .. والاتصالات اللاسلكية مستمرة بينهم وبين مركز القيادة فى مصر ، وهم يؤكدون أن الغارة ستحدث ، والمظلة الجوية ستصلهم .. ولا شىء يحدث أو يصل ..

وقرروا أن يبدأوا العمل .. والله أكبر ..

وحركوا الفرقاطة بحيث يقومون بعملية خداع وتضليل ، فساروا بها داخل البوغاز الذى يسبق الميناء ، إلى أن أصبحوا فى مواجهة الميناء .. وانطلقوا بأقصى سرعة ومن حولهم قوارب الصيد .. لقد اصطدموا بأحد هذه القوارب وحطموه ..

وفتحوا النيران تدمر كل ما تصل إليه فى الميناء .. وهم لا يعلمون أين تقع مخازن البترول ، ولا أرصفة القطع البحرية ، ولا مراكز التجمعات العسكرية .. ولكنهم يرون نيران مدافعهم تشتعل فى كل مكان .. ومع الطلقة الأولى كان كل شىء يتغير فوق ظهر الفرقاطة .. كل من عليها لم يعد صامتا ولا جامدا .. كل منهم يتحرك كأنه صاروخ .. وكل منهم يصيح وهو يرى النيران تشتعل فى أرض العدو .. « الله أكبر الله أكبر » .. وكل منهم كان يعلم أنه مقبل على عملية انتحارية .. أنه سيموت .. ولكن الموت لم يعد يخطر على بال أحدهم ولا على إحساسه .. كل منهم يحس أنه أقوى من الموت .. إنها المرة الأولى الى يعيش فيها أى واحد منهم فى معركة ، ولم يكن يدرى أن المعارك تخلق فى الإنسان كل هذه القوة ..

ولكن ..

الغريب أن الميناء لا يرد على هجمتهم .. لم تخرج إليهم أية قطعة بحرية ، ولم تطلق عليهم المدافع الساحلية .. وهم لا يستطيعون أن يستمروا فى الضرب ، فيجب أن يحتفظوا بنسبة من الذخيرة تحميهم فى العودة ، ثم يجب أن يحسبوا حساب الوقود الذى يعتمدون عليه ..

وقرروا إنهاء العملية ، وأبلغوا القيادة فى مصر ، وبدأوا يبتعدون عن حيفا ، وكل من على الفرقاطة يهتف ، ويضحك ويقبل أحدهم الآخر .. وهو واقف يفكر فى سر هذا الصمت الإسرائيلى الذى قوبلت به هجمتهم على الميناء .. وقد احتضنه أحد الجنود وأخذ يقبله وهو يصيح .. « ربنا

يخليكو لنا » .. ولكنه لا يستطيع أن يبادل الجندى فرحته .. إنه يفكر فى السر ..

وابتعدت الفرقاطة عن الميناء حوالى ميلين .. وفجأة انطلقت من حولها القنابل .. إنها قنابل ضخمة لا يمكن أن تنطلق من مدافع تستطيع أن تحملها فرقاطة أخرى أو حتى مدمرة عادية .. إن كل قنبلة تسقط بعيدا عنهم ، وبرغم هذا تهز مركبهم حتى تكاد تطير بها فى الهواء .. وقد عرفوا فيما بعد أن هذه القنابل كانت تطلق عليهم من مدمرة فرنسية مرابطة فى ميناء حيفا ولم تخرج إليهم .. والقنابل تتوالى وهم يتحايلون عليها بالمراوغة فى اتجاههم ، وليس هناك ما يمكن أن يحميهم إلا القدر .. الحظ .. إرادة الله .. وقد أنقذتهم إرادة الله ، فاستطاعوا أن يصلوا إلى أبعد من مرمى النيران دون أن تصيبهم .

وهم يداومون الاتصال بمركز القيادة .. أين المظلة الجوية .. والقيادة تطمئنهم .. إنها فى طريقها إليكم ..

وابتعدوا أكثر داخل البحر ، وفجأة لمعت إشارات ضوئية من بعيد .. وفى ضوء هذه الإشارات ظهرت ثلاث قطع بحرية إسرائيلية قطعتان كبيرتان .. والقطعة الثالثة أصغر .. والإشارات موجهة إليهم تسأل السؤال العادى : « قل من أنت » ؟ .

ولم يعلنوا من هم ، ولكنهم ردوا على الإشارة بنفس السؤال : « قل من أنت » ؟

وجاءهم الرد بالإشارات الضوئية .. نحن السلاح البحرى الإسرائيلى ..

ولم يردوا عليهم ..

وبعد دقيقة واحدة ، انهالت النيران عليهم .. ولم يكن أمامهم إلا أن

يردوا عليها .. وقد انتظروا قليلا قبل أن يردوا حتى تقترب المراكب الإسرائيلية أكثر ، وحتى يطمئنوا إلى عدم ضياع ذخيرتهم .. ولكن مراكب إسرائيل لا تقترب .. تضرب من بعيد .. وقد أصيبت الفرقاطة المصرية .. ضربت فى أحد جوانبها .

وبدأوا الضرب وبقية الرجال يسدون الثغرات وينزحون الماء الذى يتسرب من الثغرات .. وقد أصابوا هم أيضا قطعة إسرائيلية .. القطعة الصغيرة .. ربما لم يغرقوها ولكنهم اضطروها إلى الابتعاد عن المعركة .

واتصالات مستمرة مع مركز القيادة فى مصر .. أين المظلة الجوية .. ؟

وفجأة سمعوا صوت الطائرات فوقهم .. لابد أنها طائرات الميج المصرية .. وهم لا يعرفون شيئا عن الطائرات الميج ، لقد كانوا كلهم فى مالطة قبل أن تبدأ مصر فى استيرادها ، فلم يتعودوا تمييزها .. ثم لم تكن هناك أى إشارات أو مخاطبات متفق عليها بينهم وبين قادة الطائرات .. كل ما اتفق عليه هو أن تطلق الفرقاطة المصرية إشارة دخان فى الهواء وترفع العلم المصرى ، حتى تميزها الطائرات المصرية عن بقية القطع البحرية .. ولا شك أن هذه الطائرات المصرية التى وعدتهم بها القيادة ، فأطلقوا إشارة الدخان ورفعوا العلم المصرى ..

ومرت الطائرات من فوقهم ، ثم اجتازتهم وحلقت فوق السلاح البحرى الإسرائيلى ، ثم عادت إليهم مهاجمة ، تطلق عليهم الصواريخ وقذائف المدافع الرشاشة .. إنها طائرات إسرائيل ..

وأصيبت الفرقاطة المصرية ..

لم تغرق .. إن قطع السلاح البحرى لا تغرق مباشرة إلا إذا أصيبت فى مخزن الذخيرة ، وانفجرت الذخيرة ودمرتها .. وقد أصيبت الفرقاطة

المصرية فى جوانبها ، فلم تغرق ، وإن كان أحد جوانبها قد غاص فى الماء .. وحتى لو كانت قد ضربت فى مخزن الذخيرة ، فربما لم تكن قد غرقت ، فإن ذخيرتها كانت قد نفدت ..

وأصدر قائد الفرقاطة المصرية أوامره إلى رجاله بإخلائها .. وكانت كل قوارب الإنقاذ قد دمرت بطلقات النار ، فوضع الرجال قمصان النجاة وألقوا بأنفسهم فى البحر .. ووقف القائد وضباطه فوق الفرقاطة صامتين وقد ربطوا مصيرهم بمصيرها ..

والدقائق تمر .. واقتربت القطع الإسرائيلية وحاصرت ما بقى من الفرقاطة المصرية .. ثم ظهرت عشرات من اللنشات المسلحة ، أخذت تأسر الرجال الذين ألقوا أنفسهم فى البحر .. وهو واقف فوق السطح بجانب القائد وبقية زملائه الضباط فى انتظار الأسر .. وكان أكثر ما أثاره أن هذه الزوارق المسلحة جاءت وهى تحمل عشرات من مصورى ورجال الصحافة والتليفزيون .. إنهم يلتقطون الصور ، ويحاولون الحصول على كلمات ، حتى يعلنوها هزيمة أمام العالم كله ..

هزيمة قطعة بحرية مصرية صغيرة ، هاجمت وحدها أكبر ميناء عسكرى إسرائيلى .. واستسلمت بعد أن أخذت ثمن استسلامها غاليا ..

وقد أرادت إسرائيل أن تنكر الثمن الغالى الذى دفعته بترك مينائها يدمر أمام الفرقاطة المصرية الصغيرة ، فادعت أنها كانت مضطرة إلى أن تترك الفرقاطة المصرية تدخل الميناء ، لأنه فى الوقت نفسه كانت تدخلها مركبة أمريكية محملة بالذخائر ، وكان لا يمكن ضرب الفرقاطة المصرية حتى لا تصيب القذائف المركبة الأمريكية وتدمرها .. ولا يمكن أن تكون هذه إلا أكذوبة ، حتى ولو كانت إسرائيل قد أذاعت اسم المركبة الأمريكية .. فالمفروض أن إسرائيل تملك قطع حراسة شواطىء ، وكان يمكنها أن

تكتشف الفرقاطة المصرية قبل وصولها إلى الميناء .. ثم إن هناك دائما آلات الرادار التى تكشف كل التحركات على مدى واسع ..

إن الذى حدث ، والذى لا يمكن أن تعترف به إسرائيل ، هو أن العملية كلها كانت من الجرأة إلى حد كان لا يمكن أن يصدقها أحد أو يتوقعها أحد .. كانت مفاجأة أقوى من أى فكر ، ولا يمكن أن تدخل فى أى حساب .. حتى إن القادة الإسرائيليين أنفسهم ، اتهموا من خططوا لهذه العملية بالغباء ..

* *

وعاش فى الأسر ..

إنهم يقسمون الأسرى حسب رتبهم العسكرية .. الجنود فى معسكر وحدهم .. والضباط حتى رتبة معينة فى معسكر .. والرتب الأعلى فى معسكر آخر .. ومن السهل دائما أن يعرف كل معسكر ما يجرى فى المعسكر الآخر ..

وقضى الأيام الأولى وهو يراجع نفسه ، أو يكتشف نفسه .. إن هذه هى المرة الأولى التى يشترك فيها فى معركة فعلية .. ويخيل إليه أن كل ما صادفه جديد عليه ، وأن كل ما درسه لم يكن يكفى أبدا ليعرف ويرى ما عرفه ورآه .. بل خيل إليه أنه لم يتخرج كضابط إلا اليوم .. واليوم فقط يستحق أن يكون ضابطا ويتصرف كضابط .. ويجب أن يدرس .. حتى يجعل من نفسه ضابطا يستطيع أن يخوض معركة أخرى .. يستطيع أن يتجنب كل الأخطار التى لمسها ، ويحقق كل الاحتياجات التى كانت تنقصه ..

واستدعى إلى التحقيق ..

وفوجىء بأن الدول الثلاث مجتمعة تحقق معه ، فإن أمامه محققا

إنجليزيا ، وبجانبه محقق فرنسى ، ثم معهم محقق إسرائيلى يتحدث العربية ..

وفوجىء بالمحقق الإسرائيلى يسأله بلهجة مصرية خنفاء :

- كيف حال والدتك فاطمة هانم .. لابد أنها مشغولة الآن .. بإذن الله نطمئنها ..

كيف عرف اسم والدته ..

وقبل أن يفيق من دهشته عاد المحقق الإسرائيلى يقول وابتسامة خبيثة معلقة بين شفتيه :

- والدك عبد الله بك .. الحقيقة أنه مظلوم .. كان يجب أن يكون الآن وكيل وزارة على الأقل .. ولكن ثورتكم ظلمته .. عبد الناصر لم يترك أحدا لم يظلمه ..

ولم يسكت المحقق الإسرائيلى قبل أن يسرد أمامه كل أفراد أسرته .. أخواته البنات وأعمامه .. وأخواله .. وذكر له عنوان بيته فى القاهرة ، والشقة التى كان يستأجرها فى الاسكندرية ، وأرقام تليفونه .. و .. و .. كأنه يعيش معه .. كأن إسرائيل فى داخل كل بيت من بيوت مصر .. وقد قضى بعد ذلك أياما طويلة وهو يحاول أن يكتشف من أين تحصل إسرائيل على هذه المعلومات الدقيقة عن أفراد القوات المسلحة ثم تذكر فجأة أن ضباط الفرقاطة المصرية وجنودها لكل منهم دوسيه سرى ، يضم معلومات عن كل واحد فيهم بما فيه اسم والدته ، وأخوته ، بل وأجداده .. و .. كل المعلومات التى تحيط بكل فرد .. وهذه المعلومات الخاصة يحتفظ بها فى السفينة نفسها .. أى أن إسرائيل لم تحصل على هذه المعلومات عن طريق مخابراتها ، ولكنها فتحت خزائن السفينة التى أسرتها ، وفتحت هذه الدوسيهات ..

وهذا خطأ .. يجب ألا تحفظ هذه الدوسيهات فى سفن معرضة

لاستيلاء العدو عليها .. ولابد أن القيادة يمكن أن تنتبه إلى هذا بعد المعركة ..

ولكن ليست الدوسيهات وحدها المعرضة لاستيلاء العدو .. إن كل ضابط يصنع زيه العسكرى لدى خياطين مدنيين .. وهناك محلات مدنية كثيرة مختصة بصناعة وتطريز علامات الرتب العسكرية .. كل هؤلاء يعلمون كل شىء عن كل ضابط فى الجيش .. وهذا أيضا خطأ .. وقد عرف فى مالطة أن الضابط البريطانى لا يستطيع ، وليس من حقه ، أن يحصل على أى خدمة تخصه كأحد أفراد القوات المسلحة إلا من داخل الجيش .. ليس من حقه أن يتعامل خارج الجيش إلا كفرد مدنى لا عسكرى .. أى يستطيع أن يصنع حلة مدنية عند خياط مدنى ، ولكن حلته العسكرية لا يصنعها إلا داخل الجيش ، حتى يصبح كل شىء عسكرى مصونا ومكتما عليه داخل الجيش ، وحتى نتجنب كل احتمالات جمع المعلومات التى يحاول العدو الاستيلاء عليها .. و .. و ..

ولكن هذه الخواطر لم تشغل باله كثيرا وهو داخل الأسر .. والذى سيطر على كل فكره هو المحقق الفرنسى .. لقد كان أقسى عليه من زميليه البريطانى والإسرائيلى .. إنه يوجه أسئلته فى قحة واستعلاء ، وبألفاظ تثيره وتحرق أعصابه .. ولا يدرى كيف أصبح هذا المحقق الفرنسى يثير فى خياله صورة أم خطيبته « مالينا » .. إنها أيضا متعالية ، وأحيانا وقحة ، ودائما تثيره .. وهى فرنسية .

وكانت معظم الأسئلة التى يوجهونها إليه خاصة بالأسلحة الروسية التى وصلت إلى مصر .. وهو لا يعلم شيئا عن هذه الأسلحة ، حتى التى يخص منها السلاح البحرى ، فقد كان غائبا فى مالطة عاما كاملا قبل الحرب .. وحتى لو كان يعلم ، فهو لا يستطيع أن يصرح بشىء مما يعلمه حتى لو قتلوه .. وهو يجيب دائما .. لا أعرف .. لا أعرف . لا أعرف .. والمحقق الفرنسى

يقذفه بألفاظ جارحة ويثير فى خياله صورة أم « مالينا » .. ربما لو كانت أم « مالينا » نفسها هى التى تحقق معه ، لنطقت بالألفاظ نفسها ، وأثارته الإثارة نفسها . وعذبته أكثر .. ولكن « مالينا » نفسها .. خطيبته وحبيبته . ماذا يكون موقفها لو كانت اليوم معه .. كيف تتصرف .. ماذا تفعل .. هل تكون معه أو مع فرنسا ، مع أمها ..

وتذكر حادثا كان قد نسيه .. وكان يعتبره لا يستحق إلا النسيان .. فقد كان يوما خارجا من السينما وبصحبته « مالينا » بعد أن أعلنت خطوبتهما .. وكان ذلك فى الإسكندرية .. ولم يكن « مرتديا » زيه العسكرى .. وتوقح بعض الشبان فى مغازلة « مالينا » وهى معه . إنهم أربعة شبان أجانب ، وهم يعاكسونها باللغة الفرنسية .. وثارت طبيعته المغامرة بسرعة ، وانقض وحده على الشبان الأربعة ، ودخل معهم فى معركة عنيفة أصابهم فيها أكثر مما أصابوه .. وتجمع الناس حوله ، وجاء البوليس ، وصحبهم جميعا بما فيهم « مالينا » إلى قسم الشرطة .. وعرفوا هناك أنه ضابط بحرى ، وكان هذا يكفى للقبض على الشبان الأربعة وإدخالهم السجن ، ولكن فجأة انقلبت « مالينا » للدفاع عنهم .. إنهم لم يعتدوا عليها .. ولم يلمسها أحدهم بيده .. والكلمات التى كانوا يغازلون بها ربما كانت موجهة إلى فتاة أخرى .. لا تدرى .. ولكنها مقتنعة أن هذه المشاجرة لم يكن لها سبب ..

وسكت هو أمام شهادتها .. وأطلق البوليس سراح الشبان الأربعة .. وبعد أن ابتعد « بمالينا » ألقت رأسها على صدره وهى تبكى ، وتقول له إنها تكلمت لأن الشبان الأربعة أثاروا شفقتها .. حرام أن تقضى عليهم لمجرد كلمة تفوهوا بها ، وقد كانت أيضا كلمة غزل رقيقة ..

واقتنع بسرعة .. لم يخطر على باله يومها أن يسأل نفسه : هل كانت « مالينا » تشهد هذه الشهادة لو كان هؤلاء الشبان ليسوا فرنسيين ؟ أو لو كانوا مصريين ..

ولكنه اليوم يتذكر .. ويتساءل ..

وهم يستدعونه للتحقيق يوما بعد يوم ، والمحقق الفرنسى يتعمد إثارته أكثر وأكثر .. والأسر عموما يولد حالة من اليأس فى داخل الأسير .. واليأس يدفعه إلى حالة من التحدى أقرب إلى الجنون .. ما نهايته فى هذا السجن الذى رماه القدر فيه ..؟ إنهم قد يقتلونه . وقد عرف أنهم قتلوا فعلا بعض ضباط الجيش الأسرى ، وبعض الجنود .. وإذا لم يقتلوه فهو لا يدرى متى يتحرر .. وقد لا يتحرر ..إلا بعد أن يتركوا فيه عاهة مستديمة حتى لا يصلح للحرب مرة أخرى .. والهرب ؟ كم سنة يحتاج إليها حتى يكتشف طريق الهرب .. و .. وكل ذلك يحرك فى صدره الإحساس باليأس ، إلى أن يفقد كل حساب لمصيره .. وهذا اليأس هو الذى حرضه على المحقق الفرنسى ، وأفقده أعصابه وهو أمامه فى التحقيق ، فصرخ فى وجهه يسبه ويلعنه ومد يديه يحاول أن يصل إلى عنقه ويخنقه .. ووقعوا عليه العقاب فى الحال .. كتف من ذراعيه ، وخلع عنه قميصه ، وجاء إسرائيلى يحمل عصا غليظة وانهال على ظهره ضربا ..

ولم يقل « آه » أحس كأن « آه » يمكن أن تكون نصرا جديدا لإسرائيل .. وبلغ من قوة احتماله أن المحققين الثلاثة أمامه فتحوا أفواههم دهشة .. وصاح المحقق الإنجليزى .. هذا يكفى ..

واعتبر بين الأسرى أكثرهم اندفاعا ، وتهورا واحتراما ..

ومضت أربعة أشهر وهو فى الأسر ..

وكانت الحرب قد توقفت ، وانسحبت القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية من مصر ، واتفق على تبادل الأسرى ..

وعاد إلى مصر ..

والأسرى العائدون يوضعون فى معسكر خاص لمدة عشرة أيام إلى

أن يتم مراجعة شخصياتهم وتوجيه الأسئلة إليهم .. ولكنه لم يعد يطيق معسكرا يؤسر فيه حتى ولو كان معسكرا مصريا .. فخرج من معسكر الأسر قبل الأيام العشرة .. لم يهرب .. ولكنه خرج بلا إذن .. وعاد توا إلى بيته فى القاهرة ..

ونام .. نام هذا العمر الطويل على فراش يملكه ، وعلامات عصا إسرائيل لا تزال مرسومة فوق ظهره ..

وجاءت إليه « مالينا » فى لهفة .. خطيبته .. حبيبته .. وأمه وأخوته البنات هن اللاتى أبلغنها خبر عودته .. حتى يفرح بها .. حتى يخففن عنه عذاب ما لقيه ..

وفتح عينيه وهو راقد لا يتحرك ، وقال دون أن يمد يده إليها :

— « مالينا » .. آسف .. لقد انتهى كل شىء بيننا ..

وأغمض عينيه ..

ونام ..

• •

وقد مضى اليوم أكثر من ثمانية عشر عاما على المعركة الأولى التى اشترك فيها ، وهو إلى اليوم لا يزال ضابطا بحريا .. وقد ارتفعت رتبته ، واتسعت مسئولياته ، ولكنه لا يشعر بنفسه إلا كمجرد ضابط بحرى ، ويؤمن بأنه لم يوجد كضابط إلا من خلال المعركة الأولى التى خاضها وتعلم منها أن الضابط لا يقاس باندفاعه ، وجرأته ، ولكنه يقاس بعلمه ودراسته ، وبطولته لا تقدر بقوة سلاحه ولكنها تقدر بقوة ذكائه .. إن الحروب كلها أصبحت عمليات اختبار ذكاء ، لا مجرد اختبار قوة تسليح .. وهو يضحك عندما يتذكر إن إسرائيل كانت تصف عملية الفرقاطة المصرية عام ٥٦ ، بأنها عملية غبية ، لمجرد أنها انتهت بالاستسلام ، ولو كنا قد عجزنا عن عبور القناة سنة ٧٣ لاتهمنا أيضا بالغباء ..

والعلم أصبح السلاح الوحيد الذى يبحث عنه ، وهو سلاح يتجدد كل يوم ، إلى حد أنه يتصور دائما بأنه لم يتعلم بعد . وكان قد درس فى التاريخ العسكرى أن الأساطيل المهاجمة لا يمكن أن تملكها إلا دولة كبرى .. وحتى بضع سنوات قليلة مضت كان الأسطول المهاجم الوحيد هو الأسطول الأمريكى ، وبقية أساطيل العالم كانت كلها أساطيل دفاع .. تتولى حراسة الشواطىء ، وتصل فى بعض الدول إلى درجة أقرب إلى مستوى الحلية البراقة التى تتزين بها الدولة ، وتخصص لقيام الرؤساء فى رحلات صيد أو فى زيارات رسمية .. حتى الأسطول السوفييتى كان حتى هذه السنوات القليلة التى مضت ، مجرد أسطول دفاع ، إلى أن بدأ يتطور ويحول نفسه إلى أسطول مهاجم ، يملك حاملات الطائرات ، والغواصات الذرية .. و .. و .. والأسطول المصرى إذا قيس بعلم الحساب لا يمكن أبدا أن يعتبر أسطولا مهاجما ، حتى لو قصر هجومه على إسرائيل ، فإسرائيل لا تملك أسطولها ، ولكنها تملك الأسطول السادس الأمريكى .. وبرغم ذلك عاش ليشهد كيف يمكن أن تعتمد الأساطيل على مجرد ذكاء رجالها لتتحول إلى أساطيل مهاجمة .. عاش ليشهد نسف المدمرة الإسرائيلية « إيلات » .. وعاش ليشهد كيف استطاع ستة من الضفادع البشرية حملتهم طائرة هليكوبتر وأسقطتهم فى أعلى خليج العقبة ، وتسللوا تحت الماء إلى ميناء « إيلات » ونسفوا مدمرتين إسرائيليتين وعادوا .. عاد خمسة منهم يحملون السادس وقد استشهد وأبوا أن يتركوا جثمانه على أرض الأعداء .. وعاش ليشاهد كيف استطاع الأسطول المصرى أن يحاصر باب المندب ويغلق البحر الأحمر فى وجه إسرائيل .. و .. و .. عاش ليرى عمليات لم تكن تخطر على باله عندما اندفع يوما والتحق بالسلاح البحرى ليمتع نفسه بمغامرات البحر وليالى الموانىء ..

وفى قلبه غصة مؤلمة لا تسكت أبدا ، تثيرها صورة الفرقاطة الصغيرة التى ولد فوقها كضابط بحرى .. إنه لا يزال يذكرها كأنها أمه ..

كأنها البيت الذى ولد فيه .. وقد أخذتها إسرائيل من يوم أن وقعت فى أيديهم ، وأصلحتها ، وضمتها إلى الأسطول الإسرائيلى ، وأطلقت عليها اسم « حيفا » ، وهى مسجلة إلى اليوم فى جميع القواميس والسجلات البحرية العالمية كأنها قطعة من السلاح البحرى الإسرائيلى ، ويكتب أمامها دائما أن إسرائيل استولت عليها فى معركة بحرية مع مصر ..

إنه يريد أن يسترد فرقاطته ..

أمه ..

بيته ..

ولا يمكن أن يعتبر الحرب قد انتهت ، أو توقفت ، بل لا يمكن أن يعترف بهدنة حتى لو كانت هدنة مسلحة ، إلا إذا عادت إليه فرقاطته .. ويطلق عينيه إلى الأمل البعيد ، ويقول مبتسما :

– أتدرى .. لو عادت فيجب أن تبقى لها الاسم الذى أطلقته عليها إسرائيل .. « حيفا » .. فإن حيفا هى الوسام الذى يزين صدر أمى ..

ويعود ويردد وابتسامته تتسع :

– إنك لن تعرف الحرب أبدا إلا إذا حاربت فعلا ..

لن أتكلم.. ولن أنسى

مضت ثلاث سنوات وهى تتردد على أطباء نفسانيين ، وعلى أطباء أعصاب .. وكان قد مضى عليها أكثر من ست سنوات ، وهى تتردد على المنجمين وعلى قارئات فنجان القهوة وأوراق « الكوتشينة » ، وتزور أضرحة أولياء الله .. ولا أمل ..

إنها تعانى ما تعانيه دون أن تستطيع كل القوى التى تلجأ إليها أن تعينها على التغلب عليه أو الفرار منه .. وما تعانيه ليس خطرا يهدد عقلها .. لا خوف عليها من الجنون . ولكن ما تعانيه هو شىء تخفيه فى داخلها ، ينعكس على أحاسيسها ، وعلى بعض تصرفاتها ، وعلى قوة احتمالها .. إن يدها ترتعش وهى تمدها لترفع كوب شاى .. وهى تبكى بسرعة .. تكفى كلمة من زوجها أو من ابنتها لتبكى بكاء طويلا قد يستمر ساعات .. وهى أحيانا كثيرة تفضل الانزواء داخل البيت ، فتدخل غرفتها وتغلق الباب عليها وتترك بقية الأسرة مجتمعة أمام التليفزيون . وهى ترفض فتح باب مسكنها فى أى حالة من الحالات ، حتى لو كانت وحدها فى البيت وطرق الباب ..

وأحيانا تكون طبيعية كأية سيدة فى مثل عمرها الذى لا يتجاوز الثانية والثلاثين .. حلوة ، متحدثة ، مرحة .. وتخرج مع زوجها فى زيارة عائلية ، أو إلى حفلة ساهرة ، وفجأة يكفهر وجهها . ويتوقف حديثها ، وينقبض مرحها ، وتتعلق بذراع زوجها بقوة ، كأنها تخاف شيئا ، ثم تصر على الانسحاب من الزيارة أو الحفل ..

وأحيانا وهى تستعد للخروج تقف لتتزين أمام المرآة ، وترسم على وجهها أجمل ما يمكن أن ترسمه امرأة ، وتنتقى الثوب الذى تتباهى به ، وتضع فوق رأسها الباروكة التى تعتز بها .. ثم تقف لحظة لتطيل النظر

إلى نفسها ، ثم فجأة ترتعش ، وتنقبض ملامح وجهها ، ثم ترفع الباروكة وتلقى بها على الأرض ، وتمسك بقطعة من القطن وتمسح كل الأصباغ التى تجملت بها ، وتخلع ثوبها الجميل لتلبس بدلا منه ثوبا عاديا قديما ، وتتعمد أن تشوه تسريحة شعرها حتى يبدو مشتتا منفرا .. ثم تخرج هكذا ..

وعلاقتها بزوجها تسير أحيانا هادئة سعيدة لا يشوبها أى شذوذ .. وأحيانا تجد نفسها تتمادى فى تدليله إلى حد أن تنهال عليه وهو راقد بجانبها بقبلات تبدأ بقبلة على جبينه ، ثم تسرى قبلاتها فوق جسده كله حتى تصل إلى أصابع قدميه .. وأحيانا أخرى - وبلا مبرر أيضا - تجد نفسها وهى لا تطيق الاقتراب منه ، ولا حتى لمسه بيدها . وترفض حتى أن تبقى معه فى حجرة واحدة ، ويأخذها فكرها إلى طلب الطلاق منه ، أو الفرار من البيت ، أو الانتحار .

ولم تكن أبدا هكذا ، وكل من حولها يعلم أنها لم تكن هكذا .. وهذه الحالات العصبية الشاذة التى تنتابها تحدث متباعدة كأنها نوبات . وبين كل نوبة ونوبة فترة طويلة تقضيها كسيدة وزوجة حلوة مرحة عاقلة ، لذلك احتمل كل من حولها هذه النوبات ، وإن كانوا قد احتاروا فى أسبابها أكثر مما هى حائرة . وهى نفسها كانت تحتمل هذه النوبات .. تحتملها وهى واعية متنبهة .. متنبهة إلى أن يدها ترتعش ، وإلى أنها تنقلب فجأة إلى حالة شاذة غريبة عنها ، وربما كان هذا الاحتمال هو الذى عرضها لكثير من الأمراض .. بعضها أمراض عادية تمر سريعا ، وبعضها أمراض تفاجأ بها .. الكبد .. المرارة .. اللوز .. بل إنها أصيبت بحالة جسمانية شاذة لا تصيب امرأة عادية إلا بعد أن تتعدى الخمسين وتصل إلى سن اليأس .. وهى لا تزال فى الثلاثين .. ولم يستطع الأطباء أن يفسروا هذه الحالة إلا أنها نتيجة اضطراب فى الأعصاب ..

وعندما بدأت تتردد على قارىء الفنجان والكوتشينة ، لم تصل إلى شىء لأنه لم يكن هناك أمل تتمناه وتنتظره حتى تبحث عنه لدى قراء

الغيب ، وعندما كانت تتردد على أضرحة أولياء الله لم تكن تطلب إلا القدرة على الاحتمال .. إنها تعلم أن ليس أمامها من طريق إلا طريق الصبر والاحتمال .. ثم عندما بدأت تتردد على الأطباء النفسانيين لم يستطع أى واحد منهم أن يصل بها إلى الراحة النفسية ، لأن كل طبيب كان يحاول معها أن تعترف أمامه بالحقيقة حتى يريحها الاعتراف من أزمتها ولكنها لم تعترف أبدا ، كانت تلقى بنفسها على مقعد الطبيب وتتحدث .. تتكلم طويلا عن كل حياتها منذ وعت الحياة .. تتكلم عن أبيها وأمها وابنتها وأخوتها . وليس فى كل ما تقوله ما يمكن أن يعتبر أزمة ، أو حادثا ، أو مشكلة يمكن أن تسبب صدمة نفسية تنتهى إلى تمزيق أعصابها ومعاناة ما تعانيه ..

إنها وحدها التى تعرف ما حدث ..

وهى تدفن ما تعرفه فى صدرها لعلها تحس بأنه مات .. انتهى ..

ولكنه لا يموت ولا ينتهى ..

وهى لا تريد أن تتكلم ..

لا تستطيع ..

* *

لقد فرحت بزواجها فرحة كل فتاة تضع حجر الأساس فى بناء مستقبل سعيد ، وربما لاحظت منذ اليوم الأول والذى تقدم فيه لخطبتها أنه جاد أكثر مما تعودت أن تحس بجدية الشبان .. وهو متزمت فى كل ما يريده من الفتاة التى اختارها ، لا ينطلق إلى الحياة الواسعة .. ليس رجلا اجتماعيا ، ولا متطورا ، ولا يؤمن بكل ما يعيشه الشبان .. لا يسهر خارج البيت ، ولا يرقص أبدا هذه الرقصات التى اعترف بها المجتمع ، وقد كانت هى دائما من هواة الرقص .. ثم إنه متدين غارق فى تدينه .. موعد الصلاة

بالنسبة له كأنه موعد حب .. حب الله .. وهو يريدها أن تصلى ، ولم تكن تعودت الصلاة من قبل ..

وقد قبلت منه ذلك ، بل فرحت به .. كانت تتفاخر أمام صديقاتها .. تتفاخر بأنه غيور .. وبأنه متزمت .. وبأنه حرمها الرقص .. وبأنه عودها الصلاة .. وهناك دائما إحساس قوى يشدها إليه .. إنه الحب .. ولكنه طراز جديد من الحب لم تكن تعرفه ..

ومع فرحتها به ، كانت فرحتها « بالجهاز » الذى اشترته لها أسرتها لتقيم به بيتها الجديد .. بيت المستقبل .. لم تبخل العائلة عليها بشىء .. كل ما أرادته وأكثر مما أرادته .. حجرة النوم تجنن .. وحجرة الطعام تهوس .. والمطبخ كل معداته مستوردة .. وتفاخرها وتباهيها بهذا « الجهاز » أمام صديقاتها لم يكن يقل عن تفاخر وتباهى أمها أمام بقية الأمهات ..

وبدأت حياتها داخل بيتها .. بيت الزوجية .. سعيدة حلوة ، برغم الهدوء الجامد والروتين الممل الذى يفرضه زوجها .. واستطاعت أن تملأ حياتها بأعمال منزلية كثيرة تعوضها عن كل ما ضاع من حياة المرح التى عاشتها قبل الزواج .. إنها تجيد الحياكة وقد أصبحت تحيك كل ثيابها ، وتحاول أن تتعلم كيف تحيك لزوجها ثوبا .. وتعلمت كل ما يمكن أن يوضع على موقد المطبخ ليصبح طعاما شهيا .. و .. أن البيت حياة كاملة يمكن لمن يعيشها أن يستغنى عن كل الحياة خارج البيت ..

وأنجبت ابنتها ..

خديجة ..

أسمتها على اسم أمها ، وكان زوجها يريد أن يسميها « نبوية » تفاؤلا باسم أمه ، ولكنه تنازل سريعا وقبل اسم حماته ..

وامتلأت الدنيا بكل بسمات الفرح والسعادة .. إن خديجة بالنسبة لها هى الدنيا كلها .. إنها قلبها كله ، وعقلها كله .. إن الابنة ليست قطعة من أمها ، إنها الأم كلها ..

وبعد عامين أنجبت محمد ..

إنه اسم حماها وليس اسم أبيها .. وهى تضحك فى مرح وزوجها يفرض اسم محمد عليها ، كأنه يصدر قرارا بفرض الحراسة على ابنه ..

وكانت قد مضت خمس سنوات على زواجها عندما قرر الزوج أن ينتقل للعمل فى بلد آخر .. إن المركز هناك ممتاز ، يعتبر ترقية له فى وظيفته ، والبدلات التى يحصل عليها تضاعف مرتبه ثلاث مرات وأكثر ..

والبلد الآخر ، هو .. العريش ..

والذين يسافرون للعمل فى العريش يأخذون معهم قطعا خفيفة من الأثاث ، لأنهم فى غربة قد يعودون منها فى أى وقت ، والحياة هناك لا تتطلب أكثر من هذا الأثاث الخفيف .. ولكن لا .. إنها لا تستطيع أن تترك وراءها كل هذا الأثاث الذى جهزت به فى زواجها ، وأحبته . وتعودت عليه ، وارتبطت به ، كأنها لا تستطيع أن تنام أبدا إلا على هذا الفراش ، ولا تستطيع أن تأكل أبدا إلا على هذه المائدة ، ولا تستطيع أن تطبخ إلا فى هذا المطبخ .. ثم إنهم سيذهبون إلى هناك .. إلى العريش .. ليتولى زوجها مركزا ممتازا .. مدير إدارة كاملة .. وهذا الأثاث يليق بمدير إدارة ، ويشرفه بين الناس ، ويرفع قيمته الشخصية بين ضيوفه .. وخسارة أن يلقيا كل هذه القطع الجميلة فى مخزن ، أو يغلقا عليها الباب ويتركوها للسوس والعناكب .

واقتنع الزوج مرضاة لها ، وربما لأنه هو أيضا يحب هذا الأثاث الذى عاش فيه ، ويحب المظهر الفخم داخل بيته ..

ونقلوا كل قطع أثاث بيتهما إلى العريش ، برغم أنهما اضطرا أن يدفعا الكثير من نفقات النقل ..

وبدأت الحياة هناك .. فى العريش .. انها لا تحس انها انتقلت إلى بلد آخر ، ما دامت تعيش هى وخديجة ومحمد داخل بيت يضم كل « جهازها » الذى تزوجت به ..

وكان هذا فى عام ١٩٦٦ ..

وعاشت فى العريش كما كانت تعيش فى القاهرة .. الحياة كلها داخل بيتها .. لم تحاول أن تختلط بنساء العرايشة أى أهل العريش .. ولم ترتبط ارتباطا كاملا بالمصريين المقيمين هناك .. يكفيها بيتها .. وتخرج أحيانا إلى الأسواق لتبهر بالبضائع المستوردة التى تمتلىء بها حوانيت العريش وتفتقر إليها حوانيت القاهرة .. وتزداد انهماكا فى هواية الحياكة .. لقد استطاعت أن تحيك لابنها محمد الذى أصبح فى الثالثة من عمره بنطلونا رجاليا .. ثم وجدت زوجها فى حاجة إلى بنطلون فسبقته واشترت القماش ثم أخذت أحد بنطلوناته القديمة وفصلت عليها بنطلونا جديدا .. وذهل زوجها ، وابتسم ابتسامة كبيرة برغم ندرة ابتساماته ، فخورا بزوجته التى أصبحت « ترزى » رجال ، وليست فقط حائكة لملابس السيدات ..

ومر عام ..

وبدأ كل شىء يتغير ..

إنها الحرب ..

والقوات المصرية تمر بالمدينة فى طريقها إلى مواقعها البعيدة .. وهى لا تدرى ما يجب أن تفعله ، وزوجها برغم تفاؤله وإيمانه بالنصر ، وبرغم اندفاعه وهو يحاول أن يساهم بكل ما يستطيع أن يقدمه ، حائر معها ، لا يدرى كيف يتصرف ، ولا ماذا يقرر بالنسبة لأسرته .. وهى قد خرجت

قليلا من عزلتها وبدأت تتصل بجيرانها ، وبدأت تسمع الحكايات عن اليهود عندما يحاربون .. إنهم مجرمون .. قذرون .. يعتدون على النساء ، ويقتلون الأطفال .. وتجرى إلى بيتها ، وتحتضن خديجة ومحمد وتضع فوق رأسهما المصحف .. يارب .. استرها يا رب ..

ووصل إطلاق النار إلى داخل المدينة ..

وطائرات اليهود لا تكف عن غاراتها .. تضرب البيوت بالقنابل ، وتضرب بالرصاص داخل الشوارع ..

والقوات المصرية تتراجع من مواقعها إلى داخل المدينة ..

وهى لا تريد أن تخاف حتى لا تخيف البنت والولد .. تقاوم الخوف .. وتضمهما وتجلس بهما تحت السرير لتحميهما وتحمى نفسها من شظايا القنابل التى تحطم النوافذ ، وتخرق الجدران .. بل إنها كانت تلف كلا منهما داخل سجادة وهما تحت السرير ، وبرغم الحر الخانق ، اعتقادا منها أن السجادة تحميهما من الشظايا .. وزوجها يخرج ليتقصى الأخبار ، ويساهم بما يستطيع أن يساهم به ، ثم يعود ليختبىء معهم تحت السرير .

وبدأت مشكلة الطعام ..

إن الدكاكين كلها مغلقة منذ يومين .. والأطعمة التى كانت تحتفظ بها فى الثلاجة الجديدة التى اشترتها منذ أسابيع من أسواق العريش ، بدأت تنتهى .. وكان من عادتها أن تحتفظ بكسرات الخبز التى تزيد على المائدة لتعطيها لجارة لها كانت تربى الدجاج .. وبدأت هى وولداها وزوجها يأكلون الكسرات الجافة المعطنة بدلا من الدجاج .

وقد جاءوا إليهم وأبلغوهم أن هناك سيارات أعدت لنقل المدنيين إلى القاهرة ، وعليهم أن يستعدوا بعد ساعة واحدة للرحيل ، وألا تحمل كل عائلة إلا حقيبة واحدة .. وتردد زوجها .. إن اليهود يتركون المدنيين

والعسكريين يغادرون المدينة ، ثم يهاجمونهم فى الطريق الصحراوى ويقتلونهم .. لقد قتلوا إلى الآن الكثير من العائدين .. وطال تردد زوجها حتى فاتهم موعد تحرك السيارات .. والحمد لله .. لقد جاءتهم الأخبار بأن اليهود قد هاجموا فعلا السيارة التى كانت معدة لنقلهم واستشهد كل من فيها .. استشهد النساء والأطفال والرجال المسالمون ..

وأفراد القوات المصرية يغادرون المدينة .. وقبل أن تغادرها آخر دفعة من القوات ، تولى رجالها تحطيم مخازن الجيش داخل المدينة ، وأخرجوا منها كل ما فيها من مواد وأطعمة ، وبدأو يحملونها ويوزعونها على بيوت الأسر التى لم تستطع الهرب . قبل أن يستولى عليها العدو ..

وطرق باب بيتها بعنف ، ودخل جنديان مصريان يحمل كل منهما زكيبة من الدقيق ألقيا بهما أمامها .. ولكن ماذا تفعل بكل هذا الدقيق .. إنها لا تعرف كيف تخبز .. وهى فى حاجة إلى الخبز .. ونظر إليها الجنديان كأنهما يتعجبان من سذاجتها ، وصرخ أحدهما فى وجهها :

– افعلى به ما شئت .. ولكن لا تعيديه لليهود ..

ودخل اليهود ..

احتلوا مدينة العريش كلها ..

وبدأوا بأن قتلوا كل من التقوا به فى الشارع دون أن يسألوا عن هويته .. رجلا كان أو طفلا .. ثم أخذوا يدخلون البيوت ويطرقون الأبواب .. طرقة واحدة ، ومن لا يفتح يسلطون على بابه نار مدافعهم الرشاشة ، حتى يفتح ، ويقتلون كل من فى البيت .. ومن يفتح بعد الطرقة الأولى ، يدخلون بيته ويفتشونه بحجة البحث عن أفراد القوات المصرية ، وعن الأسلحة .. فإن لم يجدوا شيئا ، فقد ينصرفون بلا قتل ، ولكن قد لا تعجبهم نظرة صاحب البيت ، أو قد يتفوه بكلمة تزعجهم ، فيقتلونه ، وتصرخ زوجته فيقتلونها لأنهم مرهفون لا يطيقون الصراخ ..

وكان زوجها منتبها دائما ، يفتح الباب قبل أن تنتهى الطرقة الأولى .. ويبرز أوراقه التى تثبت أنه موظف مدنى ، ويتركهم بلا مجرد كلمة .. يدخلون ويفتشون .. وهى كانت دائما تقف خلف الباب الذى يفتح وتحتضن ذراعيها ابنتها خديجة وابنها محمد ، ودائما تمسك بالقرآن فى يدها وتضعه فوق رأسها حتى يحميها .. وشد الجندى اليهودى مصحف القرآن من يدها ، وقلب صفحاته بسرعة ، ثم ألقى به فى وجهها وهو يبصق ..

واقتحام بيتها للتفتيش لا يتوقف .. أحيانا كل ثلاثة أيام ، وأحيانا كل يوم .. وأكثر ما يغيظها هو أن هؤلاء اليهود يتكلمون العربية .. بعضهم بلهجة مصرية ، وبعضهم بلهجة سورية ، وبعضهم بلهجة يمنية .. ولكنها دائما لهجة خنفاء كطبيعة اليهود .. وهى تحس وهى تسمع لغتها من أفواههم كأن الاعتداء أكبر ، كأنهم استولوا على كل شىء حتى على لغتها .. لو تكلموا لغة أخرى لكانوا أرحم ..

والأيام تمر ، وهم أحياء ..

وأهل البلدة وسكانها يتعاونون معا سرا ، ويعتمدون على التهريب .. لا تهريب السلاح ، ولكن تهريب الأطعمة ..

وكانت قد اتفقت مع جارة عرايشية - أى من أهل العريش - على أن ترسل لها كميات من الدقيق الذى هربه إليها الجنود المصريون ، لتخبزه لها فى أرغفة .. وتترك للجارة النصف ، وتعيد لها الجارة النصف الآخر بعد خبزه ..

والبقال الذى كانت تتعامل معه ، استطاع أن يزورها ويحمل إليها بعض الأطعمة ، من اللحم المجفف وعلب الطعام المحفوظ ، وقليلا من قطع السكر .. وهو لا يريد الثمن الآن .. إنه يعلم أن المرتب لم يعد يصلهم .. وهو يستطيع أن ينتظر إلى أن يحلها الله ، فيدفعون له الثمن ..

ورئيس لجنة الاتحاد الاشتراكى يمر بهم ، ويبلغهم أنه قد استطاع أن يحصل من القاهرة على مبالغ من النقود ليوزعها على الموظفين المصريين .. كل أسرة ستنال عشرين جنيها .. وكل أعزب عشرة جنيهات .. وترك لهم عشرين جنيها .. وبعدها اختفى .. قتله اليهود ..

وهى حريصة على أن تعيش داخل البيت وكل شبابيكه الخشبية مغلقة .. تعيش فى ظلام .. فقد سمعت أن اليهود إذا رأوا امرأة شابة داخل بيت هجموا عليها وأخذوا المرأة معهم فإذا تحداهم زوجها قتلوه .. وهم يختارون دائما الشابات أو البنات ، ولا أحد يدرى ماذا يفعلون بهن لأنهن لا يعدن .. وقد سمعت قصة الثرى العرايشى الذى كان يسير مع زوجته الشابة فى الطريق فاستوقفه بعض جنود إسرائيل وقبضوا عليه هو وزوجته ، ثم أبعدوا عنه زوجته ، وسجنوه بضع ساعات ، ثم تركوه ليعود إلى بيته وحده .. وسمعت قصصا كثيرة .. لم يكن هناك أمر من القيادة الإسرائيلية بالاستيلاء على كل شابات العرب ، ولكنه كان حقا مباحا لكل عسكرى إسرائيلى بأن يعتدى على من يشاء من بنات العرب ، إذا أراد ..

ثم كان ما حدث لمفتشة التعليم .. لقد كانت صديقتها ، وكانتا تتعاونان على الحياة بعد الاحتلال ، وتكاد تقضى كل أيامها فى البيت لأنها وحيدة ، زوجها ليس معها فى العريش .. ولكن صديقتها بدأت تتصل بقيادات اليهود .. وبدأت البلدة كلها تتكلم عنها .. إنها تذهب إليهم فى مكاتبهم علانية ، وتعود أحيانا إلى بيتها فى سيارة من سياراتهم .. بل إن اليهود كانوا يمدونها بكثير من مواد الطعام المحفوظ والخبز المجفف .. وكانت تدافع عن نفسها بأنها مسئولة عن مصير المدرسة ومصير الطالبات ، وليس بينها وبين اليهود إلا محاولة الحرص على مصير المدرسة والطالبات .. إنها لا تتعاون معهم ، ولكنها تتعامل مع القوة المفروضة عليها .. وفرق كبير بين التعاون والتعامل .. ولكن أهل البلد لا يصدقونها .. وكانت قوات

الاحتلال أحيانا توزع الأطعمة على كل الأهالى حتى تكسب ودهم وتأمن شرهم ، وكانوا يقبلون هذه الأطعمة ، وبرغم ذلك فلم يغفروا للمفتشة أنها أصبحت تعيش على ما يعطيه إياها اليهود .. وهى .. إنها لا تتهم صديقتها ، ولكنها أصبحت تخافها ، كما تخاف اليهود ، فقاطعتها .. قالت لها بصراحة ، إنها لم تعد تستطيع أن تستقبلها فى بيتها ، وكأنها إذا جاءت إلى البيت قد يجىء معها عسكرى يهودى ..

وسمعت قصة جثث اليهود ..

كان اليهود قد جمعوا الجثث التى سقطت منهم فى أثناء المعركة ، ولم يبق إلا جثتان .. انهما اثنين من الطيارين اليهود سقطت بهما الطائرة ، والمعلومات التى لديهم تؤكد أنهما سقطا مع الطائرة أحياء أو على الأكثر جرحى .. فأين هما .. وإذا كانا قد قتلا فأين جثتاهما .. وقلبت القيادة العسكرية كل منطقة العريش بحثا عن الجثتين .. إن الجثث لها أهمية خاصة فى تقاليد وإيمان اليهود .. إنهم يريدون الأرض حتى لو احتلوها كجثث تعرف بأنها جثث يهود .. فأين جثتا الطيارين الإسرائيليين .. وأجرى تحقيق مع جميع الأسرى وجميع الأهالى .. ولا أمل ..

وكان قد بقى فى العريش مستشفى واحد ، بعد أن دمرت باقى المستشفيات والعيادات الطبية فى أثناء الغارات .. وكان هذا المستشفى يشرف عليه طبيب مصرى .. ويعالج فيه بعض الأسرى من القوات المصرية .. وجاء مندوبو القيادة الإسرائيلية إلى الطبيب يفتشون كل المستشفى ويسألون كل من فيه .. ولكن لا شىء .. وأصدرت القيادة الإسرائيلية إنذارا نهائيا إلى الطبيب المصرى .. إما أن يقدم هذين الطيارين أو يقدم جثتيهما ، خلال ثلاثة أيام وإلا فسيدمر المستشفى تدميرا كاملا بكل من فيه وما فيه ..

واحتار الطبيب المصرى .. وبذل كل ما فى وسعه من جهد بحثا عن

الجثتين حتى لا يدمر المستشفى ومن فيه .. ومر يوم .. واليوم الثانى .. وأهالى البلدة كلهم فى هلع خوفا مما يمكن أن يحدث لهم إذا لم تظهر الجثتان .. وفى صباح اليوم الثالث دخل إلى الطبيب ممرض يعرفه جيدا .. إنه ليس أصلا ممرضا ولكنه جندى مصرى استطاع أن يفلت من الأسر ، ويتنكر كممرض إلى أن يجد الفرصة للهرب إلى مصر ..

وقال له الممرض إنه يعرف مكان جثتى الطيارين الاثنين ، ولكنه يخشى أن يدل عليه فينكشف أمره ، ويقبضون عليه ، ويقتلونه كجندى هارب من الأسر .. ولن يكتفى اليهود أبدا بأن يعرفوا مكان الجثتين ، ولكنهم سيصرون على معرفة من دلهم على مكانهما لذلك فهو يريد قبل أن يبوح بالسر أن يحصل من القيادة الإسرائيلية على تعهد كتابى بإطلاق سراحه ..

وفى المساء ، فى الموعد النهائى للإنذار ، دخل مندبو القيادة الإسرائيلية إلى المستشفى وواجهوا الطبيب المصرى .. وقال لهم إن هناك من يعرف مكان الجثتين ولكنه لن يتكلم إلا إذا حصل على تعهد مكتوب بعدم الإضرار به ، وسيقدم هذا التعهد أولا إلى هيئة الصليب الأحمر ، قبل أن يتكلم .

ووافق اليهود ، وكتبوا التعهد بل إنهم تعهدوا لو وجدوا الجثتين أن يتركوا صاحب السر يعود إلى مصر ..

وخرج إليهم الممرض ، وعرفوا أنه جندى مصرى .. وتركوه يدلهم على مكان الجثتين .. إنهما مدفونتان فى أرض موقع ثكنات الجيش المصرى التى تم الجلاء عنها . وقد سقطا وهما مصابان بكسور فى الرأس وفى الساقين وتولى الأطباء المصريون يوم سقطا علاجهما ، ولكنهما ماتا .

وجمع اليهود فريقا كبيرا من الأسرى والأهالى ، وساروا بهم إلى

موقع التكنات ، وأمروهم أن يبدأوا الحفر ، ووقفت القوات الإسرائيلية بعيدا وهم موجهون أسلحتهم إلى الذين يحفرون خشية أن يكون هناك حيلة أو خديعة ، كأن يكون الحفر فى مكان مخبأة فيه أسلحة توجه إليهم ..

وتم الحفر ..

وظهرت الجثتان ..

ورأى اليهود بأعينهم أن كل جثة تحمل فوق ساقيها وفوق رأسها ضمادات حاول بها الأطباء المصريون علاج كل منهما بعد أن سقطا من طائرتهما ..

واستولت القيادة الإسرائيلية على الجثتين ..

وكانت القيادة عند وعدها ، فسمحت للجندى المصرى أن يستقل إحدى طائرات الصليب الأحمر ليعود بها إلى مصر ..

وكانت هذه قصة سمعتها الزوجة الشابة .. وسمعت قصصا أخرى كثيرة ..

إلى أن كان يوم ..

هـذا اليوم ..

لقد طافت سيارات القوات الإسرائيلية بشوارع المدينة تذيع بالميكروفونات دعوة جميع الرجال إلى الاجتماع خارج البلدة فى مكان على حافة الصحراء .. وأى رجل يتخلف ويوجد فى مكان آخر سيقتل فورا .. وعلى كل بيت أن يعلق قطعة من القماش الأبيض على نافذته ، والبيت الذى لا يعلق هذه العلامة البيضاء .. علامة الاستسلام .. سينسف فورا .. والبيوت سيكتفى بتفتيشها ..

وكانت حجة اليهود فى هذا الإجراء هى إعادة تفتيش الرجال والكشف

عن هويتهم والتأكد من أن ليس بينهم أفراد من القوات المصرية ، بعد أن تعددت عمليات المقاومة فى غزة ، وقيل إنها عمليات تمون بالسلاح من العريش .

وخرج الزوج وهو يحمل أوراقه التى تثبت شخصيته ، ليجلس فى المكان المحدد على أرض الصحراء بين الآلاف من أهل وسكان العريش .. يجلسون جميعا بعضهم بجانب بعض ومرارة الهزيمة تمتص وجوههم ، وعذاب الإهانة والمذلة يطفىء عيونهم .. المدير بجانب الساعى ، والغنى بجانب الفقير .. كلهم على الأرض تحت أقدام جنود إسرائيل ..

وأسرعت هى ، وعلقت ملاءة بيضاء على باب البيت علامة الطاعة والاستسلام . ثم خشيت أن يخطىء اليهود ويعتقدوا أن هذا الباب ليس باب بيتها ولكنه باب البيت المجاور ، فعادت وعلقت ملاءة أخرى بيضاء فوق الشباك .

وجلست تنتظر ما يمكن أن يحدث ، وتحت ذراعيها خديجة ومحمد ، وفى يدها القرآن ..

وطرق الباب وفتحت بسرعة .. وقبل أن يطرق كانت قد سمعت صوت أقدامهم وهم يجتازون حديقة البيت إليها .. إنهم ثلاثة جنود إسرائيليون .

ودخل اثنان منهم يطوفان بحجرات البيت ، ويفتحان ويقلبان كل شىء .. ووقف الثالث أمامها ينظر إليها نظرات غريبة ، وهو يبتسم ابتسامة قبيحة تكشف عن أسنان قذرة .. ومد يده ولمس وجهها وهو يقول بالعربية الخنفاء وبلهجة مصرية :

– من مصر .. أليس كذلك ..

وأزاحت يده من على وجهها فى قرف ، وقالت فى سخط يحمل بريق التحدى :

– نعم من مصر ..

وقال وابتسامته الكريهة تتسع أكثر ويمد يده مرة ثانية ويمسح على شعرها :

– إنى أعرف المصريات بمجرد نظرة .. عشت هناك طويلا .. شارع سليمان باشا ..

ولم ترد وعادت وأزاحت يده من فوق شعرها ..

وعاد زميلاه اللذان كانا يتوليان التفتيش ، وتحدثا معه باللغة العبرية ، وكان يحدثهما دون أن يفقد ابتسامته الكريهة ، ثم إذا بالاثنين يخرجان من البيت ، ويغلقان الباب وراءهما ، ويتركانه وحده أمامها ..

وجذبها إليه ..

وقاومت .. رفعت يدها تحاول أن تصفعه .. فأمسك بيدها قبل أن تصل إليه ضاحكا كأنه حمار ينهق ، وقال :

– دعينا ننتهى بسرعة ، ليس عندى وقت .. إنهما ينتظراننى ..

وشدها أكثر ، وبدأ يشد عنها الثوب .. فصرخت .. فرفع يده ، وصفعها صفعة قوية أسقطتها على الأرض .. لا تصرخى وإلا قتلتك .. ولكن ولديها .. خديجة ومحمد .. لقد أخذا يبكيان .. ويصرخان .. ماما .. ماما .. وهو يضيق بهما ، فتحرك وشد البنت والولد وأدخلهما حجرة أخرى وأغلق عليهما الباب .. وهمت أن تقوم من سقطتها وهى تمد يدها إلى المصحف الذى سقط منها .. ولكنه كان فوقها وكل فكرها قد انصرف إلى البنت والولد . إن هذا الرجل قد يقتلها .. ولكن هل يقتل أيضا خديجة ومحمد .. لو كان زوجها هنا لما حدث كل هذا .. وهى لا تدرى ما يحدث

لها .. كل إحساسها مركز فى خديجة ومحمد .. هل ترجوه ألا يقتلهما بعد أن يقتلها وأن يتركهما حتى يعود أبوهما .. ولكنها لا تتكلم ، ولا تحس بما يفعله هذا الثعبان القذر فى جسدها .. فقط خديجة ومحمد .. إنهما يبكيان .. إنهما لا يزالان يتنفسان بين دموعهما .. وأنفاسهما تردد .. ماما .. ماما ..

وتركها اليهودى ..

قام عنها ، وبصق فى وجهها ثم حمل سلاحه ، وخرج ..

وهى جامدة .. ساهمة .. كأنها لوح من الثلج يذوب فى حرارة الصيف ..

وفجأة انتفضت ، وهرعت إلى البنت والولد .. إنهما يبكيان .. ولكن الحمد لله أنهما على قيد الحياة ، وعادت بهما ومدت يدها والتقطت المصحف الملقى على الأرض .. ورفعته وقبلته ومسحت به جبينها ، وجبين البنت والولد .. لا .. إنها ليست خاطئة .. إنها أصيبت بشظية من شظايا الحرب .. هذا هو كل شىء .. ولكن هذا الجسد الملوث الذى لوثه الأعداء ، كيف تعيش به اليوم .. هل تنتحر .. يجب أن تنتحر ، ولكن ليس الآن .. الله لا يرضى منها الانتحار الآن لتترك بنتها وابنها وحدهما بين أيدى الأعداء .. وهى ليست فى حاجة إلى غفران الله فهى لم تخطىء حتى يغفر ، ولكنها فى حاجة إلى أن يعوضها كما عوض كل شهيد .. يعوضها بحماية البنت والولد ..

هل تقول لزوجها كل شىء ..

لا ..

إنه قد ينهار إلى حد أن يخرج إلى الشوارع ليقتلوه ، وقد ينهار إلى حد لا يطيق جسدها الملوث .. لن تقول . لن تقول أبدا ..

وعندما عاد زوجها ، وهم لم يعيدوه إلا فى آخر النهار ، رأت يدها

ترتعش لأول مرة وهى ترفع كوب الشاى .. وعندما انطلقت من زوجها كلمة ضيق ، وجدت نفسها تبكى لأول مرة بكاء لا تستطيع أن توقفه .. وزوجها يسألها فى دهشة :

- مالك ..

وترد صارخة من خلال دموعها :

- خلاص .. لم أعد أحتمل .. زهقت ..

ويربت زوجها على كتفها مواسيا ..

وليلتها أخذت جسدها الملوث ونامت بعيدا عنه مع الأولاد ..

كم بقوا فى العريش ..

ثلاثة أشهر ..

والنوبات العصبية تجتاحها بين الحين والآخر ، وزوجها يحتملها ويعذرها ، ويخفف عنها ، فالحياة هنا لم تعد تطاق .. إلى أن استطاع بمساعدة بعض العرايشية أن يحصل على بطاقة مزورة تثبت أنه من أهل العريش .. وبهذه البطاقة استطاع أن يأخذ عائلته ويسافر إلى رفح ..

وقد سافرت بعد أن تركت كل قطع الأثاث الثمين الذى تجهزت به يوم تزوجت .. الأثاث الذى كان يرسم كل إطار حياتها ، والذى كانت تتباهى وتتفاخر به هى وأمها .. تركته عائدة بجسد ملوث ..

وفى رفح قضوا أربعة أيام استطاع الزوج خلالها وبمساعدة الأهالى أن يحصل على بطاقة مزيفة أخرى تثبت أنه فلسطينى من غزة .. والفلسطينيون مسموح لهم بالهجرة خارج فلسطين ، بل إن اليهود يدفعونهم دفعا إلى الهجرة .. يطردونهم ..

وركب هو وزوجته والبنت والولد سيارة أجرة طافت بهم كل الأرض التى يحتلها اليهود ، إلى أن وصلت بهم إلى القدس .. ثم عبروا النهر إلى

الأرض .. واليهود يشيرون إليهم بأنهم لن يعودوا ، لأنهم فلسطينيون ، لن يعودوا أبدا ..

وبقوا فى عمان أياما إلى أن حصلوا على مقاعد فى الطائرات التى كانت ترسلها مصر لنقل المصريين المنسحبين من الأراضى التى احتلت .

وعادت إلى القاهرة ..

عادت لتعيش فى بيت أثاثه بسيط متواضع .. وتعض شفتيها وهى تبتسم فى ندم .. إن هذا الأثاث كان المفروض أن تعيش به فى العريش لا هنا .. ولكنها لم تسمع الكلام ، وأخذت الأثاث الفخم إلى العريش لتتركه لليهود ، وتعيش وسط الأثاث البسيط ..

والنوبات العصبية لا تسكت عنها ..

وأطباء الأعصاب والنفسانيون يعجزون عن الوصول إلى الاعتراف الكامل ..

والاعتراف أمام الطبيب لن يشفيها ..

إنما يجب أن تعترف لزوجها حتى تشفى ..

وهى لا تريد أن تعترف له ..

ولم أنصحها بأن تعترف ..

لم يحن وقت الاعتراف بعد ، إشفاقا عليه ، وحفاظا على معنوياته التى تعينه على بناء مستقبل أسرته ..

وبعد معركة ٦ أكتوبر جاءتنى مندفعة لتسألنى سؤالا واحدا :

- كم يهوديا قتل ..؟

كأنها تريد أن تطمئن إلى أن الذى اعتدى عليها قتلناه ..

المسجون السياسى واللص

عندما قبض عليه لم يفاجأ ولم يهتز ، وفى هدوء تام ابتسم لضابط البوليس الذى جاء لتنفيذ الأوامر ، وألقى احتياجاته داخل حقيبة صغيرة ، وسار معه فى الطريق الذى تعوده .. الطريق إلى السجن . ولكن الذى أثاره ، وأشعل أعصابه ، هو أنه وجد نفسه داخل زنزانة واحدة مع مجرم عادى .. لص معروف .. إلى هذا الحد وصلت استهانة الدولة بالمجاهدين الوطنيين .. إنها تضع جهادهم فى مستوى الجرائم العادية ، وتدرجهم فى القائمة نفسها مع اللصوص والنشالين .. يجب أن يكون أول ما يقوم به بعد الإفراج عنه هو المطالبة بالتفريق بين القضايا السياسية والقضايا الإجرامية .. المطالبة بوضع المقبوض عليهم سياسيا فى قائمة أخرى غير قائمة اللصوص والنشالين .. وفى زنزانات منفصلة .. ويعامل كل منهم معاملة مختلفة .. إن الروح الوطنية مهما شذت لا يمكن أن توضع فى مستوى الروح الإجرامية .. والرأى السياسى مهما كان ثوريا لا يمكن أن يقاس بمقاييس الجريمة العادية .. والذى يطلق عقله ليفكر فى مستقبل وطنه ، غير الذى يطلق يده ليسرق ..

وركز عينيه على اللص الذى فرض عليه أن يسجن معه ، وحرك يده فى تحية عابرة ، ولفظ بكلمة لا تسمع ، ثم انزوى فى ركن من الزنزانة .

وانتظر اللص إلى أن قُفل باب الزنزانة ، ثم قام إليه مهللا فرحا ، وشده إلى صدره محتضنا ، وهو يصيح :

– أهلا بك .. شرفتنا ..

وأبعده عن صدره فى رفق ، وهو يقول فى قرف :

– شرفكم الله ..

ثم عاد وانزوى فى ركن الزنزانة ..

وجلس اللص فى مكانه ، وهو ينظر إليه مبتسما ابتسامة واسعة كأنه ينتظر منه أن يبدأ الكلام .. ولكنه لا يتكلم ، والقرف يقطر من شفتيه ، وإحساسه بالذلة يضغط على صدره .. هذا ما خرج به بعد جهاده الطويل .. أن يوضع فى مستوى اللصوص .. أن يعتبر مجرما عاديا .. وقد سبق أن قبض عليه أكثر من مرة ، ولكنه كان يوضع دائما مع متهمين سياسيين حتى لو كانوا غرباء عنه ، مختلفين فى اتجاهاته وآرائه السياسية .. أما هذه المرة فقد وضع مع لص ..

وقال اللص وقد اعتقد أن زميله الجديد متأثر بدخول السجن :

– ولا يهمك .. « السجن للجدعان » ..

وقال :

– أنا لا يهمنى ..

وقال اللص :

– إذن لماذا أنت صامت ..؟

قال :

– ليس هناك ما يستدعى الكلام ..

وقال اللص :

– ولكننا زملاء ..

قال فى دهشة :

– تقصد زملاء فى الزنزانة ..

وقال اللص :

- لا .. أقصد زملاء فى الجهاد ..

وصرخ كأنه يرد إهانة لا تغتفر :

- لا تقل زملاء فى الجهاد .. إنى أعرفك .. وصورك فى الصحف ..

وقال اللص مبتسما فى هدوء :

- وأنا أعرفك .. قرأت لك بعض ما كنت تكتبه ..

وقال ساخرا :

- أنت لص .. ست سوابق اعترفت بها ..

وقال اللص وابتسامته تتسع :

- الواقع أنها أكثر من ذلك بكثير .. حوالى ثلاثين عملية ..

وقال :

- المهم أنك لص ..

وقال اللص :

- لا تردد هذه الصفة .. لص .. إنك إنسان مثقف وعيب عليك أن تقع فى أخطاء الإنسان الجاهل الذى يكتفى بترديد الكلمات العامة .. لص .. مجاهد .. بطل .. أنت مثلا يمكن أن نطلق عليك صفة عامة لا ترضيك .. عميل .. إن كل السياسيين المعارضين مثلك تطلق عليهم هذه الصفة .. عميل روسى .. عميل أمريكى .. عميل .. عميل .. وحتى تنفى عن نفسك هذه الصفة يجب أن تعلن دوافع أعمالك ، وأهدافك ، وأسرار اتصالاتك وتحركاتك .. وبعد كل هذا يمكن أن تكون مجاهدا وطنيا حرا أو عميلا .. وكذلك اللص .. إن اللصوصية عملية أخذ ولكن لماذا يأخذ هذا اللص .. ما هى دوافعه وما هى أهدافه وما هى أسرار تحركاته .. ربما يكون قد أخذ ليأكل ، وفى هذه الحالة لا تطلق عليه لقب « لص » بل يطلق عليه لقب

« محتاج » أو لقب « معدم » ويقدم للمحاكمة ، ويحاكم معه المجتمع الذى وصل به إلى الحاجة أو إلى العدم .. وقد يكون قد أخذ دون حاجة إلى الأخذ ، ولكن لأن روح الطمع ، والتباهى بالأخذ ، وغريزة الاعتداء قد تأصلت فيه ، وفى هذه الحالة يستحق لقب « لص » .. آسف أقصد صفة اللص ..

وابتسم ابتسامة ساخرة تبدو كأنها بصقة على شفتيه وقال :

- وأنت..؟ ما هى دوافعك وأهدافك التى تسببت فى أن يعتبروك لصا..

وقال اللص :

- مثلك .. دوافع وأهداف وطنية وسياسية ..

وصرخ :

- لا تقل إنك مثلى ..

وقال اللص فى هدوء وثقة كأنه يتحدث إلى طالب لم يتم تعليمه :

- مثلك .. الفرق بينى وبينك أنك يمكن أن تعتبر ضمن السلطة التشريعية التى تخطط صورة المستقبل ، وأنا أمثل السلطة التنفيذية التى تحمل مسئولية الواقع .. مسئولية الحاضر .. أنت تدخل ضمن التشكيل الرسمى ، وأنا أدخل ضمن الجمعيات السرية ..

وعاد يصرخ :

- اسمع يا رجل .. إنك تحاول أن ترفع نفسك إلى مستوى الجهاد الوطنى .. ولكن يجب أن تعرف أن ليس هناك أى إحساس وطنى يحرض على الاعتداء على البيوت وعلى الناس . مهما كانت الدوافع والأهداف .. إن هناك شيئا قد يضيق عقلك عن الاعتراف به اسمه القانون ، وقد وضع القانون لحماية البيوت والناس .. وليس هناك فكر سياسى يرفض الاعتراف بالقانون .. وأنت لص .. أى أنك لا تعترف بالقانون ..

وقال اللص دون أن يفقد هدوءه :

- الوطنية أقوى من القانون .. هل قامت ثورة فى الدنيا بحكم القانون أو فى حماية القانون ..؟ حتى الأخذ أو اللصوصية ، كما تحب أن تسميه ، إنه يصبح حقا وطنيا أقوى من القانون عندما تأخذ لأسباب ودوافع وطنية ..

قال :

- هذا لا ينطبق على ما تأخذه أنت ..

وقال اللص :

- لماذا ..؟ فكر قليلا ، استعرض فى ذاكرتك التاريخ القريب .. لقد قامت الثورة واستولت على قصور الملك والعائلة المالكة ، وكانت مليئة بالتحف العالمية والمجوهرات ، والماس ، والذهب وما لا يصدقه عقل .. وصحيح أن الثورة أيامها أقامت مزادا عالميا لبيع مخلفات هذه الأسرة ، ولكنك تعلم والعالم كله يعرف أن ما عرض فى هذا المزاد ليس كل ما كان فى القصور .. الباقى أخذوه .. الذين كانوا يشرفون على هذه القصور .. والذين أخذوه لم يطبق عليهم القانون . ولم يقبض عليهم ، لماذا ..؟ لأن الوطنية أقوى من القانون .. إن هذه التحف والمجوهرات امتصتها العائلة المالكة من دم الشعب فأصبح من حق الشعب أن يستولى عليها .. صحيح أنه ليس الشعب فى صورته العامة هو الذى استولى عليها ، ولكنهم على الأقل مجموعة أفراد من الطبقة الشعبية .. لذلك اعتبر ما أخذ أيامها ليس عملية لصوصية ، ولم تطلق على أحد من الآخذين صفة « لص » .. إنما اعتبر ما حدث تصرفات وطنية أشبه بعملية توزيع الغنائم التى تتم عقب الانتصار فى الحرب ، منذ أيام غزوات الفتح الإسلامى ، ومنذ عرف الإنسان الحرب .. والثورات حروب ..

قال له ساخطا :

- إنك تتلمس أخطاء الثورة حتى ترفع جرائمك إلى مستواها ..

وقال اللص هادئا :

- إنها ليست أخطاء ، إنها طبيعة كل الثورات .. وأنا لا أتلمس أخطاء أحد . ولكنى أحاول أن أقدم لك نفسى بالأسلوب الذى تفهمه .. الأسلوب العلمى .. اسمع .. بعد الانتهاء من الأسرة المالكة ، فرضت الحراسات على بيوت الطبقة التى يسمونها الطبقة الإقطاعية والرأسمالية وعلى بيوت أخرى أصحابها ليسوا من الإقطاعيين أو الرأسماليين ولكنهم من الخطرين السياسيين ، وكان المكلفون بفرض هذه الحراسات يدخلون البيوت ، فى حماية البوليس ويمدون أيديهم إلى ما يجدونه من حلى ونقود ويضعونها فى جيوبهم .. لقد التقيت بشخص محترم كان يبيع سوارا من الماس أخذه من أسرة محروسة فى أثناء فرض إجراءات الحراسة عليها ، وكان يبيعه للتاجر نفسه الذى أبيع له ما آخذه أنا .. وفى الوقت نفسه أممت الشركات والدور التجارية الكبيرة ، وعين لكل منها قائد ، أو رئيس مسئول ، ليس له صفة إلا أنه من المخلصين للثورة .. أى شخصية سياسية ، وقد تفهم فى السياسة ولا تفهم فى التجارة ولا فى الصناعة ، وكثير من هؤلاء أيضا مد يده وأخذ ، ووضع ما أخذه فى جيوبه .. وكل الذين تولوا فرض الحراسة أو فرض التأميم ، ولم يحاسب أحد منهم ، ولا طبق عليه القانون .. لماذا .. لأن الوطنية أقوى من القانون .. وهذه كلها إجراءات وطنية وسياسية توضع فوق القانون ، لأنها تهدف إلى استعادة أموال الشعب .. واعتبر كل مسئول نفسه أنه الشعب واستعاد الأموال ووضعها فى جيبه ..

وقال له ساخرا :

- وأنت .. هل أنت لص حراسة أم لص تأميم .. ؟

وقال اللص وهو يرد على الابتسامة الساخرة بابتسامة أشد سخرية :

- إنك لا تزال مصمما على ترديد كلمة لص .. لا يهم .. أنا لا لص

حراسة ولا لص تأميم ، أنا لص شعبى .. وعلى عكس ما تعتقد فإنى منذ وعيت وأنا أهوى تتبع الحياة السياسية والاجتماعية ، إلى أن اكتشفت أن الحياة كلها أصبح يسيطر عليها اللصوصية .. سرقات .. اختلاسات .. رشاوى .. تهريب .. عمولات .. مجاملات .. بلاوى .. واكتشفت أن كل هذا أصبح كأنه سنة الحياة .. كأنه مبادىء وطنية .. أصبح النجاح يقدر بقيمة ما فى جيبك ولا يهم كيف حصلت عليه .. والذكاء هو أن تصبح غنيا وتملك سيارة دون أن يحاسبك أحد كيف أصبحت غنيا وكيف امتلكت سيارة .. والفقير .. أو الرجل العادى لا يعيش فقيرا أو عاديا لأنه أمين شريف ، ولكن لأنه فاشل غبى .. والقانون .. إنه أصبح كالبيوت الشعبية أو بيوت الفلاحين لا يقيم تحت سقفه إلا الغلابة الضعفاء . بل إن القانون أصبح كسلاح إرهاب ، لا يطبق على أحد من المسئولين إلا إذا رأت السلطة تطبيقه عليه .. إذا تحديت السلطة أو أغضبتها طبق عليك القانون ، وإذا كانت السلطة راضية عنك أعفتك من القانون .. وأكثر من ذلك .. و ..

وصرخ فى وجهه :

- أنا لا أستطيع وأنا فى زنزانة أن أسمع خطابا سياسيا .. ماذا تريد أن تقول ..؟

وقال اللص :

- أريد أن أقنعك بأنى أنا وأنت زملاء ..

قال :

- مستحيل .. أنا لست لصا ..

وقال اللص :

- أنت ثائر وطنى ، وأنا ثائر وطنى مع اختلاف التحركات الثورية الوطنية .. لقد قررت أن أرسم تحركاتى تحت شعار يمكن أن تسميه « السرقات المضادة » .. أى أن أسرق من يسرق أموال الشعب ، فأموال

الشعب تسرق والسلطة لا تهتم ، والقانون عاجز .. إذن يجب أن يتحمل الشعب مسئولية مقاومة هذه السرقات .. إن هناك ما تسمونه الثورة المضادة ، أى ثورة على ثورة ، وكل من يؤمن بالثورة المضادة يدعى أنه يعبر عن إرادة الشعب .. وكذلك السرقات المضادة ، تعبر عن إرادة الشعب .. هل تعلم ما هى أول عملية قمت بها ..؟ لقد كانت عملية ضد محل جزارة ، ذهبت إليه لأشترى كيلو من اللحم .. وكنت أريد لحما أحمر « فليتو » وكانت التسعيرة أيامها تحدد سعر الأحمر بخمسة وسبعين قرشا للكيلو ، وقد كنت رجلا متوسط الحال ، لا أشترى اللحم إلا كل شهر مرة .. خمسة وسبعون قرشا تعتبر ثروة بالنسبة لى .. وبرغم ذلك فإنى أريد اللحم أحمر ، لأتمتع وأمتع أمى وأختى به .. وصرخ الجزار فى وجهى :

- شطبنا يا حضرة ..

وذهلت فقد كان أمامى زبون آخر خرج وهو يحمل اثنين كيلو « فليتو » ، وأنا أموت على نصف كيلو فقط .. وطبعا كنت أعرف الوسيلة التى أستطيع أن أحصل بها على كل ما أريد ، فانحنيت على الجزار وهمست :

- كل شىء بثمنه يا معلم ..

وابتسم المعلم قائلا :

- الثمن غال يا حضرة ..

قلت :

- لا يغلى عليك يا معلم .

ودفعت جنيها كاملا ثمنا لكيلو من اللحم الأحمر .. سرقنى .. أليس كذلك .. إذن من حقى أن أسرقه .. وسأكون لصا ، ولكنه هو أيضا لص ..

وسرقته .. ولم أسرق الفرق بين التسعيرة وما دفعته .. أى لم أسرق خمسة وعشرين قرشا .. ولكنى قدرت عدد الحالات التى فرض فيها الجزار إرادته على الشعب ، وسرقت كل ما وصلت إليه يدى .. لا شك أنى على حق ، بل إنى أرحم عليه من القانون لو كان القانون يطبق ، ولا شك أنه بعد ذلك أحس بأن الله غاضب عليه فخفف من جشعه ، أو ربما تبرع ببعض ما يسرقه للفقراء ، كما فعلت أنا بعد أن سرقته .. أى أن الشعب الفقير لا شك قد استفاد من هذه العملية ..

وقال له :

– وطبعا استمررت بعد هذا فى السرقة حتى ولو لم يسرقك أحد ..

– هذا صحيح .. لقد أصبحت مؤمنا باتجاه وطنى .. لم أكن أسرق أحدا إلا إذا كان يستحق السرقة رافعا شعار « من سرق يسرق ولو بعد حين » . كنت أجد مثلا موظفا كبيرا يعيش فى مستوى فخم .. بيته ، وسيارته ، ورحلات إلى أوروبا .. و .. فأبدأ بأن أسأل عن مرتبه ، ثم أسأل عن دخله الخاص ودخل زوجته فربما يكون قد ورث عن أبيه أو عن أبيها عمارة أو مزرعة فاكهة ، ثم أحسب كل ذلك بالنسبة لتكاليف الحياة التى يعيشها ، فإذا كانت تكاليف حياته لا يمكن أن يحققها دخله ومرتبه .. سرقته .. دون أن أحاول أن أسأله كما ينص القانون : من أين لك هذا فلا يهم من أين ، ولكن المهم أن يفقد هذا الذى بين يديه ..

وقال له ساخرا :

– كان لديك جهاز مخابرات إذن ..

وقال اللص :

– لا .. المسألة سهلة لا تحتاج لجهاز عندما تحصرها فى فرد ، وأنا لم أكن أجمع المعلومات إلا عن الفرد الذى أقرر سرقته .. وقد حاول بعض أصدقائى تحريضى على سرقة حلاق معروف ومشهور يعيش حياة فى

منتهى البذخ .. وسرقته سهلة لأنه برغم ثرائه يهمل فى حماية أمواله .. إنه يترك مبالغ ضخمة فى بيته شهورا طويلة قبل أن ينقلها إلى البنك .. ويترك مبالغ كبيرة منها فى خزينة محل الحلاقة .. ثم إن معدات الحلاقة ذاتها أصبحت غالية الثمن فى السوق السوداء .. وبدأت أتحرى عنه فعلا .. لقد بدأ حياته صبيا فى محل حلاق أجنبى ، معروف ، ثم تطور وأجاد المهنة إلى أن أصبح هو نفسه مشهورا .. وارتفع أجره ، وأغدق عليه الزبائن بالبقشيش ، وكان يدخر أكبر نسبة مما يحصل عليه ، إلى أن استطاع أن يفتح محلا للحلاقة باسمه ، واستطاع بجهده أن يجذب كل زبائن الحلاق الأجنبى .. وافتتح محلا ثانيا .. واستطاع أن يكسب ثقة واطمئنان كل من يعمل معهم من الحلاقين .. إن عدد المقاعد التى يستقبل عليها الزبائن أصبح أكثر من خمسين مقعدا .. واغتنى دون أن يسرق أبدا ، ولا يمكن أن ينطبق عليه شعار من سرق يسرق ولو بعد حين ، فلم أسرقه .

وصرخ فى وجه اللص :

– لا تحاول أن تخدعنى بهذه الحكايات .. إنك لن تكون أبدا وطنيا ، ولا ثوريا ، ولا سياسيا ، أنت حتى لو صدقتك تعتبر إنسانا فوضويا .. تحاول أن تحرض الناس بعضهم على بعض .. إن من سرق يسرق يمكن أن تتسع حتى تنادى بأن من قتل يقتل بلا محاكمة وبلا قانون ، ومن اعتدى على ابنة آخر أو أخت آخر يعتدى على بنته أو أخته .. هذه فوضى .. وأنت تؤمن بهذه الفوضى حتى تبرر أطماعك وجشعك والطريق القذر الذى تسير فيه ..

قال اللص دون أن يفقد هدوءه :

– لا تلق الاتهامات أنت أيضا بلا محاكمة .. إنى أنا الآخر يمكن أن أتهمك بأنك لا تعمل فى السياسة من أجل الوطن ، بل لمجرد أن تصل إلى الحكم ، وتصبح وزيرا ، أو رجلا مهما ، له سيارة مرسيدس حكومية ،

ويسير فى ركابه جنود يحيونه .. تعظيم سلام .. ثم أن مبدأ السرقة المضادة الذى أدعو إليه هو مبدأ مرحلة ينتهى بانتهائها ، عندما ينتهى عصر السرقات الآمنة ، ويخضع كل السارقين للقانون مهما ارتفعت مراكزهم الرسمية ..

وقال فى سخط وهو يكاد يبصق فى وجهه :

– اعتبر النقاش انتهى .. لا تتكلم ..

وقال اللص :

– خسارة .. كنت أريد أن أعرض عليك مشروعا يهمك ..

وصرخ :

– هل جننت .. أى مشروع لك يمكن أن يهمنى .. ؟

وقال اللص :

– مشروع أعتبره أنا حركة وطنية هامة .. فإنى برغم عدم اقتناعك مؤمن بما أفعله ، ولكن ما أفعله ينقصه الوعى الشعبى .. ينقصه الدعاية السياسية .. إنى أريد أن أنشر الإيمان بأن من سرق يسرق ولو بعد حين ، وهذا يتطلب الإعلان عن كل عملية نقوم بها .. كالعمليات الفدائية التى تتم فى اليابان أو ايرلندا ، أو التى يقوم بها الفدائيون الفلسطينيون ، إنهم يعلنون مسئوليتهم عن كل الحوادث التى يقومون بها .. هيئة كذا تعلن مسئولياتها عن عملية خطف الطائرة كذا ، أو تدمير مكتب كذا .. أو .. أو .. وأنا أريد أن نكون جماعة تعلن مسئوليتها عن العمليات التى نقوم بها .. جمعية من سرق يسرق ولو بعد حين تعلن مسئوليتها عن سرقة السيد فلان الفلانى .. إن هذه الطريقة لا شك تخيف كل السارقين الكبار فيكفون عن السرقة ، أو على الأقل يخففون منها .. أو ..

وعاد يصرخ :

– قلت لك اسكت .. سأخبط على الباب وأنادى الشاويش ، وأطلب نقلى من هذه الزنزانة ..

وقال اللص وهو يدير ظهره كأنه يئس منه :

– خيبت ظنى .. لا أمل فيك .. برغم أن الدولة اعتبرت مسئوليتنا واحدة ووضعتنا فى زنزانة واحدة ..

* *

وخرج من السجن .. أفرج عنه .. وجلس يكتب منشورا عنيفا ، صارخا زاعقا ، يهاجم به الحكومة لأنها تضطهد المجاهدين السياسيين الذين تعتقلهم ، وتعذبهم ، وتسلط عليهم المهانة فتجمع بينهم وبين اللصوص فى زنزانة واحدة ..

وسقط قبل أن يصل إلى الجنة

منذ عرفته وأنا حائر فيه .. إنه يبدو إنسانا كاملا لا ينقصه شيء من مقومات الإنسان الكامل ولا يزيد فيه شيء يمكن أن يثير الحيرة أو الدهشة .. هادىء ، مثقف ، نظيف ، ناجح فى عمله ، ذكى ولبق فى حديثه .. يستطيع أن يفرض شخصيته عليك دون تعمد ، فيشدك إلى حديث علمى جاد ، وقد ينتقل بك فجأة إلى حديث ساخر أو ضاحك .. وكل من حوله يحبونه ويحترمونه ، وكل من حوله أيضا حائرون فيه ، ربما أشد من حيرتى أنا فيه ..

وقد حاولت أن أضع تفسيرا لهذه الحيرة التى يثيرها ، أو حاولت أن أضع نقطة ارتكاز أعتمد عليها فى تحليل شخصيته ، فتصورت أنه إنسان يؤمن بالمبادىء العامة إيمانا مطلقا ، لا تحتمل أى استسلام أو خضوع للظروف أو التطورات أو للواقع الذى يمكن أن تصطدم به هذه المبادىء ..

وهذا الإيمان المطلق هو الذى أكسبه حب وثقة من حوله ، وهو السبب فى تكوين شخصيته ، وهو أيضا السبب فى الحيرة والدهشة التى يثيرها ، وفى الاهتزازات الصارخة فى خطوط شخصيته ..

فهو يؤمن إيمانا مطلقا بأن العمل وحده هو ما يجب أن يعيش به وله أى رجل ، وقد كان والده تاجرا يملك دكانا لبيع التحف النحاسية فى حى الغورية .. ومرض والده وهو لا يزال طالبا فى المدارس الثانوية ، وطال مرضه حتى اضطر أن يبيع كل تجارته ، ثم مات بعد أن ضاع كل ما تملكه الأسرة من مدخرات ، وهو لا يزال طالبا فى كلية الحقوق بالجامعة .. وكانت شقيقته متزوجة من رجل غنى ، عرض عليه أن ينتقل للإقامة معه ، وأن ينفق عليه إلى أن يتم تعليمه ويتخرج فى الجامعة .. ولكنه رفض ..

لا يستطيع أن يعيش على حساب عمل غيره .. وسعى إلى أن عمل كبائع فى أحد المحال التجارية ، واستطاع أن يدبر بمرتبه الصغير حياته ، وهو لا يزال مستمرا فى دراسته الجامعية .. إلى أن تخرج .. واستطاع أيضا أن يكون من أوائل الخريجين ، فعين فى النيابة العامة ، وارتقى إلى أن أصبح وكيلا للنيابة .. وهو فى كل ذلك يعيش بإيمانه المطلق بأن العمل وحده هو وسيلة الحياة ..

وكان أيضا يؤمن إيمانا مطلقا بحرية الفكر .. حرية الفرد فى أن يقول رأيه ، وأن يحدد مواقفه فى حدود القانون وفى حدود حرية غيره .. ولم يكن مهتما بالحياة السياسية إلى حد التفرغ لها .. لم يخطر على فكره أبدا أن يحترف السياسة ، أو أن يصل إلى شيء يريده عن طريق الاتصال بالمجتمعات السياسية .. ولكنه فقط كان يقول رأيه الصريح إذا جاءت مناسبة يقول فيها رأيه .. وكان رأيه يبدو جريئا عنيفا بالنسبة للظروف التى كانت تحيط بمصر ، وبالنسبة للقيود التى كانت مفروضة على كل من يتكلم فى مصر .. وكان أصدقاؤه ينصحونه دائما بألا يقول هذا الكلام حتى فيما بينهم ، لأن وظيفته تحتم عليه أن يراعى الظروف ويحرص على مستقبله وسلامته .. ولكنه وهو يتكلم لم يكن يشعر بأنه جرىء أو عنيف .. كل ما كان يشعر به هو أن من حقه أن يقول رأيه ، وهو مؤمن إيمانا مطلقا بحريته فى رأيه ، وإيمانه المطلق أقوى من الظروف وأقوى من مستقبله وسلامته .. ووصل به إيمانه بحريته إلى حد أنه أصبح يجادل رؤساءه فى الإجراءات التى يكلف باتخاذها ضد من يقدم للتحقيق أمامه بصفته من رجال النيابة .. ولم يكن يحاول أن يبدو بطلا وطنيا ، ولا حتى حامى حمى القانون ، إنما هو فقط يقول رأيه ، ويبعدون المتهم من أمامه ليوضع أمام محقق نيابة آخر يقبل أن يتخذ الإجراءات المطلوبة ، فلا يهتم . إنه قال رأيه وانتهت مهمته .. وأصدقاؤه من حوله حائرون فيه ، ويحاولون أن يخضعوه للظروف التى تحيط به ، وتحيط بمصر ، تأمينا لمستقبله ..

يا أخانا .. السياسة أقوى من القانون .. وما دامت السلطة السياسية تريد هذا ، فيجب أن تخضع لها .. ولكن لا .. إن إيمانه المطلق بالقانون ، وإيمانه المطلق كوكيل للنيابة ، ضمن الحركة الواسعة التى شملت أيامها كثيرا من رجال القضاء ..

وهو متدين .. وإيمانه بالدين أيضا إيمان مطلق ، ولا يخضع أبدا لتطور الظروف أو تطور المجتمع الإنسانى .. وهو ليس متزمتا ، ولا يحاول أن يفرض إيمانه على أحد ، ولا يحاسب أحدا على الحلال والحرام ما دام هذا الحلال والحرام لا يمسانه ، وإنما هو يحتفظ بإيمانه فى داخل نفسه ، ويترك إيمان الناس لحساب الله ، أو حساب القانون ..

وكان أكثر ما يثير حيرة أصدقائه من حوله ، ويثير أحاديثهم ، وأحيانا ضحكاتهم ونكاتهم ، هى العلاقة التى حددها لنفسه بالنسبة للمرأة ..

كان يؤمن إيمانا مطلقا بأنه لا يمكن أن تقوم أى علاقة خاصة بين رجل وامرأة إلا بعد توقيع عقد زواج شرعى .. ليس فقط العلاقة الجسدية ، بل كل العلاقات الخاصة .. كالعلاقات العاطفية التى يعبر عنها بأحاديث تليفونية ، أو تدفع إلى لقاءات مستترة حتى لو كانت بريئة .. كل هذا لا يسمح به إيمانه المطلق .. وليس معنى ذلك أنه كان رجعيا يدعو إلى الفصل بين الجنسين فى المجتمعات العامة ، أو يطالب بإسدال الحجاب على المرأة ، أو حتى يعترض على تطور زى المرأة إلى « المينى جيب » أو البنطلون الملتصق بالجسد حتى يبدو كأن صاحبته ارتدته من تحت جلدها .. كل هذا من حق المجتمعات الإنسانية ، والحلال والحرام يدخلان فى حساب الله وفى حساب القانون ، ما داما لا يمسانه حتى يتدخل فيهما ، وحتى لو كان غير مقتنع بهما .. وقد كانت له حياته الاجتماعية المفتوحة التى تجمعه فى النوادى والصالونات التى تجمع بين الجنسين ، وربما كان محترما محيرا بين نساء هذه المجتمعات كما هو محترم محير بين

الرجال .. ولكنه منذ أحس بشبابه لم تطرأ على حياته أبدا أى علاقة خاصة مع أى فتاة .. لا من قريب ولا من بعيد .. ولم يكن يشعر بأن شيئا ينقصه .. كان إيمانه المطلق أقوى من إحساسه بالنقص .. وأقوى من إغراءات أصدقائه لجذبه فى طريق العلاقات النسائية ، وأقوى أيضا من نكاتهم ومعايرتهم التى يصبونها عليه ..

إلى أن تخرّج وعُين فى وظيفة مساعد نيابة ..

وقرر أن يتزوج ..

ومع التسليم بإيمانه المطلق الذى يحتم ألا تبدأ علاقة خاصة بين رجل وامرأة إلا بعد توقيع عقد الزواج ، إلا أن الحيرة أحاطت به عندما قرر الزواج .. لماذا يريد الزواج ..؟ هل دافعه هو مجرد إشباع حاجة الرجل إلى المرأة بعد أن تحمل هذا العمر الطويل بلا امرأة .. أو أنه كان يسعى إلى تحقيق مستقبل إنسانى كامل يفرض عليه أن يبنى أسرته .. لا أحد يدرى ..

ومن بين كل من يستطيع أن يتقدم إليهن بطلب الزواج ، اختار التى رشحتها له أخته .. ربما لأنه يحب ويثق فى أخته لا فيمن رشحتها له .. وتقدم ، ولم يكن قد رآها من قبل ، وكل ما كان يعرفه عنها قبل أن يراها هو أنها خريجة فى الجامعة ، ومن أسرة محترمة ، وأن سمعتها طيبة .. وهو يريد الثقافة والاحترام والسمعة النظيفة .. ولم يشعر بالراحة عندما رآها لأول مرة .. وربما هذا الإحساس بأنها المرة الأولى فى حياته التى يسعى فيها للارتباط بأنثى .. وهى ليست صارخة الجمال ، ولكنها أيضا ليست قبيحة .. على بركة الله .. وأعلنت الخطبة .. وإحساسه بعدم الارتياح لا يفارقه .. إنه لا يرتاح وهو يحادثها .. ولا يرتاح وهو جالس مع أسرتها أو وهى مع أسرته .. بل لا يرتاح وهو يتسلل بعينيه إلى وجهها ويطوف بهما على كل قطعة من جسدها .. ولكن لا يهم .. إنها التجربة الأولى فى حياته .. والتجربة الأولى تحتاج إلى مدة طويلة حتى تثبت

وجودها .. ولا شىء ينقص هذه الفتاة .. لا شىء .. ويجب أن يحتمل .. واحتمل حتى عقد القران فعلا وسط حفل كبير من أصدقائه ، والعوالم والزغاريد ..

ولم يبق إلا تحديد موعد الزفاف ..

ولم يبق إلا أيام وتصبح له امرأة فى بيته ..

وفجأة ..

فسخ العقد .. أعلن الطلاق ..

ومع وقع المفاجأة ، لم يستطع أحد أبدا أن يفسر لماذا احتمل كل هذه الفترة قبل عقد القران إذا لم يكن يرتاح إليها ، ثم لماذا فقد فجأة قدرته على الاحتمال قبل أن تكون له ببضعة أيام .. وهو لا يجيب ويترك كل من حوله حائرا فيه .. وربما كان التفسير الوحيد هو أنه خشى أن يطلقها بعد أن تصبح امرأة ، فقرر أن يطلقها وهى لا تزال بكرا ، وإذا كان أبغض الحلال هو الطلاق ، فإن ما فعله هو أخف ما هو أبغض .. وبعد ذلك كان حريصا على القانون .. دفع مؤخر الصداق .. وتنازل عن الهدايا .. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ..

وأصبح يبدو بعد الطلاق كأن شيئا فيه قد تغير .. إنه لا يزال بشخصيته التى يعرفها عنه أصدقاؤه ، ولكنه يقبل عليهم باستسلام أكثر مما تعودوا إقباله عليهم .. ويختار من بينهم أكثرهم مرحا واندفاعا فى مجالات الليل ، ليسهر بينهم ، ويشاركهم مجتمعهم وضحكاتهم ، دون أن يشاركهم أفعالهم أو يمارس نزواتهم .. فقط يتفرج عليهم .. ويضحك معهم وبهم ..

إلى أن كان مساء .. وكانت ليلة خاصة جمعت بعض الأصدقاء ، وبضع نساء من هذا الصنف من النساء الذى لا يهمه أن يعرف اسم الرجل الذى يأخذهن ويأخذن منه .. وجاء إليهم .. واستقبلوه كما تعودوه ..

متفرجا جاء يضحك معهم وبهم .. ولكنهم بدأوا يلاحظون أنه يكثر من الضحك لواحدة من هاتيك النسوة .. ثم يجمعه بها حديث لا يشتركون فيه .. وعيناه لا تسقطان عنها .. وأحاطوه بنكاتهم الساخرة .. وفجأة قام من جلسته ، وجذب المرأة من يدها ، وقال دون أن يلتفت إليهم :

- عن إذنكم ..

ثم أخذها وخرج بها من البيت ، والأصدقاء يهللون من ورائه ضاحكين ، ويطلقون الزغاريد الساخرة .. مبروك عليك يا عريس .. انتهى .. سقط .. أصبح واحدا منهم .. الرجل البكر فضت بكارته ..

وفى اليوم التالى اجتمعوا ليتضاحكوا ويسمعوا ما حدث ، وإذا بهم يتجمدون فى ذهول ..

لقد تزوجها ..

تزوج هذه المرأة ..

أخذها من يدها وخرج بها إلى المأذون ، وهى الآن زوجته ، وفى بيته ..

وخبطوا كفا على كف واستسلموا لحيرتهم فيه ..

وهو لم يتغير ، كل ما حدث له أنه لم يعد يتردد كثيرا على مجتمعات أصدقائه ، وإذا جاءهم كان وحده بلا زوجته ، حتى لو كان يؤدى زيارة عائلية .. ولا يتكلم عنها أبدا .. كأنها ليست فى حياته .. وهو دائما الرجل نفسه .. هادىء ، جاد ، مثقف ، نظيف ، ناجح فى عمله ..

وانقضى عام واحد ، وإذا به يعود ليتردد كثيرا على ليالى أصدقائه ، ويظهر أكثر فى مجتمعات النوادى والصالونات ، ولم يكن يقول شيئا ، ولكنه تركهم يستنتجون ، ثم يتأكدون ..

لقد طلقها .. طلق هذه المرأة ..

ولم يعرف أحد لماذا طلق ، كما لم يعرف أحد لماذا تزوج ..

ولم تنقض بضعة شهور حتى تكرر نفس ما حدث .. امرأة أخرى قد تثير فى الرجل الجاد أى شىء ، إلا أن يخطر على باله أن يتزوجها .. ولكنه فى لقاء واحد صحبها إلى المأذون .. وتزوجها ..

وغاب معها شهورا ، وعاد بعد أن طلقها ..

ثم تزوج للمرة الرابعة ..

والخامسة ..

وجلس صديقه الدكتور كمال يناقشه فى هدوء كأنه يعالج مريضا .. إن كمالا ليس طبيبا نفسيا ، ولا دكتورا فى علم الاجتماع ، إنه طبيب باطنى ، وهو يعلم أن كل قطعة من جسد الإنسان تتأثر بحالته العصبية ، وربما كان هذا هو أيضا السبب فى الأمراض الاجتماعية .. كل من يشذ اجتماعيا لابد أنه مصاب فى أعصابه ، وأعصابه تؤثر على عقله الذى يفكر به ، وفكره هو الذى يحدد تصرفاته وينتهى به إلى الشذوذ .. وصديقه الذى تزوج حتى اليوم خمس مرات ، وبهذا الأسلوب فى التقاط الزوجات ، لابد أنه يعانى من حالة نفسية عصبية .. وقال له الدكتور :

– إن الزواج ليس مجرد امرأة فى فراش رجل ..

وأجابه مبتسما :

– وامرأة بلا زواج لا يحق لها فراش رجل ..

وقال الدكتور :

– كأنك تعترف بأن كل زيجاتك لم تكن سوى زواج متعة ..

وأجاب هادئا :

– أنا لا أدرى إلا أننى أضع الطبيعة البشرية فى صيغتها الشرعية ..

وقال الدكتور :

– إن الطبيعة البشرية تتألف من عدة عناصر يكمل بعضها بعضا حتى تحقق بناء واستمرار المجتمع الإنسانى .. إن الطبيعة البشرية مثلا تفرض على الإنسان أن يأكل ، ولكنه حتى يحقق لنفسه متعة الأكل ، يجب أن يحصل على ثمن ما يأكله ، ولكى يحصل على الثمن يجب أن يعمل ويكسب ، وعلى قدر عمله وكسبه يستطيع أن يختار الصنف الذى يأكله ، والمطعم الذى يأكل فيه .. وكذلك الزواج .. إن المتعة بين الرجل والمرأة هى أحد عناصره ، ولكى يحقق الإنسان هذا العنصر يجب أن تجمعه بالمرأة عناصر أخرى .. عناصر البناء .. بناء الأسرة .. وبناء المستقبل وبناء المجتمع .. وإلا فقد كل ما يميز الإنسان عن الحيوان .. أصبحت المتعة مجرد متعة حيوانية ، وأصبح عقد الزواج الذى يوقعه المأذون ، لا يساوى شيئا أكثر من قرار يوقعه مدير حديقة الحيوان بنقل أنثى الخرتيت إلى قفص ذكر الخرتيت .

وأجاب فى هدوء دون أن ينفعل ، وكأنه يناقش تحقيقا معروضا عليه كوكيل نيابة :

– قلت إن من طبيعة الإنسان أن يأكل ، ولكى يأكل يجب أن يدفع الثمن ، فافترض أن هذا الإنسان لم يجد ثمن ما يأكله ، هل تطلب منه أن يسرق ليأكل أو تفضل له أن يبيع سترته ليأكل ..

وقال الدكتور :

– هذا خارج عن موضوعنا ..

وأجاب مبتسما :

– هذا هو صلب الموضوع .. فأنا أحس وأنا أتزوج هذه الزيجات أنى أبيع سترتى لآكل .. سترتى الاجتماعية .. إنى أعلم أن المجتمع كله لا يقر هذه الزيجات ، وأنه يضعنى فى مستوى الشواذ ، وأبذل الكثير حتى أظل

محتفظا بين الناس بمكانتى ، واحترامى .. ولكنى أفضل أن أبيع سترتى الاجتماعية ، على أن أسرق .. كل أصدقائنا لصوص ، يسرقون المتعة من النساء .. وأنا لا أستطيع .. إيمانى بالشرعية يغلبنى ويحمينى من السرقة ..

وقال الدكتور :

– الشرعية هى شرعية الهدف وليست مجرد شرعية الإجراء . إن توقيع عقد اتفاق قانونى بين لصين لا يعتبر عقدا شرعيا حتى لو أقرته المحاكم ..

وأجاب هادئا :

– هذا اختلاف فى التفسير ..

وقال الدكتور :

– ثم إنك تمارس أنانية الرجل فى تفسير حقه الشرعى .. إنك تطلق ، لأن من حقك وحدك الطلاق ، حتى لو كانت زوجتك لا تريده ..

وأجاب :

– لا .. إنى أضع حقى فى الطلاق كشرط للزواج .. إنى أصارحها بأنى أتزوجها وأنى سأطلقها ، فإذا قبلت تزوجت ، وإذا رفضت لا أتزوج ..

وقال الدكتور :

– وربما لهذا تختار أصنافا من النساء لا يرفضن الطلاق ..

وأجاب :

– هذا صحيح .. وعندما ألتقى بمن ترفض الطلاق ، لن أتزوجها ، أو على الأقل سأفكر قبل أن أتزوجها ، فإذا تزوجتها بعد ذلك فلا طلاق أبدا ..

وقال الدكتور :

– إنك معقد من زيجتك الأولى .. لم تكن تفكر فى الطلاق ، وطلقت ، ومن يومها تحتفظ بحقك فى الطلاق وتعلنه كشرط للزواج ..

وأجاب وهو يتنهد كأنه يترحم على نفسه :

– ربما ..

وقال الدكتور :

– حاول أن تتخلص من هذه العقدة النفسية ..

وأجابه فى حدة وكأنه بدأ يفقد أعصابه :

– إنك دكتور نفسانى جاهل .. إن المريض لا يستطيع أن يتخلص من عقدته ، ولكن يجب أن تجد عليه ظروف تخلصه منها .. وكفى نقاشا .. اتركنى أعش فيما أومن به ..

وافترقا ..

ومضت شهور وتزوج للمرة السادسة ..

ثم طلق ..

وشهور أخرى وتزوج للمرة السابعة ..

وصدر القرار الخاص بطرده من وظيفته كوكيل للنيابة ضمن حركة السيطرة على السلطة القضائية .. واحتار ماذا يفعل بنفسه .. إنه لا يستطيع أن يشتغل بالمحاماة ويعيش مهددا كل يوم باعتقاله وربما اعتقال كل من يتردد على مكتبه .. بل إنه لا يستطيع أن يعيش فى مصر كوكيل نيابة مطرود ، تغلق فى وجهه الأبواب ، ويتجنبه الناس وهم يشفقون عليه كأنه مصاب بالبرص ..

وقرر أن يهاجر .. إنه لا يزال فى السابعة والثلاثين من عمره ، ويستطيع أن يحتمل الهجرة .. وهو يعلم أن تخصصه فى دراسة القانون

قد لا يفتح له أبوابا كثيرة للعمل فى الخارج .. ولكنه سيحاول أى عمل ..

وطلق زوجته السابعة ..

وهاجر .. استطاع بذكائه أن يتغلب على كل عوائق سفره إلى الخارج التى كانت مفروضة أيامها .. وسافر إلى لبنان .. وهناك اكتشف بسرعة أنه لكى يعيش يجب أن يضحى بكل مبادئه التى يؤمن بها إيمانا مطلقا .. اكتشف أنه يجب أن يصبح شخصية أخرى لا يريدها لنفسه ..

وانتقل إلى فرنسا .. باريس .. وقرر بينه وبين نفسه أن يلتحق بجامعة السوربون ليحصل على شهادة معادلة لشهادته فى القانون ، وفى الوقت نفسه يعمل ليعيش .. يعمل فى مقهى .. فى مصنع .. خادم فى شركة .. ولكن معركة الحياة هنا صعبة ، والزحام خانق ، وأصحاب الأعمال شرسون ، جشعون .. إن كل جهده يستنزف فى احترام نفسه سواء فى العمل أو فى الجامعة .. جهد أكبر من أن يتحمله .

وانتقل من فرنسا إلى السويد .. إن زحام الهجرة ليس شديدا هناك ، على الأقل ليس فيها كثير من المصريين والعرب الذين كان يشعر أمامهم بغصة تكوى أعصابه وهو يعمل كجرسون ، أو كخادم يمسح البلاط .. هو .. سيادة وكيل النيابة المحترم ..

وفى استكهولم دفعته مجرد الصدفة إلى الإقامة فى غرفة من بيت تملكه سيدة سويدية عجوز .. وأحاطته هذه السيدة العجوز بعطفها وحنانها ، واستطاع بسرعة أن يكسب ثقتها وحبها ، وأصبحت كأنها تبنته .. هى التى سعت له حتى ألحقته بالعمل فى أحد المقاهى .. وسعت له حتى ألحقته بمعهد لدراسة اللغة السويدية ، ثم سعت له حتى قبل فى جامعة استكهولم ليحصل على معادلة فى القانون السويدى يستطيع بعدها أن يمارس المحاماة هناك ..

كل شىء أصبح يبدو أمامه سهلا ..

وكل هذه الشهور وهو يختزن رجولته ، وليس فى أيامه ولياليه أى امرأة ..

وكان قد تعود على مجتمع السويد عندما التقى بها .. طالبة معه فى الجامعة .. وبسرعة .. وخلال اللقاء الأول عاد كما كان فى القاهرة .. ربما بدأ يكرر الكلمات نفسها ، ويطلق نفس النظرات .. ثم جذبها من يدها وقام بها ، وقالت فى دهشة :

- إلى أين ؟

قال :

- نتزوج ..

قالت فى دهشة :

- نتزوج !! لماذا نتزوج ؟

قال فى عجلة :

- حتى تكونى لى ، ونمارس الحب معا ..

قالت وهى تنظر إليه كمجنون :

- ولكن من حقنا أن نمارس الحب بلا زواج ..

قال فى حدة :

- لا .. حرام .. الشرع يحتم الزواج ..

- وشدته إليها وعادت تجلسه بجانبها ، وقالت وابتسامتها تطل من عينيها :

- إن دراسة القانون تسيطر على عقلك ..

قال :

- ليس القانون .. إنه الشرع ..

قالت كأنها تلقى درسا على شعب متأخر :

- لا .. إنه القانون الذى يسيطر عليك .. ما هو الشرع الذى تتمسك به ..؟ ما هى حكمته .. إن حكمته هى الإعلان .. علانية العلاقة بين الرجل والمرأة أمام المجتمع .. ونحن قد أعلنا علاقتنا إننا نجلس معا هنا أمام الناس .. وسأصحبك بعد قليل إلى بيتى وسيشاهدك البواب والسكان والجيران وأنت تدخل معى .. أى أن العلانية قد تحققت .. ولكن القانون هو الذى يسيطر على عقلك ، وهو شيء آخر .. إن القانون هو عقد معاملة خارج العلاقة الشخصية .. ما هى حقوقك المادية ، وما هى حقوقى المادية .. وقد احتاج إلى هذا القانون لشراء عمارة ، ولكن لست فى حاجة إليه لشراء رجل .. لا أريد أن أشتريك ، ولا أقبل أن أبيعك نفسى .. إننا يمكن أن نعيش معا وكل منا محتفظ بحريته الشخصية ، وكيانه الفردى الكامل .. وقد نعيش بهذه الحرية العمر كله ، وقد لا نعيش بها إلا ليلة .. ولا أحد منا يشترى الآخر أو يبيعه ..

قال وهو لا يزال يعيش بشخصيته القاهرية :

- إنك تخافين أن أطلقك ..

قالت ضاحكة :

- أنا لا أفكر فى الطلاق لأنى لا أفكر فى الزواج ..

ورفضت أن تذهب معه إلى مكتب توثيق عقود الزواج .

وهو أيضا رفض أن يذهب معها بلا زواج ..

ومضت عليه أيامه وهو يعانى حرمانه منها .. ليس فقط حرمانه منها كامرأة ولكن حرمانه منها كصديقة ، وزميلة . وحديث حلو ، وأفكار مشعة .. واستعرض فى ذاكرته مجتمع السويد .. إنه مجتمع كامل لا يشترط الزواج .. وليست دوافع الزواج فيه هى مجرد العلاقة بين الرجل والمرأة .. حتى الأولاد .. إن الدولة تعترف بالأولاد غير الشرعيين وتتحمل مسئوليتهم .. بل لم يعد هناك ما يمكن أن يكون شرعيا وغير

شرعى .. حتى ولو كان الإبن شرعيا فإنه يعامل معاملة الإبن غير الشرعى ، وتتحمل الدولة مسئوليته كاملة ، ويستقل بحياته وهو فى السادسة عشرة من عمره .

كل ذلك يلح على عقله حتى يعترف بالفتاة التى رفضت أن تتزوجه .. وهو يقاوم .. ويقاوم .. أياما طويلة قضاها ، يقاوم الاستسلام .. يقاوم إيمانه المطلق بما يؤمن به .. يقاوم أن ينحرف إلى الإلحاد .. إلى الكفر بتعاليم الله .. يقاوم أن يستسلم لعذاب الآخرة ، ويدخل جهنم بعد أن عاش فى انتظار الوصول إلى الجنة .. ثم لم يستطع أن يستمر فى المقاومة .. استسلم .. وذهب إليها فى بيتها ..

واستقبلته فرحة به ، وتعلقت به تحتضنه وتقبله ، ثم جذبته من يده تشده إليها .. وهو جامد تتردد أنفاسه كأن فى داخل صدره زوبعة ، ثم أدخل يده فى جيبه وأخرج كل ما فيه من نقود ، وهم أن يعطيها ..

قالت فى دهشة :

- ما هذا ..؟

قال :

- هذا هو كل ما أستطيع أن أدفعه ..

- ولماذا تدفع ؟

قال :

- لأنك الآن أمة .. أى جارية .. أى أنت الآن ما أملكه بأيمانى .. وحتى أملكك يجب أن أدفع الثمن .. هكذا ينص الشرع ..

واتسعت الدهشة فى عينيها . وسكتت قليلا كأنها تفكر ، ثم جمعت النقود من يده وأعادت وضعها فى جيبه ، وقالت :

- تريد أن تقول إنك تدفع ثمن ما تأخذه .. ولكن لا تنس وأنت رجل

قانون أن هناك ما يسمى التبادل التجارى ، أو التبادل الاقتصادى ، أو تبادل المنافع .. أنتم فى بلادكم تعطون البترول وتأخذون السيارات ، أو تبيعون القطن وتأخذون السد العالى .. هناك أيضا التبادل العاطفى .. تبادل الحب .. فأنا أعطيك وآخذ منك .. الحب .. اللحظات الحلوة .. متعة اللقاء .. وأنت أيضا تعطينى وتأخذ منى أى أن الثمن مدفوع بما لا يمكن أن يقدر بالنقود .. إن هذه النقود لو أخذتها منك فلن تكون ثمنا ، ولكن ستكون « بقشيشا » هبة .. وأنا لست فى حاجة إلى بقشيش .. إن ما آخذه يكفينى بقدر ما يكفيك ما تأخذه .. إنك تفكر كأنك تغتصبنى فتحاكم نفسك لاغتصابى ، وتحكم على نفسك بدفع تعويض .. ولو قبلت ما تدفعه لعشت معك كأنى فى حالة اغتصاب .. ولن أقبل .. أفضل أن أشعر بأنى أنا التى تغتصبك وأنا التى تدفع التعويض ..

ومدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت بضعة نقود وألقتها فى وجهه وهى تصرخ :

- خذ .. وتعال أغتصبك ..

ولم يستطع أن يجادلها طويلا ..

واستسلم ..

ولأول مرة فى حياته يعيش مع امرأة بلا زواج .. وهو لا يستطيع أن يستريح .. لقد أصبحت فى حياته فتاة جميلة يقيم معها فى بيت واحد ، وتعطيه ويعطيها .. وتسعده ويسعدها .. ولكنه غير مستريح .. نوازع حادة تقلقه .. ما هى ..

واكتشف بعد طول تفكير أن ما ينقصه هو الإحساس بالمسئولية .. مسئوليته عن هذه الفتاة التى تعيش معه .. ولا يمكن أن يكون هناك ما يؤكد هذه المسئولية إلا الزواج .. ربما كان لهذا يصر وهو فى القاهرة على أن يتزوج كل امرأة يريدها .. ليحمل مسئوليتها .. مسئولية مطالب الحياة ..

مسئولية تصرفاتها .. مسئولية كل كيانها .. أما هنا ، وهذه الفتاة السويدية معه .. فهو لا يحمل أية مسئولية .. هى وحدها المسئولة عن نفسها .. ليس هناك عقد يفرض عليه مسئوليتها .. وإذا كان يستطيع أن يتركها فى أية لحظة ، فهى أيضا تستطيع أن تتركه فى أية لحظة .. واشتد به هذا الإحساس بفقدان شخصيته كرجل مسئول عن امرأة يريدها .. إن الرجل لا يمكن أن يكون رجلا بالنسبة للمرأة إلا إذا كان مسئولا عنها .. وهو لم يعد رجلا ..

وتطورت شخصيته إلى أبعد من ذلك .. بدأ ينهار .. بدأ يشرب الخمر .. أين إيمانك يا رجل .. الدين .. المبادىء المطلقة .. الجنة .. النار .. وينظر إلى نفسه ساخرا .. ها .. ها .. لقد تحطم إيمانه المطلق بالمبادىء منذ قبل أن تكون له امرأة بلا زواج ، فماذا يزيد عليه لو شرب الخمر . ومهما تفاوتت درجات الجحيم الذى ينتظره فى الآخرة ، فكلها جحيم ..

والخمر أدت به إلى كل تصرفات المخمورين .. إنه ليس مسئولا عن هذه الفتاة التى يعيش معها ، أى أنه يستطيع أن يمتع نفسه بفتاة أخرى بجانبها .. وأخرى .. وأخرى .. وكان أن طردته الفتاة الأولى من بيتها .. وطردته الثانية .. والثالثة .. وهو يعيش عالم السكارى .. حتى طرد أيضا من المقهى الذى يعمل فيه .. ثم طرد مرة أخرى .. أما عن الجامعة .. فلا يهم أن يحصل على المعادلة هذا العام ، وليحصل عليها العام الذى بعده ، أو الذى يلى ذلك .

ويستعرض فى ذهنه السكران مجتمع السويد الذى أصبح يعيش فيه .. إن نسبة الانتحار بين أفراد الشعب السويدى هى أعلى نسبة فى العالم كما تثبت كل الإحصاءات .. لماذا ينتحرون وهم أعلى شعوب العالم رخاء .. ربما لأنهم تطوروا إلى أن أصبحت الحياة بلا مبادىء .. لا شىء

يمكن أن يثير اهتمام الفرد .. كل شيء سهل .. فلا مسئوليات اجتماعية .. بل حتى مسئوليتك عن المرأة التى تعاشرها ..

وقد أصبح الآن أحد أفراد المجتمع السويدى ..

والانتحار هنا سهل ..

حبة صغيرة تبتلعها وتنتهى ..

وانتهى ..

العجوز يشترى السلاح

لو كان قد رآها وهو جالس على مقعده فى أحد مقاهى مدينة جنوة ، لاكتفى بأن أطلق عينيه وراءها ، ولانعكست نظراته على شفتيه ابتسامة ، وانعكست فى قلبه فرحة .. فهى فتاة حلوة ، وهو برغم أنه عجوز فى الثانية والسبعين من عمره إلا أن أحاسيسه لا تزال تقتات الجمال ، بل ربما كان الجمال - جمال أى شىء - هو الفيتامين الذى يعتمد عليه ليبقى مرتبطا بشباب إحساسه .. إن الشباب لا يقاس بسنوات العمر ، ولا بالقدرة على ممارسة الشباب ، ولكنه يقاس بشباب الإحساس ..

ولم يرها .. كان متفرغا لقراءة عشرات الصحف والمجلات التى استطاع أن يحصل عليها هذا الصباح ، وفوجىء بصوتها يقول له بلغة إنجليزية ولهجة ليست إنجليزية :

- هل تسمح ..

ورفع رأسه إليها ، وتعلقت عيناه بوجهها الحلو الهادىء ، وهز رأسه مرحبا وهى تشد مقعدا لتجلس إلى مائدته ، ثم نقل عينيه بسرعة إلى سيدة محترمة لعلها فى حوالى الخامسة والأربعين من عمرها ، جمالها أكثر هدوءا ، تشد مقعدا آخر وتجلس بجانبها .. لا شك أنها أمها .. ولا شك أن الفتاة لم ترث عن الأم مجرد الجمال ، ولكنها ورثت أيضا هذه الشخصية الرزينة الجادة ، والتى تتميز بالقدرة على التعبير عن الرزانة والجدية علنا وبلا كلام ..

وحاول أن يعود إلى قراءة الصحف والمجلات ، فإنه أمر عادى أن يجلس غريب إلى مائدتك عندما يكون المكان مزدحما وليس فيه مائدة خالية .. ولكنه لم يستطع أن يعود ويتفرغ للقراءة كما كان .. عيناه فوق

السطور وعقله مشتت حائر .. هل يبدأ بالكلام معها ، وهو لا شك فى حاجة إلى من يؤنسه فى وحدته ، أو يقوم ويترك لها المائدة ، ويبحث عن مكان آخر بعيد يستطيع أن يتحرر فيه من إغراء المؤانسة ، ويتفرغ للقراءة ..

وفوجىء بعد برهة بصوت الأم يقول له ، وباللغة الإنجليزية :

- هل أنت مصرى ؟

وامتلأت شفتاه بابتسامته وقال بالإنجليزية أيضا :

- نعم .. كيف عرفت ؟

وابتسمت الأم ابتسامة رزينة وقالت باللغة العربية هذه المرة ، وبلهجة ليست مصرية :

- لم يكن هذا صعبا ، إن الصحف والمجلات التى معك كلها مصرية ..

واتسعت ابتسامته أكثر وتعلق فرحا باللغة العربية التى أوحشته ، وقال :

- هذا صحيح .. كان يجب أن أستنتج .. وأنتما .. من سوريا .. أليس كذلك ..

وقالت الأم وابتسامتها الرزينة تضىء وجهها :

- لا .. من الأردن ..

قال ضاحكا :

- لم أخطىء كثيرا فى استنتاجى ..

ثم بسرعة قدم لهما نفسه .. الدكتور سعيد ..

ولمح الأم تنظر إلى ابنتها كأنها تستأذنها ، ثم قالت :

- ابنتى سلوى .. وأنا .. أنا أم سلوى ..

وعرف أنهما وصلتا إلى جنوة ليلة أمس ، وأنهما فى طريقهما بعد يومين إلى روما ، وعرف أيضا أنهما تقيمان معه فى الفندق نفسه ..

وفى بساطة حدثهما عن نفسه .. لقد اعتزل الطب منذ عامين فقط ، ليتفرغ لراحته الصحية والعصبية ، وهو يعيش وحيدا ، أولاده وبناته كل منهم أصبح أسرة ، وقد ترك مصر فى طريقه إلى فيينا بالنمسا للعلاج هناك والراحة ، وكان قد قرر أن يبقى فى ميناء جنوة ليشاهد معالمها ، وسيذهب إلى روما أيضا لأنه لم يزرها من قبل .. ثم سألهما :

– هل شاهدتما مقابر جنوة المشهورة ..

واستجابتا بسرعة إلى دعوته بأن يصحبهما إلى مشاهدة المقابر العالمية .. إن كل مقبرة قطعة من الفن الرائع ، تجعل للموت صورة من أجمل صور الحياة ، وهو يقف أمام كل صورة ، ويطيل النظر ، ويتنهد كأنه يحس بأنه أصبح فى العمر الذى يتطلب منه أن يختار صورة الموت التى تعجبه .. والأم وابنتها من حوله ترعيانه .. وتتمهلان فى خطواتهما مراعاة لخطواته ، حتى عندما ذهبتا معه لتناول طعام الغداء ، كانت الأم ترعاه كأنها مسئولة عنه ، بل إنها أبعدت عنه زجاجة النبيذ عندما هم أن يملأ كأسه الثانية ..

وربما لاحظ أنهما لم تحدثاه أبدا عن حياتهما فى الأردن ، برغم أنهما قضيا معه اليوم كله ، ثم صحباه فى المساء لتناول طعام العشاء فى أحد المحال السياحية بالمدينة .. ولكنه لم يهتم كثيرا بما لاحظه .. لا شك أنهما مجرد سائحتين تقضيان وقتا طيبا فى صحبته ..

وربما لاحظ أن الأم هى التى تتولى أغلب الحديث ، على حين تظل سلوى صامته ، دون أن تضيق بالصمت أو يبدو عليها الملل وهى فى صحبة أمها ورجل عجوز مثله ..

وربما لاحظ أيضا أن الأم قبل أن تجيب على سؤال له يمس حياتها الخاصة تنظر إلى ابنتها كأنها تستأذنها أو تستشيرها ، بل لعله لاحظ أن سلوى قاطعت أمها مرة أو مرتين وتولت عنها الحديث .. لا يهم .. ليس فى كل هذا ما يمكن أن يحتمل أى تفسير ..

إلى أن كان صباح اليوم التالى ..

وانتظرهما فى بهو الفندق كاتفاقه معهما ، وصحبهما فى جولة بين بقية معالم المدينة ثم جلسوا فى مقهى ليستريحوا .. وقالت الأم ، دون أن يبدو عليها أنها تعمدت أن تحدثه عن نفسها :

– إنى أقيم فى الأردن ، ولكنى فلسطينية ..

ونظرت إلى ابنتها سلوى كأنها تستأذنها فى أن تتم الحديث ، وبدأت تروى قصة كل حياتها وحياة سلوى ..

إنها من بلدة رام الله بفلسطين ، وكان لزوجها هناك بيت ومزرعة كروم وبرتقال .. وأنجبت ابنتها سلوى ، وكانت لا تزال فى الخامسة ، عندما خرج الزوج من البيت وعاد مقتولا برصاص اليهود .. ولم تستطع بعد قتله أن تستمر فى الحياة فى رام الله .. لم تكن تخاف على نفسها ولكنها كانت تخاف على ابنتها من بعدها لو حدث وقتلت هى الأخرى .. إن انتظار القتل هناك أشبه بدقات الساعة ، وأى دقة تكون طلقة رصاص قاتلة .. وباعت البيت والمزرعة ، ونزحت هى وابنتها إلى عمان .. إن اليهود يودعون كل من يترك الأرض بزغاريد اليهود وشماتتهم .. يجب أن تخفى هذا الإحساس عن ابنتها .. يجب أن تكبر سلوى وهى لا تعلم أنها فلسطينية ، أو أنها ابنة شهيد ، أو أنها تركت البيت والأرض تحت أقدام اليهود ، يجب أن تبدأ حياة ليس فيها هذا الخوف ، وهذا الضياع ، وهذا الاستجداء .. استجداء وطن غريب ، وأرض غريبة ..

وفى عمان اشتغلت أم سلوى ممرضة .. وسلوى تكبر وتتعلم ، وهى لا يمكن أن تنسى أنها فلسطينية .. إن هذا الأسى ، والحزن الدائم الذى تراه على وجه أمها ، لا تراه على وجوه الأردنيات ، إذن لا يمكن أن تكون أردنية .. وهذا المجتمع الذى تكبر فيه مجتمع قائم بذاته داخل الأردن .. إنه مجتمع فلسطينى وليس أردنيا ، إذن فلا شك أنها فلسطينية .. وكان يجب أن تعترف لها الأم بالقصة كلها .. قصة الشهيد .. وبيتها المهجور .. ومزارع الكروم والبرتقال التى ضاعت ..

ولم تفاجأ سلوى .. كأنها كانت تعرف كل شىء .. كل ما هناك أنها استكملت شخصيتها .. أصبحت أقوى .. وتعودت الصمت وهى لا تزال فى العاشرة من عمرها .

وكبرت سلوى ، وأتمت تعليمها الثانوى ، وأصبحت تعمل مدرسة لتعين أمها ..

ومن خلال صمتها الذى عرفت به ، انضمت إلى فرق المقاومة ..

ليس أحمد هو الذى أغراها بالانضمام إلى المقاومة .. كان حبيبها ، وكانت تعيش المستقبل فى انتظار أن يصبح زوجها ، وكان منضما للمقاومة ، ولكن ليس هو الذى أخذها إلى هناك .. هى التى ذهبت ، كأنها تسير فى الطريق العادى المكتوب على كل فلسطينى وفلسطينية .. طريق استرداد الأرض .. وبدأت تتلقى التدريبات .. ثم بدأت تشترك فى العمليات ، وبدأت تثير الدهشة .. لا يمكن اتهامها بالجنون ، ولا يمكن اتهامها بالتهور ، ولا يمكن اتهامها بإدعاء البطولة للفت النظر أو اكتساب القيادة ، ولكن كل هذا يمكن أن يفسر به اندفاعها وجرأتها فى أثناء الاشتراك فى العمليات .. هذا الصمت والهدوء الذى عرفت به يتحول إلى نار .. إلى جحيم ..

إلى أن خرجت يوما فى عملية اشترك فيها حبيبها أحمد .. وأصيب

أحمد .. لم يقتل ولكنه أصيب إصابة بينها وبين القتل هزة رمش ، وفى هدوء تركت زملاءه يحملونه ويعودون به ، ثم وقفت هى وحدها تحمى ظهره .. حاولوا أن يقنعوها أن تعود معهم .. صرخوا فى وجهها .. يا مجنونة .. إنهم يرون موقعك .. ولكنها رفضت .. ووقفت مع سلاحها وحدها .. واستطاعت أن تحمى ظهر حبيبها .. كانت تغير موقعها بسرعة الطير ، وتطلق النار حتى تجذب إليها اليهود بعيدا عن الطريق الذى يسير فيه حبيبها الجريح .. ثم تعود وتغير موقعها مرة ثانية قبل أن يستطيع اليهود أن يصلوا إليها وزملاؤها فى انتظارها .. وغابت .. واعتقدوا أنها انتهت ، قتلت وهى تحمى ظهر حبيبها ..

وكان اليوم قد انتهى عندما رأوها بينهم فى عمان .. صامتة ، هادئة ، كعادتها لا تحكى شيئا ، فقط ترابط بجانب حبيبها لتراعى حياته ، وكأن كل ما حدث أنها غيرت موقعها ..

وقد استرد أحمد عمره ، وإن كان قد كتب عليه أن يعيش بساق واحدة ، وهى معه فى انتظار يوم زواجهما ، وتلح فى الاشتراك فى كل عملية ، وقد اشتد اندفاعها وجرأتها ، كأنها فى كل عملية تبحث عن ساق حبيبها التى فقدت ..

وخشى عليها القادة من اندفاعها وجرأتها ، فقرروا أن يعهدوا إليها بمهمة تبعدها عن أرض المعركة ..

إنها مهمة لا تستطيع أن ترفضها لأنها مهمة أساسية ..

وهى مهمة تتطلب سفرها إلى الخارج ..

وهى الآن فى ميناء جنوة لتنفيذ هذه المهمة .

واستمع الدكتور سعيد إلى القصة ، ومع كل كلمة تزداد دهشته وحيرته .. لم يكن يتصور أن كل هذا الجمال وكل هذا الهدوء والاتزان ،

يضم من تحته معركة .. ربما لو كان قد عرف أمس أن سلوى وأمها من فلسطين لاستطاع أن ينتظر مثل هذه القصة .. فإن اسم فلسطين يثير دائما صور المعارك .. ولكنه فوجيء اليوم باسم فلسطين .. ثم فوجيء بأن سلوى تستطيع أن تفعل كل هذا ..

ولم يسأل عن المهمة التى كلفت بها سلوى .. لعلها سر .. ولكنه بدأ يحس بإحساس جديد ، كأنه أصبح مسئولا عن عملية خطيرة .. كأنه عاد برغم أنفه إلى مزاولة مهنته كطبيب بعد أن نسى علوم الطب .. وبدأ يفسر النظرات التى كانت تتبادلها الأم مع ابنتها تفسيرا جديدا .. ويفسر صمت سلوى تفسيرا آخر .. إن سلوى أصبحت فى نظره هى القائدة ، وأمها هى التى تتلقى أوامر القيادة ..

وهو ؟!

إن كل ما أصبح يحس به هو أنه وهو فى الثانية والسبعين من عمره ، أصبح مسئولا عن سيدة وابنتها لا يستطيع أن يتركهما وحدهما مهما كانت مهمتهما .. بل لقد أصبح مسئولا أيضا عن المقاومة الفلسطينية .. واندفعت دماؤه فى عروقه كأنها ترد له شبابه .. ونظر إلى سلوى وأمها ، وأحس كأنه يرى نوعا جديدا من الجمال لم يكن قد رآه من قبل ..

وبعد أن انتهت الأم من رواية قصتها مباشرة ، تعمدت سلوى أن تغير موضوع الحديث .. سألت فى براءة هل من الأرخص أن تشترى الأقمشة من جنوة أو تنتظر لتشترى من روما ..

وابتسم الدكتور العجوز .. لقد أصبح يفهمها .. إن كل ما تريده هو قفل باب موضوع المقاومة .. حاضر !!

وفى المساء صحب الأم وابنتها إلى مكتب قطارات السكك الحديدية لحجز مقاعد فى القطار الذى يغادر جنوة إلى روما فى صباح اليوم التالى ..

وعادوا وتناولوا معا طعام العشاء ، ثم ذهب إلى غرفته ، وسلوى وأمها إلى غرفتهما ..

ورقد فى فراشه يقرأ كعادته قبل النوم .. ومرت حوالى ساعة ، وأطفأ النور ، وهم أن يستسلم للنوم ، عندما سمع باب غرفته يطرق برفق .. وانتفض من الدهشة ، وعاد وأضاء النور ، وتردد برهة كأن القصة التى سمعها تفرض عليه التردد والحذر ، وتعرضه لأحداث جديدة لا يدريها .. ولكن الطرقات الرقيقة تتكرر ، كأن الطارق يصر على إيقاظه من النوم لو كان نائما ، أو لو كان يدعى النوم .. وقام إلى الباب معتمدا على الله .. وفتح ..

إنها أم سلوى ..

وهى تحمل فى يدها حقيبة سلوى التى كانت تحملها دائما منذ التقى بهما .. حقيبة كبيرة نسبيا ، لم يلفت حجمها نظره لأنه اعتبرها حقيبة تصلح للتجول فى الرحلات السياحية ..

ودخلت أم سلوى – وأغلقت الباب وراءها ، وقالت :

– آسفة .. أزعجتك .. ولكن سلوى لاحظت أنه كان هناك من يتبعنا ونحن فى مكتب السكك الحديدية ، وهى تخشى على ما فى هذه الحقيبة ، وترجوك أن تحتفظ بها معك لو سمحت وقبلت ..

قال وهو غارق فى الدهشة :

– بكل سرور .. هذا أقل ما أستطيعه .. وفتحت أم سلوى الحقيبة وأخرجت منها مظروفين مغلقين ، ومسدس .. وقالت :

– هذا هو كل شىء ..

قال وهو يتلقى المظروفين فى يده :

– هل يجب أن أخفى المسدس أيضا ..

وقالت الأم :

- سلوى ترى ذلك ..

وأخذ المسدس أيضا ..

ونظرت إليه الأم فى امتنان كبير ، ثم قالت :

- سلوى تقول إنه لو حدث أى شىء لنا قبل أن نلتقى غدا صباحا ، فإنك تستطيع أن تفتح أحد هذين المظروفين وتعرف كل شىء ..

وهمس من خلال دهشته :

- تصبحين على خير ..

وخرجت الأم فى هدوء وهى تكرر شكرها واعتذارها ، ووقف حائرا وفى يديه المظروفان والمسدس ، ثم وضع المظروفين فى أحد أدراج الغرفة ، ووضع المسدس تحت وسادته .. ورقد وهو يفكر فى قلق .. ربما لم تكن سلوى قد رأت أحدا يتبعهما كما تدعى ، إنما أرادت أن تخفى المظروفين لديه ، لأنه بعيد عن الشبهات .. إنه ليس فلسطينيا .. وهو عجوز تعدى السبعين .. وليس فى ماضيه كله أى اشتراك فى عملية مقاومة ، ولا حتى فى أى تحرك سياسى .. وهذا المسدس .. ربما أرادت سلوى أن تعطيه إياه حتى يدافع به عن نفسه إذا حدث له ما يستدعى الدفاع ، وربما كانت تحتفظ لنفسها بمسدس آخر ، ومن يدرى ، ربما كانت أمها أيضا تحمل مسدسا ..

وابتسم بينه وبين نفسه .. إنه منذ ولدته أمه وحتى اليوم لم يمسك بيده مسدسا ، ولا حتى بندقية من البنادق التى يلعب بها الأطفال ..

من كان يظن أنه بعد كل هذا العمر يمكن أن يشترك فى مثل هذه العمليات ..

واتسعت ابتسامته ..

ونام فى راحة دون أن ينتابه أرق ، وهو ما دهش له عندما استيقظ فى الصباح التالى ..

• •

ووقف ينتظرهما فى بهو الفندق ، وجاءت إليه سلوى وعلى شفتيها ابتسامة خفر وحياء ، وصافحته فى أدب رقيق كأنها تصافح أباها ، وأمها معها تبدأ بسؤاله عن صحته وهل نام نوما مريحا ، دون أن تسأله إحداهما عن الأمانة التى يحملها لهما .. وكان قد وضع المظروفين فى جيب معطفه ، واحتار أين يحمل المسدس ، وخطر له أن يتركه داخل حقيبته .. ولكن من يدرى .. ربما تحتاج إليه سلوى خلال الرحلة .. فوضعه فى جيب بنطلونه الخلفى .. هكذا كان قد رأى فى أحد أفلام السينما .

وظل صامتا .. وتوجه إلى خزانة الفندق وهم أن يدفع لهما حساب إقامتهما ، ولكن أم سلوى أصرت على الرفض ، وعندما ألح ، همست فى أذنه :

- إن سلوى ترى أن هذا ليس فى صالحنا ..

وأطاع بسرعة كأنه تلقى أمرا من القيادة العليا ، وترك أم سلوى تدفع ..

ولم تتكلم سلوى إلا وهم فى القطار المتجه بهم إلى روما ، قالت بصوتها الرقيق الهادىء وابتسامتها تعطر كلماتها :

- آسفة لأنى أتعبك وأحملك مسئوليات لا دخل لك بها ..

قال وهو ينظر إليها فى حنان كأنها ابنته وكأنه يشفق عليها :

- يشرفنى أن يكون لى دخل بها ..

واستطرد ضاحكا :

- لقد أعدت لى شبابى ..

قالت فى خفر :

– من حقك الآن أن تعلم كل شىء .. إنى مكلفة بالاتصال فى روما بالوسيط المكلف بإرسال السلاح إلينا .. وبعد ذلك سأكون فى باريس للاتصال بوسيط آخر مكلف بالمهمة نفسها ، والمظروفان اللذان تفضلت بحملهما لنا ، أحدهما خاص بالتعليمات الموجهة إلى وسيط روما ، والمظروف الثانى خاص بوسيط باريس ..

قال مبتسما :

– والمسدس ؟

قالت :

– إنه لحمايتك وحمايتنا ..

قال :

– ولكنى لم أحمل سلاحا أبدا ، أخشى ألا أجيد استعماله ..

قالت :

– مجرد حمله حماية ، ولا أعتقد أنك ستضطر لاستعماله .. وقد اختارنى الأصدقاء لهذه المهمة لأن عملاء إسرائيل لا يمكن أن يشكوا فى أننى مكلفة بها .. ولكننى معروفة وقد يتبعوننى ، ويجب أن نقدر كل الاحتمالات ..

وسكت موافقا ، وسرح قليلا وهو يلوم المقاومة الفلسطينية لأنها تكلف مثل هذه الفتاة الرقيقة بهذه المهمة .. لماذا لا يحتفظون بها للخدمة فى الميدان ، ويكلفون العجائز مثله بهذه المسئوليات الإدارية .. وفكر أن يطلب منها أن تعود إلى بلدها وتكلفه بأن يقوم وحده بمهمة الاتصال بوسطاء السلاح .. ولكنها قطعا سترفض .. وفجأة قال لها :

– متى تسافرين إلى باريس ..

قالت :

– بعد أن انتهى من مهمة روما مباشرة ..

قال :

– سأسافر معكما ، لقد تذكرت الآن أن لى صديقا هناك يجب أن أراه ، ثم إنه مضت سنوات لم أر باريس وأريد أن أتمتع باسترداد ذكرياتى فيها ..

وقالت :

– لا .. لا تكلف خاطرك .. لم تكن باريس فى طريقك ..

قال :

– سأذهب .. وأرجو أن تسمحى لى بأن أذهب معك أنت ووالدتك بدلا من أن أذهب وحدى ..

ونظرت الأم إلى ابنتها كأنها تتلقى منها الأوامر ، ثم قالت :

– لا يمكن أن نسمح لك بأن تذهب وحدك بلا رعاية .. أنا مسئولة عن صحتك ..

قال :

– شكرا .. ولو أنى أحس بأنى فى منتهى الصحة كأنى فى شبابى .. وسأذهب غدا إلى السفارة الفرنسية فى روما لأحصل على تأشيرة ..

وسكتت سلوى طويلا ، تركته يتبادل الحديث مع أمها ، ثم قالت فى هدوء :

– هل ستذهب فعلا إلى السفارة الفرنسية غدا ..

قال :

– إلا إذا كان هناك ما هو أهم ..

قالت :

– غدا فى العاشرة صباحا .. السفارة الفرنسية .. هذا هو أهم شىء .. ونظر إليها فى دهشة دون أن يفهم شيئا ..

ووصلوا إلى روما ، وذهبوا إلى الفندق الذى كان قد حجز فيه وهو فى جنوة .. فندق متواضع بعيد عن الشوارع الرئيسية وعن مناطق ازدحام السواح كما كانت سلوى قد أوصته .. وعندما جلس ينتظرهما فى قاعة الطعام لتناول العشاء ، جاءت الأم وحدها ، وسأل :

– أين سلوى ؟

وقالت الأم مبتسمة :

– لعلها مشغولة ..

ولم تزد .. وتناول العشاء مع الأم وخياله يبحث عن سلوى .. أين هى ..؟ لعلها لن تعود .. لعلها تعرضت لاعتداء .. ولم يهدأ إلا بعد أن رأى سلوى قادمة وبين شفتيها ابتسامتها الهادئة .. ولم تحك شيئا .. لم تعتذر حتى عن تأخرها .. وأخذوا يتحدثون عن روما ، إلى أن قالت له الأم :

– هذا يكفى يا دكتور .. لقد تعبت اليوم كثيرا ، والساعة الآن التاسعة .. يجب أن تنام .. لا تنس أنى ممرضة محترفة ..

وقام ضاحكا والأم وابنتها تمسك كل منهما بذراع وتصحبانه إلى غرفته ..

ونام ..

وفى الساعة السابعة صباحا ، بدأ الطرق الخفيف على بابه .. وفتح .. إنها سلوى ، وهى لا تزال فى ثياب النوم .. واعتذرت لإقلاقه ثم أرقدته على فراشه كأنها ابنة حنون ، وجلست على حافة الفراش تعرض عليه الخطة كاملة .. وصوتها برغم رقته لا يخلو من لهجة القيادة ..

إنه سيذهب فى الساعة العاشرة إلى السفارة الفرنسية وحده ، وسيراها

جالسة فى غرفة الانتظار بجانب رجل يبدو غريبا عنها لا تحادثه ولا تنظر إليه .. وعليه هو أن يتجه مباشرة إلى مكاتب السفارة الخاصة بإجراءات الحصول على تأشيرة ، وبعد ذلك يراقبها من بعيد فإذا رآها قد قامت من مكانها ، فعليه أن يتجه ويجلس فى المكان نفسه ، بجانب الرجل نفسه ، ثم يخرج من جيبه علبة سجائره المصرية التى تعودت أن تراها معه ، وسيمد الرجل يده ويأخذ سيجارة .. وفى هذه الحالة يبقى بجانبه قليلا ، ثم يقوم وينصرف بعد أن يترك جريدة يحملها فى يده منذ يصل إلى السفارة ، وبين صفحات الجريدة سيكون أحد المظروفين ..

وقالت سلوى :

– أين المظروفان ..

قال وهو يسترجع الخطة فى رأسه :

– فى جيب المعطف ..

وقامت سلوى وأخرجت المظروفين من جيب المعطف ، ونظرت فيهما ، ثم أعطته واحدا ، وقالت مبتسمة فى هدوء :

– هذا هو الذى ستحمله معك بين صفحات الجريدة .. أتركك الآن حتى تدخل الحمام ..

وخرجت دون أن تنتظر أن تسمع رأيه فى خطتها .. ولم يكن له رأى .. إنه فقط يداوم استرجاع الخطة فى خياله ..

وخرج من الفندق وحده وهو يحمل فى يده الجريدة وفى داخلها المظروف .. ولم يكن يحس باستعادة شبابه كما كان يحس بالأمس ، ولكنه يحس كأنه أوقع نفسه فى مصيبة ، والمصيبة تزيده إحساسا بعجزه .. ليس معقولا أن يعرض نفسه وهو فى هذه السن إلى مثل هذه المغامرات حتى ولو كانت مغامرات وطنية .. ولكن ليطمئن .. إن سلوى لم تختره لهذه المهمة إلا لأن السبعين عاما التى يحملها على كتفيه تحميه من أى شبهة ..

وبرغم ذلك .. لم ينس المسدس .. وضعه فى جيب بنطلونه الخلفى كما علمته الأفلام الأمريكية .. وهو يعلم أنه لن يمد يده إليه أبدا ..

ودخل السفارة .. ورآها من بعيد .. ورأى بجانبها رجلا .. إنه لا يبدو عربيا ولا حتى إيطاليا .. وتقدم إلى مكتب التأشيرات وقدم أوراقه ، ودفع رسوم التأشيرة ، وكان عليه أن ينتظر إلى أن تنتهى الأوراق ، فينادونه ليستردها .. وتحرك من أمام المكتب متجها إلى غرفة الانتظار .. ورأى سلوى تقوم من جلستها ، وتختفى من أمامه ، وتحرك بسرعة وجلس مكانها ، وأخرج علبة سجائره المصرية ، وفتحها ومد الرجل يده والتقط سيجارة ، وتمتم بكلمة لابد أنها كلمة شكر .. ولكنه لم يسمعها .. ولم يستطع أن يكتشف إذا كانت كلمة إيطالية أو ألمانية ، أو أسبانية ..

وبقى صامتا مدة طويلة إلى أن سمع اسمه ينادون به ليتقدم إلى المكتب ويأخذ أوراقه .. فترك الجريدة التى كان يحملها ، وقام وأخذ أوراقه وانصرف دون أن ينظر خلفه ..

وعاد إلى الفندق ..

ووجد أم سلوى وحدها فى البهو ، وجلس بجانبها ، ولم تحاول أن تسأله عن شىء كأنها لا تعرف شيئا عما تم .. وبعد أكثر من ساعة ، رأى سلوى من بعيد تدخل من باب الفندق ، وجاءت إليهما ونظرت إليه صامتة وقد خيل إليه أن ابتسامتها قد اتسعت ، ثم لمح يدها وهى تحرك أصبعيها فى الخفاء علامة النصر ، كأنها تطمئنه إلى أن العملية قد نجحت ..

وصعدوا بعد الغداء ليستريحوا ، وكانت غرفتهما تسبق غرفته ، وانتظر واقفا إلى أن فتحت الأم الباب ، وإذا بها تشهق :

- إن الغرفة كلها مقلوبة ..

قال وعيناه ترتعشان من ثقل عمره العجوز :

- لنبلغ البوليس ..

وقالت سلوى بحدة :

- لا .. إن إبلاغ البوليس معناه أن أكشف عن نفسى وأجمع العالم من حولنا ..

قال فى تردد :

- على الأقل نبلغ إدارة الفندق ..

قالت :

- لا .. أيضا .. اذهب إلى غرفتك .. واجمع حقائبك .. لا أدرى متى نستطيع أن نتحرك إلى باريس .. ربما الليلة .. ربما غدا .. لا تتصل بنا إلا إذا اتصلنا بك ..

وذهب إلى غرفته وهو أكثر حيرة .. إنه حائر مع نفسه ، لا يدرى هل يستمر فى مغامرته المجنونة ، أو يكفى ما حدث ، ويبتعد فى أمان قبل أن تلحقه مصيبة .. وهو فى حيرته يحس كأنه عاد طالبا فى كلية الطب يتلقى الدروس من الأستاذة سلوى التى لا يتجاوز عمرها الخامسة والعشرين .. ثم يعود يحس أنه مرمط عمره السبعين وتاريخه الطبى العلمى بالانقياد إلى فتاة مجنونة .. ثم يبتسم عندما تخطر على خياله أم سلوى .. إنه يستريح إليها فعلا كممرضة .. ربما لو كان أقل عمرا لاحتاج إليها كأكثر من ممرضة .. إنها تريحه وتطمئنه لا كمريض فحسب ، بل كرجل مغامرات ..

وفى الساعة السابعة مساء دق جرس التليفون فى غرفته ..

إنها أم سلوى .. وهى تتحدث من خارج الفندق .. وتتحدث وهى تضحك كأنها تغازله .. إنها فى انتظاره فى مقهى مطار روما فى الساعة العاشرة مساء .. وقالت وضحكتها تزداد ميوعة كأنها تتعمد التنكر فى شخصية أخرى :

- ستأتى وحدك هذه المرة ..

ثم أنهت المكالمة بسرعة ..

ولم يحاول أن يخرج من غرفته إلا عندما حان موعد ذهابه إلى المطار ..

إنه خائف ..

وبلغ من خوفه أنه لم يحمل المسدس معه . إنه مقتنع بأنه أكثر أمانا بلا مسدس ، حتى إذا أمسكوا به لم يجدوا ما يثبت عليه مغامرته ..

وفى المطار التقى بأم سلوى وحدها ، وعرف منها أن سلوى استطاعت أن تجرى اتصالات للحصول على تذاكر طائرة متجهة إلى باريس ، وأنها – أى الأم – ذهبت وحدها وحصلت على التذاكر فعلا .. وأين سلوى .. لا تدرى ولكنها ستكون معهما ..

ولم ير سلوى إلا داخل الطائرة ..

وطاروا إلى باريس ..

وفى باريس عاش مستندا على الأم وابنتها ، وينفذ التعليمات التى تضعها سلوى .. وكانت التعليمات تقضى بأن يقيموا فى فندق متواضع بالحى اللاتينى ، ويدعى بأنها ابنة صديقه وأنه جاء بها ومعها أمها لإلحاقها بالجامعة لدراسة الطب .

ومضى يومان وسلوى دائما معهما ، لا تختفى إلا دقائق ، ثم تعود دون أن تقول أين كانت أو ماذا كانت تفعل حتى لو كان كل ما تفعله هو أن تتحدث فى التليفون .. إلى أن قال لهما فى اليوم الثالث :

– لقد تحدثت مع صديقى فى التليفون ووعدته أن أزوره غدا ..

وقالت سلوى باهتمام :

– أين يقيم ..

قال :

– فى الضواحى .. على بعد مائتى كيلو من باريس .. إنه طبيب مشهور وله مستشفى كبير هناك ..

قالت :

– هل هو فرنسى ..

قال :

– تقريبا .. إن أمه فرنسية ، وأباه مصرى ، وقد عرفته منذ كنا طلبة فى المدارس الابتدائية ، ثم مات أبوه وجاء مع أمه إلى فرنسا ، وأكمل تعليمه هنا وأصبح فرنسيا وناجحا .. إنه عبقرى ..

وقامت سلوى بسرعة واختفت ..

ولم تعد إلا فى الليل .. وطرقت باب غرفته هذه الطرقات الرقيقة التى يعرفها جيدا .. ودخلت وجلست على حافة فراشه تعرض عليه الخطة الجديدة .. إنه يثق فى صديقه الدكتور الفرنسى .. أليس كذلك .. إذن سيذهبان معه ، ومعهما المظروف الثانى ، ويقول ، لصديقه الدكتور إنه كان مفروضا أن يعود إلى باريس ، ولكنه قرر خلال الطريق أن يصحب البنت وأمها لقضاء يومين للراحة والسياحة فى وادى « اللوار » القريب من المستشفى ، وأنه كان عليه أن يسلم رسالة هامة إلى مندوب لشركة أدوية ، فاتصل به بالتليفون وهو فى الطريق وطلب منه أن يأتى إلى المستشفى ، ويتسلم الرسالة من مكتب صديقه الدكتور ..

وقال الدكتور سعيد :

– ولكن صديقى قد يرفض ..

وقالت سلوى فى هدوئها الحلو :

– لن يرفض .. على الأقل نحاول ..

وقال :

– قد يفتح المظروف أو يفتحه أحد من معاونيه ..

قالت :

– لن يحدث .. وإذا فتحه فلن يفهم منه شيئا ..

وبدأوا فى اليوم الثانى تنفيذ الخطة ..

وطبقا لتعليمات سلوى ذهبوا أولا إلى ميدان الأوبرا ، وهناك وجدوا سيارة فى انتظارهم يقودها سائق شاب ، اعتقد الدكتور سعيد أنه فرنسى ، ولكنه فى الطريق اكتشف أنه أسبانى .. وخرجت بهم السيارة من باريس ، وبدأت تجرى فى طريق الضواحى .. والشجر .. والزهور .. والقمم البعيدة .. تحيطه بجمال الدنيا كلها ، كأن الله يزفه إلى أجمل ما خلقه .. وهو جالس فى المقعد الخلفى مستندا بكل جسمه على الأم الرحيمة .. أم سلوى ..

ولكن هناك سيارة تتبعهم ..

وبدأ السائق يلف فى هذه الناحية .. ثم فى الناحية الأخرى .. ويدخل هذا المنحنى .. ثم منحنى آخر .. والسيارة تتبعهم .. وسلوى بجانب السائق تتحدث إليه بفرنسية ركيكة .. ثم تحركت من جلستها وألقت نفسها فى المقعد الخلفى ، وقالت للدكتور سعيد بلهجة آمرة :

– أين المسدس ..

وهم أن يسألها لماذا تريد المسدس ، ولكنه سكت ومد يده إلى جيبه الخلفى وشد المسدس بأطراف أصابعه وأعطاه إياها ..

وأمرت سلوى السائق بأن يهدىء من سرعته .. والسيارة الأخرى تتبعهم ، وهدأت هى الأخرى من سرعتها .. وسلوى تنظر فى المرآة المعلقة أمام سائق سيارتها ، ثم فجأة فتحت زجاج الشباك الذى يجاورها برغم البرد ، وقامت وانحنت خارج الشباك وفى يدها المسدس وأطلقت

أربع رصاصات على السيارة الأخرى ، فتوقفت بعد أن اهتزت اهتزازات عنيفة ..

لقد ضربت سلوى إطارات السيارة الأخرى ، فتوقفت ، وخرج منها اثنان يلعنان ، ويشوحان بذراعيهما وفى يد كل منهما مسدس يطلقانه فى الهواء ..

وعادت سلوى إلى مقعدها الأمامى ، وهى تطلب من السائق أن يسرع ، وكانت السيارة قد تعمدت أن تخرج عن الطريق الذى يؤدى إلى المستشفى البعيد ، فعادت إليه ..

والدكتور سعيد مبهور ، صامت ، يقاوم أن تقضى عليه المفاجأة .. إنها أول مرة يعيش فيها معركة .. ويسمع بأذنيه ويرى بعينيه طلقات رصاص .. وأم سلوى بجانبه تكاد تحتضنه بذراعيها كأنه طفلها لتحميه من الانبهار ، وتحميه من الخوف .. وهو ينظر إلى سلوى كأنه لا يصدق أن هذه الفتاة الهادئة تستطيع ، أن تطلق النار ، وتطلقها لتصيب ..

ووصلوا إلى المستشفى ، ونفذت الخطة كاملة كما وضعتها سلوى .. وخرجوا بعد أن تركوا المظروف مع الطبيب الصديق ، وانطلقوا إلى قرى وادى نهر اللوار .. أجمل ما يمكن أن تمنحه فرنسا لزوارها .. عالم كأن كل ما فيه أنغام وألحان .. النهر موسيقى .. والأشجار موسيقى .. والأرض موسيقى .. والناس موسيقى .. وهم يبيتون كل ليلة فى قرية .. والدكتور سعيد يحس كأن العالم كله قد اجتمع ليدلله ويرعاه وليست أم سلوى وحدها ..

واطمأنت سلوى بالتليفون إلى أن المظروف قد سلم إلى الوسيط .

وبعد ثلاثة أيام قالت له بعد أن عادت من غيبة قصيرة :

– لقد شحنت الأسلحة فعلا ..

قـال :

- شحنت إلى أين ؟

قالت :

- شحنت إلينا ولا تسألنى عن التفاصيل .

* *

وانتهت المهمة ، وتقرر أن تعود سلوى وأمها إلى الأردن ، وقد قررت ألا تمر فى عودتها بباريس بل تتجه فى طريق مباشر إلى مرسيليا لتستقل الباخرة هى وأمها من هناك ..

وصمم الدكتور سعيد أن يذهب معهما إلى مرسيليا .. وجادلته سلوى طويلا .. إنه ذاهب إلى فيينا ليتم علاجه .. وهذا طريق آخر .. ولكنه مصمم .. لن يطمئن ويهدأ إلا إذا أوصلهما حتى داخل الباخرة ..

وفى مرسيليا قضيا يومين .. ثم لم يعد باقيا على تحرك الباخرة إلا بضع ساعات .. وصحب الدكتور سعيد سلوى وأمها ليطوفا بالأسواق قبل التوجه إلى الميناء .. وخرجا من الفندق سيرا على الأقدام .. واجتازا شارعا ، وشارعا آخر .. ثم فجأة انطلقت رصاصة ..

وأصابت الرصاصة الدكتور سعيد ..

وسقط على الأرض ..

ولم يدر شيئا .. وعندما بدأ يحس وجد الناس ملتفين حوله .. ووجد نفسه على الأرض بين ذراعى أم سلوى .. وجاءت سيارة الإسعاف ونقلوه إلى المستشفى .. بسيطة .. إنها رصاصة واحدة أصابته فى كتفه ..

وأم سلوى بجانبه ..

ولكن أين سلوى ..

اختفت ..

وعرف فيما بعد أنها استطاعت أن تختفى بمجرد طلقة الرصاصة الأولى ، كما استطاعت أن تختبىء داخل الباخرة التى كانت قد حجزت عليها لتنقلها إلى بيروت .. لقد كانت هى المقصودة بهذه الرصاصة ، وتلقاها فى كتفه نيابة عنها .. وابتسم .. إن هذا هو نصيب مصر دائما .. أن تتلقى الرصاص نيابة عن أصدقائها .. والبوليس يسأله وهو يدعى أنه لا يعرف شيئا ..

- هل تشك فى أحد ..
- لا ..
- هل تعرف أحدا ..
- لا ..
- أين الفتاة التى كنت تعرفها فى الفندق ..
- لا أدرى . التقيت بها صدفة ، ولا أعرف من هى ..
- ولكن أمها معك ..
- أمها ممرضة وقد تطوعت بإسعافى وسأعوضها خيرا ..

وبقيت أم سلوى معه طوال مدة إقامته فى مستشفى مرسيليا .. وقد خرج سليما يلف كتفه بضمادات .. ثم صممت على أن تسافر معه إلى فيينا لترعاه فى علاجه .. إن ابنتها شابة تستطيع أن تعتمد على نفسها ، وهى مطمئنة عليها ، ولكنه هو فى حاجة إليها أكثر .. وحاول كثيرا أن يعفيها من تحمل ثقله .. ولكنها تصر .. وهو سعيد بإصرارها .. إنها كل ما بقى له من راحة .. وسعادة .. وحلاوة عمر الثانية والسبعين .

وفى فيينا عاش مع أم سلوى أهدأ وأسعد وأجمل ما يمكن أن يعطيه الله عجوزا .. ولم تتركه إلا بعد أن عادت به إلى القاهرة واطمأنت عليه

بين أولاده وبناته وأحفاده .. وهو يردد اسمها كأنه يردد اسم ملاك .. خالدة .. خالدة .. خالدة ..

* *

و ...

هذه القصة ليست كلها خيالا ، إنها من وحى ذكريات صديق عجوز لا يريدنى أن أشير إليه إلا باسم « الصيدلى العجوز » وشكرا لأنه خصنى بأوراقه .

جريمة ولاعة السجائر

ربما كان أشد ما يعانيه كاتب القصة هو ما ينتهى إليه فكره وإحساسه من الحيرة بين الواقع والخيال ، فهو يعيش الخيال إلى أن يتجسم هذا الخيال فى إحساسه كأنه واقع ، ويعيش الواقع إلى حد أن يطفو به هذا الواقع إلى مجالات من الخيال .. ويصبح حائرا فى كل ما يدور فى فكره من صور وأحداث .. هل واقع أم خيال .. وقد يقرر أن كل ما يدور فى فكره هو مجرد خيال . ثم إذا به يصدم بأنه واقع ، وقد يقرر أنه واقع وإذا به يصدم بأنه خيال .

وهذا هو ما يؤثر فى إحساس الكاتب وتقديره لكل الشخصيات التى تعترض حياته ، ويؤثر فى حكمه عليها ، وفى الصور التى يرسمها لهذه الشخصيات .

وقد عرفت شهيرة منذ كانت فى عمر الصبا .. فتاة من الطبقة الغنية الأرستقراطية التى لم تستطع كل ثورات العالم العربى أن تؤثر فى ثرائها وأرستقراطيتها .. طبقة رجال الأعمال .. ولم تكن شهيرة وحدها هى التى عرفتها من بنات هذه الطبقة .. عرفت الكثيرات .. وكل منهن كانت بالنسبة لى وحيا أو إلهاما لقصة .. وكانت كلها قصصا تصور مجتمعا واحدا ، وربما مشكلة واحدة ، وإن اختلفت أحداثها .. وكنت أنتهى من كتابة قصة وأنا مقتنع بأنى صورت بها خيالى ، فإذا بى اكتشف أنى كنت أقرب إلى محقق صحفى يسجل الواقع .. وفى كل قصة كانت هناك دائما لمحة أو بارقة من شخصية شهيرة ، لشدة ما كنت متأثرا بها فى نظرتى إلى هذه الطبقة وهذا المجتمع .. وشهيرة كانت تبدو فى تقديرى كأنها غريبة عن هذا المجتمع ، برغم احتفاظها بكل مظاهره .. مظاهر الثراء ، ومظاهر

النشاط الاجتماعى الذى يتركز فى التردد على الحفلات .. حفلات عشاء ، وحفلات غداء ، وأحيانا حفلات إفطار .. وحفلات شاى وحفلات كوكتيل .. وحفلات مفتوحة وحفلات مغلقة .. وحفلات راقصة وحفلات بريدج .. و .. و .. وكلها فى الواقع اجتماعات عمل .. وابتسامات النساء فيها ليست أكثر أثرا من آلات تكييف الهواء التى توضع فى المكتب لإحاطة العمل بالجو المريح .. والموسيقى ليست سوى ضجيج يخفى أحاديث العمل حتى لا يسمعها الغريب .. والبريق .. بريق الأضواء وبريق المجوهرات التى تتحلى بها النساء ، ليست سوى كشافات النور التى تستعمل فى المعارك لفضح تحركات العدو .. وكلهم فى هذه الحفلات – رجال ونساء – أعداء .

وشهيرة تبدو كأنها صورة شاذة وسط هذه اللوحة التى يرسمها هذا المجتمع .. إنها بسيطة .. منطلقة بلا افتعال .. ووجهها يعبر عن كل أحاسيسها بلا نفاق .. وقد تبدو قرفانة ترتسم بين جبينها نظرات الاحتقار وهى تحادث شخصية رئيسية هامة من شخصيات هذا المجتمع .. وقد تبدو مقبلة فى اهتمام كبير وهى تتحدث إلى شخصية عادية يعتبرها هذا المجتمع شخصية دخيلة عليه لا يستحق الاهتمام ولا الاحترام ، وهى تبدو فى مزاجها الخاص ، وفى اتجاهات هواياتها كأنها فتاة عادية من فتيات الطبقة الوسطى .. فهى تقرأ للكتاب العرب دون ادعاء بأنها لا تجيد إلا قراءة الفرنسية أو الإنجليزية .. وتتحمس لما تقرؤه ولا تتعمد الارتفاع عن مستوى الطبقة الشعبية كما تفعل بنات طبقتها .. وتجاهر بأنها تتأثر بالرقص البلدى أكثر من تأثرها برقص الباليه ، بل تعلن صراحة أنها لا تطيق رقص الباليه برغم أن أهلها فرضوه عليها وتدربت عليه كما تقضى تقاليد هذا المجتمع .. وتجمع كل اسطوانات وتسجيلات أم كلثوم وفيروز وعبد الوهاب وعبد الحليم وكل المطربين والمطربات وتملأ بأصواتهم وموسيقاهم كل يومها ، دون أن تحرض على النفاق الاجتماعى الذى يفرض

عليها الادعاء بأنها معجبة ومتعلقة بالمطربة سلفى فاردان ، أو داليدا ، أو المطرب جونى هوليداى وساشار يستل .

وكل نساء هذا المجتمع يعتبرونها مسكينة .. بلدى .. ولكنهن يحببنها لأنها تريحهن وهن معها من مسئولية النفاق والمظاهر الاجتماعية ، ومشقة اختيار الكلمة والنظرة والابتسامة .. وفى الوقت نفسه يخفنها لأنها لا تسكت .. تقول كل ما تعرفه عن كل منهن وتقول كل ما يخطر على بالها .. فى بساطة ..

وربما كان من بين العوامل التى تشكل وترسم شخصية شهيرة أنها ولدت غنية .. أبوها رجل أعمال ناجح واسع الثراء ، وجدها كان أيضا رجل أعمال ناجحا واسع الثراء .. فلم يكن الغنى والنجاح هما شيئا جديدا بالنسبة لها تسعى إليه وتحرص عليه ، ويكلفها ما تكلفه مجتمعات رجال الأعمال من مظاهر مغشوشة وتقاليد النفاق . كل ما كانت تريده بحريتها هو أن تخرج من هذا المجتمع الضيق ، إلى المجتمع الأوسع المفتوح الذى يضم كل الطبقات العادية البسيطة .. وعاشت هذا المجتمع الواسع بهواياتها ، وذوقها ، ومنطقها ، وأصدقائها وصديقاتها .. وربما خرجت إليه أيضا بخيالها . فقد أصبح خيالها رقيقا ، هفهافا ، يعيش فى صور حب عاطفى ، كالصور التى ترسمها القصص الرومانتيكية القديمة .. حب لا علاقة له بالجسد ولا بمطالب الحياة ، ويرتفع بالإنسان إلى مستوى الاكتفاء بخياله ..

وكان قد تقدم إليها كثيرون يطلبون الزواج ، وكلهم من أبناء المجتمع نفسه .. أبناء رجال الأعمال ، وأبناء كبار الموظفين الذين يرتشون من رجال الأعمال .. وكانت تستقبل كل طلب كأنه مشروع عمل .. مشروع صفقة تجارية .. فبرغم ثقتها فى جمالها ، وفى فتنة شخصيتها التى تجذب أى رجل ، فإنها كانت تحس بأن كل من يتقدم لها إنما يضع ثراءها ومركز

أسرتها ، فى تقدير أعلى من تقدير جمالها وفتنتها .. فكانت ترفض .. وأبوها يترك لها حرية الرفض ..

إلى أن تقدم إليها عبد السلام ، ولم يكن أصيلا فى هذا المجتمع إنما كان دخيلا عليه أو عضوا جديدا فيه .. بدأ حياته بعد أن تخرج فى كلية الهندسة موظفا عاديا صغيرا ، ثم استقال من وظيفته ، ولم يسع للعمل بالمؤسسات والشركات التى أصبحت تغرى كل الطامعين فى الثراء وفى مراكز النفوذ ، خصوصا إذا كانوا مهندسين ، ولكنه سافر للعمل فى إحدى البلاد العربية ، وهناك اكتسب من الصداقات ما أتاح له أن يحقق كثيرا من الصفقات .. وأصبح أحد رجال الأعمال .. واتسعت صفقاته إلى أن شملت أكثر من بلد عربى ، وامتدت إلى دول أوروبا ..

وعندما رأته لأول مرة فى إحدى حفلات المجتمع ، خيل إليها أنه ليس منهم .. ليس من هذا المجتمع .. إن مظهره لا يزال بسيطا كأى مهندس صغير ، وحديثه ليس فيه ادعاء .. يكاد يتكلم بأسلوبها نفسه ويعبر عن آرائها نفسها ، ويهوى كل ما تهواه .. الأغانى البلدى ، والرقص البلدى .. والرقصة الوحيدة التى رقصها معها كانت على موسيقى « التانجو » ، وقد رقصها كأنه يؤدى واجبا ثقيلا ، وخيل إليها أنه لو أمسك بعصا ورقص رقصة بلدية لانفعل أكثر وكان أسعد حالا ..

ولم تحس به يفتعل أى شىء معها .. إنه بسيط .. بل إنه تركها وهو يتحدث إليها ، واتجه إلى أحد المدعوين ليحادثه ، دون أن يستأذنها ، وعاد إليها دون أن يعتذر ، وكأنها ليست الابنة المدللة لرجل الأعمال المعروف الواسع الثراء .. ولم يحاول فى أول لقاء أن يرتبط بها أى ارتباط ، ولا حتى ارتباط صداقة .. ولكنها فوجئت به فى اليوم التالى يتصل بها فى التليفون ويسألها فى لهفة تكاد تصل إلى حد الجزع .. هل نسى معها ولاعة سجائره .. إنه يذكر أنه كان يشعل لها سجائرها .. وربما نسيها

معها ، وهى عزيزة عليه لأنها أول ولاعة اشتراها من أول مرتب تقاضاه .. كلفته أيامها ثلاثة جنيهات . وهو لا يزال يحتفظ بها ويستعملها برغم مضى اثنى عشر عاما ، وبرغم أن لديه عشرات الولاعات الثمينة وكلها تلقاها كهدايا ..

وكانت لهفته على ولاعته أشبه بلهفة الأطفال .. ولم تكن الولاعة معها ، ولكنها ذهبت إلى البيت الذى كان به الحفل ، وبحثت مع أهله عن الولاعة .. ووجدتها وفرحت بها ، لا لأنها وجدتها ولكن لأنها تأكدت بأنه لم يكن يخدعها عندما ادعى فقدانها كحجة للاتصال بها .. ودعته إلى بيتها لتعطيه الولاعة .. وجاء فرحا كالطفل الذى وجد لعبته بعد أن فقدها .. وكان بسيطا عاديا ليس فيه أى مظهر من مظاهر المجتمع الذى تضيق به .. حتى وأبوها جالس معهما لم يحاول أن يتقرب إليه بهذا الأسلوب الذى تعودت أن يتقرب به الناس إلى أبيها وإليها .. ولكن .. عندما بدأ أبوها يحدثه فى تفاصيل عمل يهمه وجدته يتغير كلية .. ينسى أنها بجانبه .. ويدير ظهره لها .. وتتغير ملامح وجهه كأن هذا الوجه قد أصبح جدول أرقام .

وحاول والدها أن يدعوه للبقاء لتناول العشاء ، ولكنه اعتذر قائلا فى بساطة :

- إن كل ما أريده الآن هو أن أتمشى على قدمى فى طريق المعادى قبل أن أنام .. هل تأتى معى ..

واعتذر والدها ضاحكا ..

وقامت تودعه حتى الباب .. وسألته مداعبة :

- هل هو حقا طريق المعادى .. أو طريق آخر ..

وقال فى بساطة :

- تعالى معى ..

وقالت بالبساطة نفسها :

- انتظرنى ..

ولحقته فى الشارع ، ليسيرا معا فى طريق كورنيش المعادى على شاطىء النيل .. وليس بينهما إلا حديث بلا موضوع .. إنه لم يحاول أن يمسك بيدها ..

وتزوجته ..

لا لأنه شاب ناجح دخل مجتمع رجال الأعمال .. ولا لأنه تقدم إليها باعتبارها ابنة الرجل الناجح الثرى .. إنما لأنها أحبته .. ولأنها عرفت أنه يحبها .. أحبته كرجل بسيط ، وأحبها كفتاة بسيطة ..

وفرحت بأول مفاجأة تلقتها بعد الزواج ..

إنه يغار .. يغار عليها ..

وقد كان من بين أصدقائها قبل الزواج شاب كل ما كان يربطها به أنه فنان كان يرسم .. وكان يحفظ الأشعار والأزجال .. وكان أحيانا يمسك بالعود ويؤكد أنه يستطيع أن يعزف عليه .. وكان كل ما يجمعها به هو متعة الفن المنطلق المهووس .. ومتعة أن يعيش بعيدا عن المجتمع الذى تضيق به .. لا شىء آخر ، ولا حتى ما يمكن أن يثير حولها أى إشاعة .. ودخل زوجها عبد السلام ووجدها تحادثه فى التليفون .. واستمرت فى حديثها معه منطلقة ضاحكة وعبد السلام بجانبها .. وسألها من هو .. وعندما أخبرته ، وروت له ما تعرفه عن شخصية صديقها ضاحكة .. ثار عبد السلام .. ثار حتى كاد يحطم التليفون .. ويحطم البيت .. ويحطمها .. إنه لا يقبل أن تكون زوجته على علاقة بهذا الصنف من الناس . لا يقبل أن تعرف رجلا لا يعرفه .. لا يقبل .. لا يقبل .. وهى تتلقى ثورته فى فرح .. إنه يغار .. إلى هذا الحد يحبها حتى يغار من صداقتها لرجل هو نفسه يعلم أنه لا يستحق أن يكون موضع غيرة ..

وعاشت أياما سعيدة بغيرته ..

إلى أن صدمت بالمفاجأة الثانية ..

كانت مدعوة مع زوجها فى إحدى سهرات رجال الأعمال ، وجلس معهما عزمى عبد الله ، رئيس مجلس إدارة بنك المعاملات الخارجية .. وهو رجل سكير ، ثقيل الظل ، وقح ، وتعلم أن زوجها له أعمال كثيرة معه ومع البنك .. وبدأ الرجل يوجه إليها ألفاظا جريئة ، وتوقعت أن يغضب عبد السلام ، ولكنه لا يغضب ، إنه يضحك على الكلمات الجريئة ويعتبرها نكات .. ثم سقطت بعض قطرات من كأس الرجل على ثوبها ، فإذا به يعتذر فى سماجة ، ثم يصمم على أن يجذب يدها ويقبلها استمرارا فى الاعتذار .. ثم لا يكتفى .. ويقول فى سماجة :

- يجب أن أعتذر لكل أصبع ..

ثم يبدأ فى تقبيل كل أصبع من أصابع يدها ..

وزوجها عبد السلام ساكت .. ويقول ضاحكا :

- كفى أصبعا واحدة يا عزمى ، وإلا سكبت زجاجة كاملة وأخذت تقبل الباقى ..

كلام جارح لم تكن تنتظره من عبد السلام .. وقد تكررت منه هذه المواقف .. مواقف التساهل مع كل من يعمل معه أو يشترك معه فى صفقة .. تساهل إلى حد السكوت على الغزل الوقح الذى يوجه إليها .. وكانت أحيانا تشكو له من رجال هذا المجتمع ، وتحاول أن تثيره .. إن هذا الرجل حاول أن يلصق خده بخدها وهى تراقصه .. وهذا ضغط على خصرها بأصابعه وهو يسير بجانبها .. و .. و .. و .. ولكنه لا يثور .. بل إنه أحيانا يلتمس الأعذار لهؤلاء الرجال .. ويدافع عنهم بأن هذه تقاليد وطبائع المجتمع الذى يعيشونه ..

واعتقدت يوما أنه لم يعد يغار عليها .. ربما لا يزال يحبها . ولكنه لم يعد يغار .. ألهاه تهافته على النجاح فى صفقاته عن الإحساس بالغيرة .. وأرادت أن تجربه .. تجرب إحساسه .. فدعت صديقها الفنان صلاح إلى بيتها ، فى وقت كان فيه عبد السلام خارج البيت .. وجلست مع صلاح بالبساطة التى تعودت أن تجلس بها معه قبل الزواج .. يتحدثان عن الفن ، ويردد لها الأشعار والأزجال ، ويعزف لها على البيانو ، ويتضاحكان .. إلى أن عاد عبد السلام وفوجىء بأن وجدها مع صلاح ، وصرخ :

- من أذن لهذا الرجل أن يدخل البيت ..

قالت فى دهشة لنوبة الغيرة التى عادت إليه :

- أنت تعرف أنه صديقى ..

وعاد يصرخ :

- أنا لا أسمح بأن يكون لك صديق .. هذا الصنف من الأصدقاء .

ثم التفت إلى صلاح وارتفع صراخه :

- اخرج .. اخرج من هنا .. وسأقتلك بحذائى لو رأيتك مرة ثانية ..

وقال صلاح فى برود الفنان :

- آسف .. إنى لست هنا بناء على دعوتك .. من دعانى هو صاحب الحق فى طردى .. ولست أنت ..

وجن عبد السلام ، وهجم على صلاح وانهال عليه ضربا . ثم حمله بيديه وطرده خارج البيت .. والخدم ينظرون إلى ما يجرى فى عجب .. وهى .. إن كل إحساسها تجمع فى احتقار زوجها .. إنها الآن قد تأكدت من أنه مجرد رجل آخر من رجال الأعمال .. لا يحبها ، ولكنه يحب صفقاته .. ولا يغار عليها ولكنه يغار على صفقاته .. وليس حريصا عليها ولكنه حريص على النجاح فى صفقاته ، حريص إلى حد أن يضحى بها

ويبيعها من أجل صفقة .. إنه يقبل التساهل مع من يقبّل أصابعها ، ومن يضغط على خصرها ، ومن يتمسح بخدها ، ما دام هذا التساهل يؤدى إلى نجاح الصفقة .. ولكنه لا يتساهل فى مجرد نظرة يلمحها فى عينيها ، أو ضحكة تعلو شفتيها ، أو جلسة متباعدة بريئة ، إذا كان كل ذلك موجها إلى رجل ليس له معه عمل ولا تربطه به صفقة .. إنها بالنسبة له أشبه بولاعة السجائر التى يحتفظ بها ، يشعل بها السجائر لكل من يتعامل معه ، ويرفض أن يشعل بها سيجارة رجل لا يستفيد منه .

إنها صورة رجل الأعمال كما قرأتها فى كثير من القصص ، وكان آخرها قصة « دمى ودموعى وابتسامتى » ، وكان عبد السلام من الذكاء عندما التقت به لأول مرة بحيث أقنعها أنه صورة أخرى .. صورة الرجل العادى النظيف الذى يعيش بإحساسه وعواطفه لا بصفقاته ..

ولكنها تحبه ..

والحب بدأ يقودها إلى إحساس جديد عليها .. لقد بدأت تغار عليه .. ولم تكن تغار من امرأة أخرى ، بل أصبحت تغار من عمله .. من صفقاته .. من نجاحه الذى يدر عليه وعليها كل هذه الأموال .. وهو لم يتغير .. لقد تكتم حادثته مع صديقها الفنان ، فلم يعرف بها المجتمع الذى يعايشانه وعاد كما كان .. يستعملها كما يستعمل ولاعة سجائره فيشعل بها سجائر من يتقرب إليهم لإنجاح صفقاته ، ويضن بها على من لا يحتاج إليه ..

وقادها هذا الإحساس إلى قرار غريب كأنه قرار من عقلية مجنونة .. قررت أن تضعه فى موقف يحتم عليه أن يختار بينها وبين صفقاته ..

وكانت تعلم أنه بدأ فى صفقة جديدة يعتمد فى تنفيذها على عزمى عبد الله ، رئيس بنك المعاملات الخارجية .. وهى صفقة تساوى ملايين الجنيهات .. وهى منذ ولدت فى مجتمع المعاملات والأعمال ، تستطيع أن

تفهم بسرعة أسرار كل صفقة .. وهذه الصفقة الجديدة تتم بوسائل خطرة ، فإن زوجها عبد السلام يتولاها دون أن يجازف بأى مليم من جيبه ، إنما يعتمد على أن يغطيها البنك ماليا دون أن يكون له أى رصيد فى هذا البنك .. ودون أن يقدم أى ضمان ، إنما يعتمد اعتمادا كاملا على عزمى عبد الله الذى سيخرج هو الآخر بنصيب من أرباح الصفقة إذا نجحت . أما إذا فشلت ، فإن عزمى عبد الله الرجل السكير ، الوقح الثقيل ، يستطيع أن يجد دائما طريقا ليغطى خسائر البنك وضياع أموال المساهمين ..

وبدأت فى تنفيذ الخطة المجنونة .. خطتها ..

أخذت تشجع عزمى عبد الله على مغازلتها .. وأى رجل لا يستطيع أن يأخذ من المرأة أكثر مما تعطيه المرأة وتشجعه به على الأخذ .. وقد بدأ يأخذ .. يقبل أصابعها دون أن تعترض .. ثم تعطيه ليقبل ذراعها .. ثم تتركه يحتضنها وهى تراقصه .. وعزمى عبد الله مبهور .. لا يصدق أنه أصبح من حقه أن يأخذ كل هذا .. وفى الوقت نفسه بدأت تحاول أن تثير شكوك زوجها ، إلى أقصى ما يمكن أن تصل به من شكوك .. كان يدخل عليها فيجدها تتحدث فى التليفون ، ولا تكاد تراه حتى تلقى السماعة فورا .. وكان يسكت أحيانا كأنه يقاوم الشك ، وأحيانا يسألها مع من كانت تتكلم .. فتقول إنها كانت تحادث صديقتها فلانة ، فيدعى الهدوء ثم تراه بعد فترة يحادث صديقتها ليتأكد من أنها كانت تحادثها .. وأحيانا أخرى كان يعود إلى البيت فلا يجدها .. أو تتأخر عن موعد تناول الغداء المتفق عليه .. أو تعتذر عن مصاحبته لتلبية دعوة ، لأنها متعبة ، ثم تتركه يكتشف أنها خرجت بعد أن خرج .. و .. و .. كل ما يمكن أن يخطر على بال امرأة مما يثير شكوك رجل .. والخناقات بينهما لا تتوقف .. والتباعد بينهما يتكرر .. يتباعدان ثم يعودان ، ثم يتباعدان .. ولكن شكوكه لا تصل به أبدا إلى حد القطيعة النهائية .. إنه ينتهى بتفسير كل هذا على أنه من

طبيعة أهل المجتمع الذى يعايشانه ، ما دام لم يصل إلى دليل يحيل الشك إلى حقيقة ..

إلى أن قررت أن تبدأ الخطوة الثانية ..

وكان عزمى عبد الله يراقصها فى إحدى السهرات ، ويكرر كلمات الغزل السخيف الوقح . فقالت له ضاحكة ، وهى تلفه بعينيها :

– إنى لا أسمع منك هذا الكلام إلا وأنت سكران ..

قال فى لهجة الجائع :

– إنى لا أسكر إلا لأنى محروم .. كل ما أتمناه أن أراك وأنا فى غنى عن الكأس ..

قالت وهى تنظر إليه فى إغراء مفتعل :

– ومتى أغنيك عن الكأس ..

قال :

– عندما تأمرين ..

قالت :

– حدثنى غدا فى التليفون حتى أثق أولا أنك تستطيع أن تتكلم بلا كأس .. ثم أقرر ما تستحقه غير مجرد الكلام ..

وحدثها بالتليفون فى اليوم التالى ، فى موعد هو نفسه كان مطمئنا إلى أن زوجها ليس معها .. ولم تمض بضعة أيام قليلة على أحاديث التليفون ، حتى حددت له موعد لقاء .. وقبلت أن تلقاه حيث تعود أن يلتقى بالنساء .. فى بيت بضاحية المعادى .

وأخذت تكمل تنفيذ الخطة .. فاتصلت بصديقة لها من خارج هذا المجتمع واتفقت معها على ما تقوم به .. وفى الوقت نفسه الذى أخذت فيه سيارتها واتجهت بها إلى المعادى ، اتصلت صديقتها بزوجها عبد السلام

فى تليفونه الخاص ، وقالت فى لهجة سريعة :

– إنى صديقة تشفق عليك .. هل تريد أن تعلم أين زوجتك شهيرة الآن .. إنها فى أحضان رجل فى فيلا بشارع فهمى بالمعادى رقم سبعة ..

ثم أنهت الصديقة المحادثة بسرعة ..

وكانت شهيرة قد وصلت إلى وكر عزمى عبد الله .. وجلست تستمع إلى غزله السخيف وتتركه يتحسسها بيديه ، وهى فى انتظار أن يدخل عليها زوجها عبد السلام .. وكانت تعتقد أنه بعد أن تحدثت صديقتها سيتصور أنها مع صديقها الفنان ، أو أى صديق آخر من هذا النوع ، فيأتى مندفعا مجنونا ، ليفاجأ أنها مع صديقه عزمى ، وأنه أصبح عليه أن يختار بينها وبين الصفقة .. بين حبه وشرفه وبين نجاحه كرجل أعمال ..

ومرت ساعة .. ساعتان .. ولم يظهر عبد السلام .. وبدأ القرف من الرجل الجالس بجانبها يتغلب على غيظها من عبد السلام .. ثم إن هذا الرجل وصل إلى الحد الذى لا تستطيع معه أن ترفض بقية مطالبه .. فقامت وانصرفت وهى تعده بموعد آخر .. وسكاكين حادة تشق فى صدرها .. ربما لم تستطع صديقتها أن تتصل بعبد السلام .. ربما لم يصدقها عبد السلام واعتقد أنها محاولة دسيسة من أعدائه وهم كثيرون .. أو ربما لا يهمه إلى هذا الحد أن تكون فى أحضان رجل آخر ..

وعادت إلى البيت وجلست بكل أحاسيسها المجنونة فى انتظار زوجها .. ودخل إليها وهو يحاول أن يبدو طبيعيا هادئا ، وإن كانت تفضحه نظرات غل وغيظ مكبوت تملأ عينيه ، وسألها كأنه لا يبالى :

– أين كنت اليوم ؟

وقالت وهى تدعى اللامبالاة :

– كنت فى زيارة صديقتى عواطف ..

وقال فى هدوء :

- من حقى أن أتأكد ..

ثم اتجه إلى التليفون وأدار رقم صديقتها عواطف .. وتأكد أن شهيرة كانت فى زيارتها . فقد زارتها فعلا وهى فى طريق عودتها من بيت المعادى ..

وفى اليوم نفسه قال لها عبد السلام وكأنه لا يتعمد شيئا :

- شهيرة .. أرجوك ألا تخرجى من البيت إلا مع مدبولى السائق .. إن قيادة السيارات فى الشوارع أصبحت محاولة انتحار ..

وابتسمت شهيرة بينها وبين نفسها ، كأنها وجدت الحل لتنفيذ خطتها .. إن مدبولى هو سائقه الخاص .. وهو جاسوسه .. إن مدبولى يستطيع أن يحقق كل ما تريده .. وقالت مبتسمة :

- لك حق .. لن أخرج إلا مع مدبولى .. هل تستطيع الاستغناء عنه ؟

قال فى برود :

- أستطيع .. من أجلك ..

وبعد أيام حددت موعدا آخر مع عزمى عبد الله .. وصحبها مدبولى إلى بيت المعادى ، ودخلت وهى واثقة أن مدبولى سيتصل مباشرة بسيده ليبلغه أين هى ..

وتعمدت أن تكون مع عزمى فى أوقح وأجرأ صورة يمكن أن يراها زوجها ووصلت إلى حد أن خلعت ثوبها .. وأسقطت حمالات قميصها من فوق كتفيها .. وتركت « السوتيان » يتساقط فوق ثديها .. وهى لا تحس بما يفعله بها عزمى .. ولا بأصابعه الخشنة البشعة وهى تلتهم لحمها .. إن كل إحساسها مركز فى أذنيها فى انتظار أن تسمع وقع خطوات ..

ولم تكن قد مرت ساعة عندما بدأت تسمع ..

خطوات مهرولة تدخل البيت ..

وكلمات عنيفة ولكنها خافتة تتردد كأنها صراخ مكتوم يحرص الصارخون بها على مداراة فضيحة ..

وانتفض عزمى واقفا متطلعا ..

وبقيت هى جالسة فى مكانها فوق الأريكة ..

وقبل أن ينصرف أحدهما ، فتح باب الغرفة بعنف ، ودخل عبد السلام وفى يده مسدس مرفوع ..

وعزمى يقف مرتعشا مبهوتا ..

وهى ترقب عزمى فى هدوء كأنها تراجع تفاصيل الخطة التى وضعتها ..

إن عبد السلام لا ينظر إليها .. إنه لا يرى ثوبها المخلوع ، وكتفيها العاريتين .. وثدييها المكشوفتين ، وحذاءها الملقى بعيدا عن قدميها ..

إن كل عينيه مركزتان على عزمى .. وقال من بين أنفاسه المتهدجة :

- أنت .. أنت يا عزمى ..

ويطيل النظر إليه كأنه يفكر .. وعزمى يرتعش ويكاد يسقط على الأرض من رعشته ، ثم قال فى كلمات منهارة كأنها دموع رجل جبان :

- أنا .. أنا .. أنا مستعد لأى شىء يا عبد السلام .. إنى ..

وصرخ عبد السلام مقاطعا :

- اسكت .. ولا كلمة .. حسابى معك فيما بعد ..

وشهيرة مبهورة .. أهذا كل ما تستحقه .. أهذا كل ما يساويه حب عبد السلام لها .. إنه حتى لا يضربه كما ضرب صديقها الفنان .. وأيضا لا يضربها .. إنها تستحق أن يوجه المسدس إليها ويقتلها بعد أن يقتل عزمى .. ولكن يبدو أنه فكر فى الصفقة التى لم تتم بعد مع بنك المعاملات

الخارجية .. إن الصفقة أهم منها .. إنها حبه الوحيد ..

وكانت قد ارتدت ثيابها بسرعة ، ورأت عبد السلام يشير إليها ، وهو يضع المسدس فى جيبه ، ويهم أن يخرج من البيت ، قائلا كأنه مستسلم لمصيبة :

- تعالى يا شهيرة ..

واقتربت منه فى خطوات ثابتة ، وبلا خوف ، وهى تقول :

- أهذا هو كل شىء .. أهذا كل ما يمكن أن يحدث ؟!

ثم بسرعة مدت يدها فى جيبه ، وأخرجت المسدس ، وأطلقته .. أطلقته على عزمى ..

وسقط عزمى عبد الله رئيس مجلس إدارة بنك المعاملات الخارجية ، قتيلا ..

وقالت شهيرة فى هدوء وهى تنظر إلى زوجها عبد السلام ، ودون أن تلتفت إلى الجثة التى وقعت تحت قدميها :

- هذا ما كان يجب أن تفعله ..

ثم ألقت المسدس على الأرض ، واتجهت خارجة من البيت ، وعبد السلام يصرخ :

- يا مجنونة .. هى التى قتلته .. هى التى قتلته ..

واشتد الصراخ فى الحى كله ، وتجمع الناس ، وجاء البوليس .. وقبض على عبد السلام ..

ولم تفق شهيرة من جنونها إلا بعد أن استطاعت أن تهرب من البقاء فى مكان الجريمة .. ووصلت إلى بيتها ..

لماذا فعلت كل هذا ؟

إنها لم تكن تقصد كل هذا .. لم يخطر على بالها أن تقتل أبدا .. كل ما كانت تقصده هو أن تضع زوجها فى موقف اختيار بينها وبين الصفقة ، حتى تتأكد من حبه .. إما أن يختارها ويضحى بصداقته لعزمى عبد الله ، وعلى الأكثر يضربه كما سبق أن ضرب الفنان صلاح ، ويضحى بالصفقة ، وإما أن يضحى بها ..

وقد كانت حريصة على ألا تعطى كل شىء حتى تعود إلى زوجها وهى لا تزال مخلصة .. ولم تعط عزمى إلا أكثر قليلا مما كان يسمح لها زوجها بإعطائه إياه . كان زوجها يتركه يقبل أصابعها ، ويتمسح بشفتيه على خدها ، وهى لم تعط عزمى إلا أكثر قليلا .. تركته يقبل ثدييها كما كان يقبل أصابعها .. وقد كانت قرفانة ، ولكنها كانت تريد أن تثير زوجها إلى حد أن يحدد قيمة عواطفه بصراحة .. هى أو الصفقة .. وقد اختار الصفقة .. فجنت .. وقتلت ..

ولكنها لا تستطيع أن تستمر فى جنونها أكثر من ذلك فتترك زوجها عبد السلام وحده حتى يحكم عليه بالإعدام .. هى التى قتلت .. وهو ضحية جنونها ويجب أن تنقذه .. يجب أن تعترف ..

وخرجت من البيت بسرعة وذهبت إلى حيث كان التحقيق يجرى مع عبد السلام .. إنها ستعترف .. ولكنه ما كاد يراها حتى عاد يصرخ :

- هى التى قتلت .. زوجتى هى القاتلة ..

ونظرت إليه فى احتقار وقرف .. إنه أيضا يريد أن يبيعها ليحقق أغراضه .. يريد أن ينقذ نفسه حتى لو طلب منه أن يقتلها بيديه .. لو انتظر قليلا لسمع اعترافها على نفسها .. لو حاول على الأقل أن يتفاهم معها على وسيلة لإنقاذها من حبل المشنقة ، لاعترفت حتى ولو لم تنقذها هذه الوسيلة .. ولكنه لا يفكر إلا فى نفسه .. لا يحبها .. ولا يستحق أن تعترف ..

وسكتت ..

تركته يصرخ دون أن تتكلم ..

وأسرع المحامى الكبير الذى كان قد استدعى للوقوف بجانبه فى أثناء التحقيق ، وبدأ يهمس فى أذنيه .. إن من مصلحته أن يعترف بأنه هو الذى قتل ، لأن الجريمة فى هذه الحالة ستعتبر مجرد ضبط زوجة فى حالة تلبس بالزنا .. وهى جريمة يعتبرها القانون جنحة .. مجرد جنحة ، ولا يتجاوز الحكم فيها السجن ثلاث سنوات ، وهو كفيل بأن يحصل له فيها على البراءة .. أما إذا ثبت أن الزوجة هى التى قتلت ففى هذه الحالة تعتبر الجريمة جناية حتى لو كانت دفاعا عن النفس ، وبما أنه كان موجودا فى مكان الجريمة وهو زوجها فإنه على الأقل سيعتبر شريكا لها ، ويستحيل إثبات حالة التلبس بالزنا ، ويصبح من الصعب إنقاذه ..

واقتنع عبد السلام بسرعة ..

وعاد إلى التحقيق يعترف بأنه قتل عزمى عبد الله بعد أن ضبطه فى حالة تلبس مع زوجته ..

وعندما سئل عبد السلام لماذا غير فى أقواله ، أجاب المحامى بأنه - أى عبد السلام - عندما قال إن زوجته هى القاتلة كان يقصد أنها هى التى دفعته إلى القتل ، وقد أخطأ فى التعبير لأنه كان فى حالة عصبية .. ثم استطاع المحامى أن يثبت حالة التلبس ، ومع كل الشهود الذين شهدوا بتردد شهيرة على هذا البيت الذى يخصصه عزمى لنزواته النسائية الخاصة ، فقد كان أقوى دليل على حالة التلبس هو أن « سوتيان » شهيرة سقط منها وهى تعيد إرتداء ثيابها ، ونسيته ، ووجد بجانب جثة القتيل ..

وأفرج عن عبد السلام بعد انتهاء التحقيق ..

وبعد شهور ، صدر عليه الحكم بالحبس عاما واحدا مع وقف التنفيذ .

* *

ولم يقدم عبد السلام زوجته شهيرة للنيابة للتحقيق معها بتهمة الخيانة الزوجية .. تهمة الزنا .. والنيابة ليس من حقها أن تستدعى زوجة إلا بناء على طلب زوجها ، وما دام مستمرا فى معاشرتها معاشرة الأزواج .. وهو لا يزال يعاشرها .. إنهما فى بيت واحد .. وكل منهما ينظر إلى الآخر دائما كأنه ينتظر منه مفاجأة .. ولا يحاول أحدهما أن يترك الآخر .. لا هو يطلقها ، ولا هى تطلب الطلاق .. ربما لأنه لا يزال يقدر أنه فى حاجة إليها .. إليها .. وإلى أبيها ، وربما لأنه يخاف أن يتركها حرة فتتمكن منه أكثر .. وربما لأنه يدارى فضيحة .. وهى .. ربما أصبحت تحس أنها مسئولة عن كل ما حدث ، فاستسلمت له ، تحاول أن تعوضه ، وتحاول أن تكفر عن جنونها .. ولكن .. كل منهما أصبح يخاف الآخر ..

والمجتمع من حولهما - مجتمع رجال الأعمال - حائر فيهما .. بعضهم يصدق أن عبد السلام هو القاتل ، ويحكم عليه بأنه لم يستطيع أن يرتقى بنفسه إلى المستوى الحضارى المحترم .. إنه لا يزال كما ولد .. بلدى .. تسيطر عليه الأحاسيس البعيدة عن التقدم الفكرى .. فكر رجال الأعمال .. إن أعلى اندفاع يمكن أن يصل إليه الفكر المتقدم فى مثل هذه الحالة هو الطلاق .. وحتى الطلاق قد تطورت صورته حرصا على استمرار الوضع الاجتماعى ، وأصبح مجرد ما يسمى « الانفصال الجسدى » ، أى ينام كل من الزوج والزوجة فى غرفة منفصلة ، ويبقى المجال الاجتماعى بعد ذلك مفتوحا لممارسة العمل وعقد الصفقات .. أما القتل .. فهو منتهى التأخر .. الغباء .. إن عبد السلام لم يعد يصلح ليكون رجل أعمال ..

وبعضهم الآخر لا يصدق أن عبد السلام قد قَتَل .. وخصوصا إذا كان القتيل عزمى عبد الله .. إن قتل عزمى معناه قتل صفقة ، وعبد السلام أنكى من أن يقتل صفقة .. لابد أن الرصاصة قد انطلقت خطأ .. لابد أنه

لم يكن يعرف أنه سيجد عزمى فى هذا البيت ، وإلا لما فكر فى أن يحمل مسدسا ، وربما لم يكن قد ذهب إطلاقا إلى هذا البيت ..

والمجتمع كله حريص على أن يخفى الحادثة .. تمت الاتصالات حتى لا تنشر أخبارها فى الصحف .. وخبر قتل عزمى عبد الله نشر فى صفحة الوفيات بجريدة الأهرام .. توفى إلى رحمة الله .. والجنازة استكملت كل المظاهر الرسمية .. والرؤساء والشخصيات الهامة لا تتناقل الحادث إلا همسا حتى لا تصل إلى الاتباع وصغار الموظفين .. ولم يكن كل ذلك حبا فى عزمى أو فى عبد السلام .. إنه ليس مجتمع حب ولكنه مجتمع عمل .. ومثل هذه الفضائح يمكن أن تؤثر فى جو العمل ، وتطلق ألسنة الصغار على الكبار ..

ولكن ..

معاملة هذا المجتمع لعبد السلام وزوجته بدأت تتغير ..

لا شك أن كثيرات من نساء المجتمع بدأن ينظرن إلى عبد السلام نظرة إعجاب جديدة ..

أصبح يبدو أمامهن كأنه بطل أسمر تتمناه كل منهن .. تتمنى أن تجد رجلا يقتل من أجلها .. يغار عليها ويتحمل مسئولية جسدها إلى حد القتل .. وربما كان من بينهن من تحسد شهيرة على أنها وجدت مثل هذا الزوج .. ولكن المجتمع نفسه بدأ يتعامل مع عبد السلام بأسلوب جديد كأنه لم يعد منهم . أو كأنه عزل من المراكز القيادية وأصبح واحدا من الأجانب أو واحدا من الذين يقفون على رصيف المجتمع .. وشهيرة أيضا بدأت تحس بتطور هذا المجتمع .. إن الرجال يعاملونها بحرص شديد ، ويغالون فى التمسك بمظاهر التقاليد الرسمية .. لا أحد يتجرأ ويمنحها كلمة غزل ، أو يحييها بنظرة أمل واشتهاء ، بل يترددون فى طلبها للمراقصة ، ومن يراقصها يتعمد أن يحتفظ بها بعيدة جدا عن جسده .. ربما أصبحوا يخافون

عبد السلام ، أو يخافون منها .. والنساء اللاتى يحسدنها على غيرة عبد السلام التى وصلت إلى حد القتل ، تقف بجانبهن نساء أخريات يشفقن عليها لأنها متزوجة برجل يحرمها حريتها التى توازى حريته .. هو يختار من تعجبه ، وهى تختار من يعجبها ..

ولكن عبد السلام نفسه بلغ من غروره بنفسه وبذكائه أنه اعتقد أنه يستطيع أن يتغلب على كل ما يواجهه ..

وقد أحست شهيرة أنه بمجرد أن أطلق سراحه ، وقبل أن يحكم عليه مع وقف التنفيذ ، وقبل أن ينقضى على الجريمة أسبوع واحد ، بدأ يحاول ويسعى لإتمام الصفقة ، وكان يتمنى أن يعين صديق له فى مكان عزمى عبد الله بعد أن قتل ، حتى يتم من خلاله الصفقة .. ويسعى كثيرا لتعيين هذا الصديق ، بل استعملها هى شخصيا فى توجيه كثير من الدعوات ، وسلطها لإقناع والدها .. وهى مستسلمة تنفذ ما يريده منها .. وتشعر أن استسلامها يقودها إلى أن تصبح هى الأخرى امرأة أعمال .. وكانت تدهش لأن عبد السلام يستطيع أن ينسى كل ما حدث .. ينسى القتل .. ليتفرغ للصفقة .. ولكنها هى أيضا بدأت تنسى .. أو على الأقل بدأت تتناسى وتتعمد النسيان ..

ولكن عبد السلام لم يستطع أن يعين صديقه ..

وضاعت الصفقة ..

وبقيت هى ..

انتصرت ..

وبعدها لم يستطع عبد السلام أن يحقق صفقات جديدة .. واعترف أخيرا بأنه لم يعد يستطيع أن يفرض نفسه على هذا المجتمع ، فقرر أن يهاجر .. أن يعود إلى الأسواق العربية والأجنبية حيث بدأ نجاحه كرجل أعمال .. وقبلت أن تهاجر معه ..

إنها لم تنتصر ..

استسلمت ..

وهناك فى البلاد التى هاجر إليها حقق عبد السلام كثيرا من الصفقات ، وهى بين يديه مستسلمة كولاعة سجائره ، يشعلها أمام كل من يختاره .. ولم تعد تعترض ولا تحس بشىء ينقصها .. إنها أصبحت سيدة أعمال ..

وكل ما هنالك أنها أصبحت تمارس حقها فى أن تشعل ولاعة السجائر .. أى أن تشعل نفسها .. لمن تختاره هى أيضا ، لا من يختاره زوجها وحده .

ولم يعد زوجها يعترض ..

حتى لا يقع قتيل آخر ..

رقم الإيداع ١١٧٨٩ / ٩٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 5514 - 89 - 4

مطابع الأهرام التجارية . قليوب . مصر